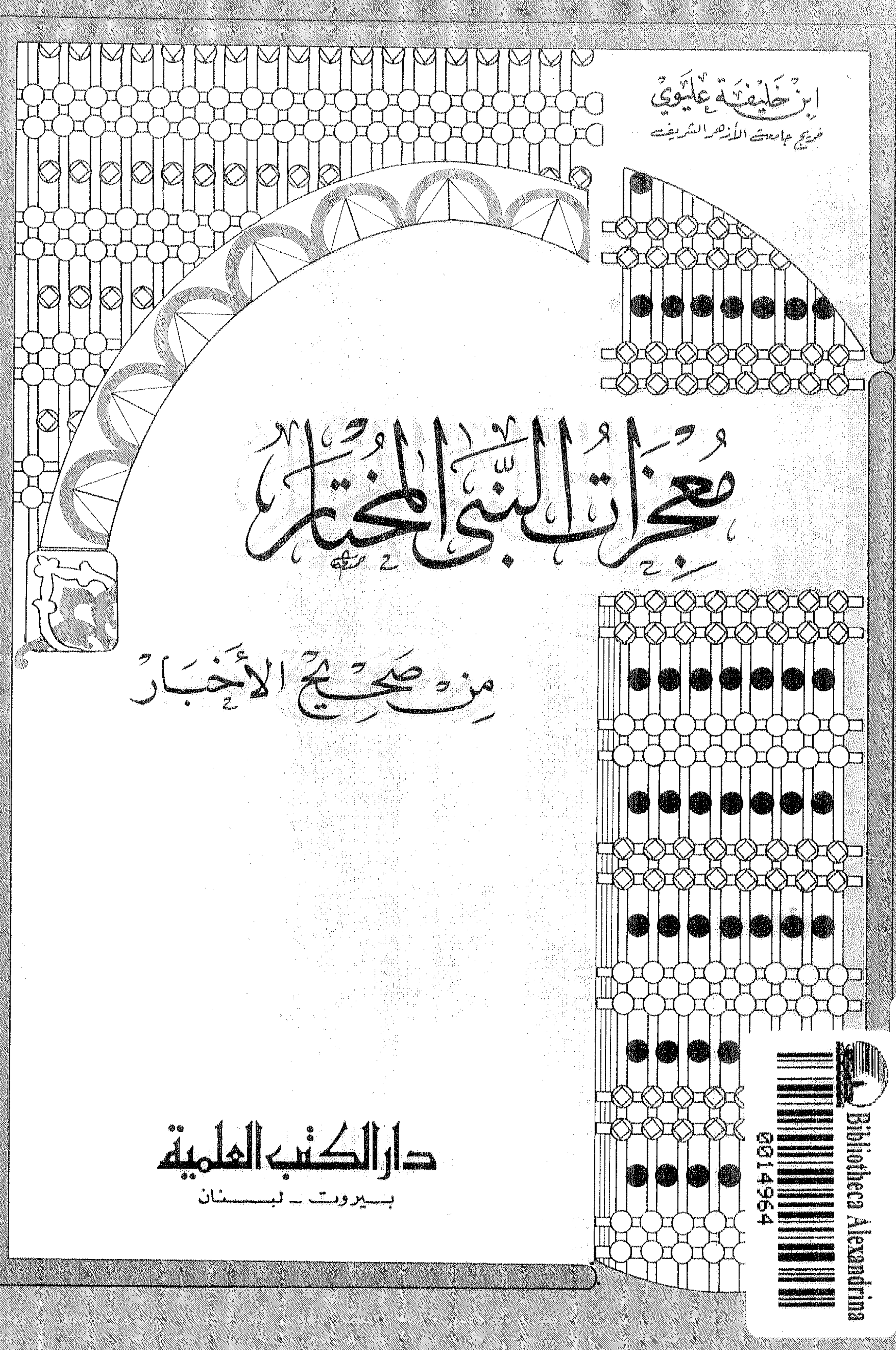

ابن خليفة عليوي
خريج جامعة الأزهر الشريف
معجزات النبي المختار ﷺ
من صحيح الأخبار
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0014964



لابن خليفة عليوي
خريج جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(المقدمة)

لك الحمدُ يا اَللَّهُ على إظْهَارَ دِينِك، وإعْلاءِ كَلِمَاتِك، وعَميم إفْضَالِكَ وَإحْسَانِك، جلَّ جلالُكَ مَا أعْظَمَكَ، وأبْلَغَ حِلْمَكَ وَرَحْمَتِكَ وَلُطْفِكَ بعِبَادِكَ الَّذِينَ أرْسَلْتَ إلَيْهم خَاتَمَ أنْبيَائِكَ، وَذكَرْتَهُ في مُحْكَمِ كِتَابكَ في قوْلِكَ: ﴿هُوَ الَّذي أرْسَلَ رَسُوْلَهُ بالهُدَى وَدِيْنِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّين كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] وذَلِكَ لإظْهَارِ دِيْنِ الإسْلاَمِ علىٰ الأدْيَانِ كُلِّهَا لِيَعْبُدُوكَ وَحْدَكَ؛ ولا يُشْرِكُوا بكَ شَيْئاً. جلّ جلاَلَهُ لقدْ هدى عِبَادَهُ إليْه بما أسْمَعَهُمْ من كلامِهِ، وأنّهُ هو الحقُّ، وأنَّ مَا سِوَاهُ باطلٌ لا حقيقةَ لَهُ، فآمنُوا بكُل ما أنْزَلَهُ على نبيِّهِ ﷺ، واتّبعُوا النُّورَ الّذي أُنْزِلَ مَعَهُ. قال تعالى: ﴿والَّذِيْنَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بمَا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢] فَهُوَ الرَّسُولُ المُجْتَبَى، وخليلُهُ المُرْتَضَىٰ، وحبيبُه المُصْطَفىٰ، وخاتَمُ رُسُلِهِ، والمجاهدُ في سبيله. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبَا أحدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً﴾ [الأحزاب: ٤٠] فكان ﷺ علامةَ رَحْمَةِ اللَّهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ في أرْضِهِ وفي سمٰواتِهِ، في الدُّنْيَا وفي الآخِرَة. قال تعالى: ﴿وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فَبِهَا فُضِّلَ على الأنْبِيَاءِ، وبِهَا نالَ الشّفاعَةَ العُظْمَىٰ، واستحقَّ من اللَّهِ والملائكةَ والنّاس الصّلاةَ عليْه لقولِهِ تعالىٰ: ﴿إنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلىٰ النَّبيِّ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا صلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٥٦] أي قُولُوا اللّهمّ صَلِّ وسلِّم على مُحَمَّدٍ، وانقادُوا لأمْرِه وَحُكْمِهِ

انقياداً كاملاً. أمَّا بَعْدُ: فاعْلم أنَّ مَسْأَلَةَ التَّدليل عَلى وُجُودِ اللَّـهِ تَعالى، وإقَـامَةِ الْبَراهِيْنِ الْقَاطِعَةِ على وُجُودِهِ في هٰذَا الْعَصْرِ لَمْ تَعُدْ مُشْكِلَـةً دِينيَّةً تَتَصَـارَعُ عليْها الْعُقُولُ والأفْكَارُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ والْكُفَّـارِ لأنَّ الْعُلُومَ الحـديثَةَ قَـدْ بَرْهَنَتْ في جَمِيْـعِ أبْحَاثِهَا على وُجُودِ الإلٰهِ الْعَظِيْم. المنظِّم لِهَذَا الكَـوْنِ الْعَجِيْبِ تنظيمَ إعْجَازٍ كتنظيم القرآنِ الكَريمِ ، فهو يَسِيرٌ وَفق نُظُمٍ ثَابِتَةٍ لا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، ومن أحب الوقوفَ على بَرَاهِين وجُودِهِ جلّ جَلَالَهُ فَلْيَرجع إلى مؤلفي / سبعونَ بُرْهَاناً عِلْمِياً عَلَىٰ وُجُودِ الذَّاتِ الإلٰهِيَّةِ / ففيه أبحاث علمية حديثة من أحْدَثِ ما توصلت إليه الإنسانية في العُلوم جميعها عَمَلاً في تحقيق وقوع صدق قـوله تعـالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَـاتِنَا فِي الآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وَقَدْ أَرَاهُمْ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ في آفَاقِ السَّمَـاءِ، وفي أعْمَاقِ الأنْفُسِ. عـدا أنَّ وجودَ الإلٰهِ جلّ جلالَهُ غَريزةٌ مركوزةٌ في الْفِطْرَة الإنْسَانيَّةِ، ويدلك علَيْهَا مـا يَعْتَقِدُهُ عبّـادُ الشَّمْسِ والْقَمرِ والأصْنَامِ .قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فأنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] أي فَكَيْفَ يُصْرَفون عن عِبَادَةِ اللَّهِ مع إقْرَارِهِمْ بِفِطْرَتِهِمْ أنَّهُ هُوَ الخالقُ للسّمٰوات والأرْضِين، وما فيهنّ وما عليهنَّ، وأنَّ ما يعبدُونَهُ من دون اللَّه لم يَخْلُقُوا ذرَّةً من هذه الْمَوْجُـودَاتِ. وَلِذَا كانتِ المشكلةُ الأسَاسِيَّةُ في الدِّيْنِ هي إثْبَاتُ رِسَالاتِ الرّسُلِ الكِرَامِ ، وَممَّـا يَهُمُّنَا نَحْنُ الْمُسْلمينَ هٰهُنَا هُوَ إثْبَاتُ رِسَالةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ. ذٰلِكَ أن الإيمانَ بالنُّبُوَّةِ فرعٌ من الإيمانِ بوُجُودِ اللَّهِ تعالى لأنَّ الصِّلَةَ بَيْنَ اللَّهِ تعالى وبيْنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الانْسَانِيَّةِ لا تكونُ إلَّا بالْوَاسِطَةِ، والواسِطَةُ بين اللَّه تعالى، وعِبَادِهِ هُمُ الرُّسُلُ الكِرَامُ من الملائِكَةِ، وَبَنِي الانْسَانِ، وإثْبَاتُ هٰذا من خَصَائِصِ دينِ الإسْلامِ . فقد وُجِدَتْ مَذاهِبُ تُؤمنُ باللَّهِ، وتُنْكِرُ النُّبُواتِ. وتزعم أنّه لا حاجة لوجود الأنبياء لأنَّ ما أتوا به موافق للعقل، ففي العقل غِنىً عنهم. وَهٰذِهِ مزاعِمُ باطلةٌ، وخُرافَاتٌ شَيْطَانِيَةٌ مُضَلِّلَةٌ. لأنَّ مَا وَرَاءَ الْمَادَّةِ من الأمُورِ الغيْبِيَّةِ كَصِفَاتِ الْمَوْلَىٰ جلَّ جَلَالَهُ، وَكَوَصْفِ الجنَّةِ والنَّارِ، والْحِسَابِ والعِقَـابِ، والثّوابِ لا تُعْـرَفُ بِالْعَقْـلِ عَـدا عَنْ مَـوَازِيْنَ الشّرائِـعِ من الْعِبَـاداتِ، والْمُعَامَلَاتِ، والأخْلَاقِ، فَلَا نَدْرِي كَمْ نُصَلِّي، ولا بكَمْ نُزَكِّي أمْوَالَنَا، ولا نَعْرِفُ مَا هِيَ مَوَاقِيتُ صِيَامِنَا وَحَجِّنَا، وَغَيْرَ ذٰلِكَ من الْفِقْهِ في الدِّيْنِ، وَتُرَاثِ النَّبِيِّينَ، صلواتُ اللَّهِ

عليْهِمْ أجمعـين. لذا كـانَ سَبيلُها الأنبيـاءُ صَلَواتُـهُ وَسَلاَمُـهُ عليْهم، فأرْسُـوا لَنَـا قَوَاعِدَهَا، وَبَيَّنُوا مَعاييرها وحدُودها، وَتَحَمَّلُوا في سبيلِ تَبْليغِهَا أذىً كثيراً، وَقَدْ كَانَتْ الصِّلَةُ بينَ اللَّهِ وَرُسُلـه بواسطة مَلَكِ الْوَحْي: جبريلَ عليْه السلام، ناموسِ الأنبياءِ، وهي كثيرةٌ جدًّا، وقد قصَّ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ الكريمُ طَرَفاً مِنْهَا. مثلَ أمْرِ إبْراهيم علَيْـهِ السَّلام بِذَبْحِ وَلَدِهِ اسماعيلَ عليْهِ السَّلاَمُ، وَمِثْلَ تكْلِيْمِ اللَّهِ لِمُوسىٰ عليْهِ السَّـلاَم، والإسْرَاءِ بِنَبِيِّنَا محَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ من الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلىٰ بَيْتِ المقْدِسِ، ثم عُرج بِهِ إلى السَّماءِ، إلى سِدْرَةِ المنتهى، وخاطبه جلّ جَلاَلَهُ، وَفَرَضَ عليْـهِ وعلى أُمَّتِهِ الصَّلَوَاتِ الخمْس، وَأراهُ الآياتِ الكُبْرى، والصحيح أنه شاهَدَ المولى جلَّ جلاله مشاهدةَ إجْلال وإكْبارٍ وتعظيم لأنَّه تعالى يُسْتَحَالُ عليْه التكييفُ والتّمثيلُ فمنْ مثَّلَ اللَّه تعالىٰ فقدْ حدَّهُ، ومن حدَّهُ فقَدْ عدَّهُ، ومن عدَّهُ فقَدْ أخْطَأَ الْوَصْفَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢] وقدْ كانَ أحْيَاناً يتمثَّلُ مَلَكُ الْوحي: جبريلُ عليه السلام أمَـامَ المسلمينَ بصُورَةِ إنْسَانٍ فَيَراهُ النّاسُ كما في حـديث عمر رضي الله عنـه عند مسلم قال: « **بيْنَمَا نَحْنُ عنْدَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يوْمٍ إذْ طَلَـعَ عَلَيْنَا رَجُـلٌ شَدِيْـدُ بَيَاضِ الثِّيَاب، شَدِيْدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لاَ يُرَىٰ عليْه أثَرَ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ حتَّى جَلَسَ إلى النبيّ ﷺ فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْـهِ. وقال: يا محَمَّدُ! أخْبِرْني عَنِ الإسْلاَمِ. فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإسْـلاَمُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ. وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيْمَ الصَّلاَةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سبيلاً. قال: صَدَقْتَ. قال: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ. قال: فأخْبِـرْنِي عَنِ الإيمانِ. قـال: أنْ تُؤْمِنَ باللَّـهِ وملائِكَتِـهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، والْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خيْـرِهِ وشَرِّهِ. قـال صَدَقْتَ. قـال: فَأخْبِرْني عَنِ الإحْسَانِ. قال: أنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأنَّكَ تَـرَاهُ فإنْ لم تكُنْ تـراهُ فإنَّـهُ يراك. قال: فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قال: مَاالمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فأخْبِرْنِي عَنْ أمَارَتِهَا. قال: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا، وأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قال: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثَ مَلِيًّـا، ثُمَّ قال يَـا عُمَرُ: أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قال: فَـإنَّهُ جبْـريلُ أتَـاكُمْ يُعلِّمُكُمْ**

دِيْنَكُمْ »[1]وفي حديث أبي هريرة بعد هذا: « **ثُمَّ أدْبَرَ الرَّجُلُ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: رُدُّوا عليَّ الرَّجُلَ، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوا شَيْئاً. فقال النبيُّ ﷺ: هَذا جِبْرِيلُ...** »

أفاد هذا الحديثُ الصحيحُ بَعْدَ رؤية جبريل عليه السلام متجسّداً في صورة إنسان: دحي الكلبي أنّه لم يَبْقَ في وجُود اللَّهِ شكٌّ، وكذلك في نُبوَّةِ سيِّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام، بل بلغَ وُجُود اللَّهِ جلّ جلاله درجةَ اليقين، الذي لا يُسَاورُهُ أدْنى شك. وإذا ثَبَتَ هذا في وجود المُرْسِلِ جلّ جلاله، فَيَثْبُتُ في حقِّ المُرْسَلِ، والمُرْسَلِ إلَيْهِ ﷺ، ويزيدنا هذا إيماناً بما أمدَّ اللَّهُ المُسْلِمينَ يوْمَ بَدْرٍ من الملائِكةِ الكرام، فحارَبُوا مَعَهُمْ، وعُرِف قتيلُهُمْ، وتواترت رُؤيتُهم، وآياتُ القرآنِ أكبرُ شاهدٍ على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَد نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أذِلَّةٌ فاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنينَ ألَنْ يَكْفِيكُمْ أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا ويأتُوكُمْ مِنْ فوْرِهِمْ هَذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِيْنَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ الاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزيزِ الْحَكيمِ﴾ [الأنفال: ١٢٤ ـ ١٢٦]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ في مَوَاطِنَ كَثيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شيْئًا وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبرِيْنَ * ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ المُؤْمِنينَ وأنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وعَذَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦] هذا وطُرُقُ إثبات النُّبُوَّةِ في الشّريعةِ الإسلاميَّة هي المُعْجِزَاتُ، وأهم معجزات نبيّنا محمد ﷺ هُو القرآنُ الكريم، فهو المُعْجِزَةُ الخالدةُ إلى يَوْمِ الدِّين. لذا فقد قسّمتُ كتابي هذا إلى قسْمين. القسمَ الأول ويشمل بيان أوجه إعجاز القرآن الكريم.والقسم الثاني ويشمل ما صحّ دليله من مُعجزات النبيُّ الكريم مثل مُعْجزة الإسْراءِ والمعراج، وشقّ صدره الشّريف، وانْشِقَاقِ القمر، وغيرها ممّا صحّ دليلُه، وقويَتْ حُجَّتُهُ، وكان الدافعُ على تأليف هذا الكتاب، هو ما سمعتُه من بعض المحدِّثين، أو الخُطَباءِ من سَرْدِ مُعْجزاتٍ لنبيّنا محمّد عليه الصلاة والسلام لا

---

(١) صحيح مسلم: شرح النووي المجلد الأول جـ١ ص ١٥٧ ـ ١٦٠ طبع وتوزيع مكتبة الغزالي دمشق. ص. ب. ٤٤٨.

يَخْلُو بَعْضُهَا من الوضع، أو المنكر أو الضَّعف، مما حدا بي الشوقُ إلى تـأليفه، وإني لَنْ أذكر فيهِ إلا صحيحَ الأخبار فيما نقل مِنْ معجزات النَّبيِّ المختار ﷺ خدمةً للدَّعْوَةِ الإسْلَامِيَّةِ، وإعلاءً لكلمةِ الدِّينِ، وباللَّه التوفيق وهـو حسْبُنَا ونعمَ الـوكيلُ. وصلَّى اللَّهُ على سيّدنا محمد وآله، وصحابَتِه أجمعينَ. والحمدُ للَّه رب العالمين.

ابن خليفة عليوي

خريج جامعة الأزهر الشريف

القسم الأول

في بيانِ وُجوه إعجاز القرآن الكريم

فأقولُ مُسْتَعيناً باللّه في هذا القسم بأنّي سأقيمُ الأدلّةَ الْعَقْلِيَّة الْقَطْعيَّةَ مقرونةً بالأدلّة القرآنيّة على أنّ هذا القرآنَ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مْن بيْنَ يديْه ولا مِنْ خلفه، مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُن حكيمٍ عليمٍ، وأن القرآن الكريمَ هو المَعجزة الخارِقَةُ لِلْعَادةِ، وأنّهُ هو المعجزةُ الخالدةُ إلى يْوم الدين، فَهُو معجزٌ في أخبارِهِ عن الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وما نزل بِهَا من أحْداثٍ مُؤلِمَةٍ، وهـو معجزٌ من حيْثُ تَحَـدِّيهِ لجميـع المخلُوقات من إنسٍ وجانّ في جميع الأوقـاتِ والأزْمِنَةِ والأمْكِنَـةِ، ولكافّـة الأجيال على أنْ يـأتُوا مُجْتَمِعينَ بأقصر سُورةٍ من مِثْلِهِ، وَهُوَ معجـزٌ من حيْث تَشْريعـه، فَهُوَ دُسْتُـورٌ إلٰهيٌّ سَماوِيٌّ جامِعٌ مانِعٌ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيرةً إلاَّ ذكرَهَا، وَوَضَعَ لها أحْكَاماً شرعيَّةً صالحةً لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ، وهُوَ مُعْجِزٌ من حيْثُ إخْبَارِهِ عن المُغيَّبـات التي ظهَـرَتْ صِحَّتُها فيما بَعْدُ في وَاقع الْحَيَاةِ، وحكَّمَتِ العُقُولُ السَّليمَةُ على اسْتِحَالـةِ العُقُول البشريَّـةِ مَعْرِفَتَها في وقتِ مَا أَخْبَرَ بهَا هذا القرآنُ الكريمُ، فيكون القرآن معجزاً مِنْ حَيْثُ:

١ ـ أخباره عن الأمم الماضية..

٢ ـ تَحَدِّيه لجميع الخلق أن يأتوا بمثله...

٣ ـ من جهة عموم تشريعه..

٤ ـ من جهة إخباره عن المغيّبات..

وزادَ العلماءُ على هذه الأوْجه أوْجهاً أُخرى، ففي السيرة النبـويّة لأحمـد بن

زَيْني دُحلان[1] قال: اعلم أنّ وُجُوهَ إعجازِ القرآنِ لا تنحصرُ، فمِنها الايجاز: أي قلّة اللّفظِ، وكثرةُ المعاني، والبلاغةُ الخارقةُ لعادَةِ الْعَرَبِ حتّى كَانَ في الحدِّ الأعْلَىٰ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ في الْقَصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فجمع في كَلمتين عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كثيرة. وحكى أبو عبيد أنّ أعرابياً سَمِعَ رَجُلاً يقرأ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فَسَجَدَ، وقال: سَجَدْتُ لِفَصَاحَةِ هـذا الكلام... وسَمِعَ أعرابيٌّ آخر رجلاً يقرأ ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خلَصُوا نَجيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهدُ أنّ مخلوقاً لا يقدِرُ على مِثْلِ هذا الكلام. أي لإعجاز بلاغته، وخروجها عن طَوْقِ الْبَشَرِ. وحكى الأصمعيُّ: أنّه رأى جَارِيَةً صغيرةَ السِّنِّ بلغتْ خَمْسَ سِنينَ، أَوْ سِتّاً، وهي تقولُ: استغفرُ اللَّهَ مِنْ ذُنوبي كُلِّها. قال الأصمعيُّ: فقلتُ لها: مِمَّ تستغفرينَ، وأنتِ صغيرةٌ، لم يُجْرَ عليْكِ قَلَمٌ؟! أي لم تبلغي الحُلُمَ. فقالت:

أَسْتَغفِرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ ∴ قَتَلْتُ إنْسَاناً لِغَيْرِ حِلِّه
مِثْلَ غَزَالٍ نَاعِمٍ في دَلِّه ∴ انْتَصَفَ الليلُ ولم أصلِّه

فقلت لها: قاتَلَكِ اللَّهُ ما أَفْصَحَكِ! فقالت: أوَ تُعِدُّ هٰذا فصاحةً بَعْدَ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمريْن، ونهييْن، وخبريْن وبشارتيْن. فالأمران أنْ أرضعيه وألقيه، والنهيان ولا تخافي ولا تحزني، والخبران وأوحَيْنا وفإذا خِفْتِ. وقيل: الخبران والبشارتان: ﴿إنّا رادُّوه إليْكِ وجَاعِلُوهُ من المُرسلينَ﴾ فهو خبر من جهة، وبشارة من جهة. انتهى كلام دُحلان.

وذكر القاضي عياض في الشفا: أن بَعْضَهُمْ عدَّ مِنْ وُجُوهِ إعجازِهِ مُشاكَلَةَ بَعْضِ أجْزائِهِ بَعْضاً، وحُسْنَ ائتلافِ أنْواعِهَا، والْتِئام أقسَامِهَا، وحُسْنَ التخلّص من قِصَّةٍ إلى أُخْرى، والخروجَ من بَابٍ إلى غيْرِهِ على اخْتلافِ مَعَانِيه، وانْقِسَامِ السُّورةِ الواحدةِ إلى أمْرٍ ونَهْيٍ. واسْتِخْبَارٍ وَوَعْدٍ وَوَعيدٍ، وإثْباتِ نُبُوَّةٍ وتَوْحيدٍ

(١) جـ٣ ص ٩٨

وتفريدٍ. وترغيب وتَرْهيبٍ إلى غيرِ ذلك من فَوائِدِهِ دُون خَلَلٍ يتخلَّلُ فُصُولَهُ، والكلامُ الفصيحُ إذا اعْتَوَرَهُ مثل هٰذا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، ولانَتْ جَزالتهُ، وقلَّ رَوْنَقُهُ، وتقلَّلتْ ألفاظُهُ فتأمَّلْ في أوّل (صۤ) وما جُمِعَ فيها مِنْ أَخْبَارِ الكُفَّار، وشقاقِهِمْ وتقريعِهِم بإهْلاكِ القرون مِنْ قَبْلِهِم، وما ذكر من تكذيبهم لمُحَمَّدٍ ﷺ، وتعجُّبهم ممّا أتَى به، والخَبر عن اجْتماع ملأٍ عَلَى الكُفْرِ، وما ظهرَ من الْحَسَدِ فى كَلامِهِمْ، وتعجيزهِم، وتَوْهينِهِمْ، ووعيدِهم بخزي الدُّنيا والآخرةِ، وتكذيبِ الأُمَمِ قبْلَهُم، وإهْلاكِ اللَّهِ لَهُمْ، ووعيدِ هؤلاء مِثْلَ مُصَابِهِمْ، وتصبير النَّبيِّ ﷺ على أذاهُمْ، وتسليتُه، ثم أخذ في ذِكْرِ داوُد وقَصَص الأنبياءِ كلُّ هذا في أَوْجَزِ كلام، وأحْسَنِ نِظَامٍ. ومنه الجُمْلَةُ الكثيرةُ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى التي انطوتْ عليْها الكلِماتُ القليلةُ.

قال: وهذا كُلُّه إلى وجُوهٍ كثيرةٍ ذكرهَا الأَئِمَّةُ داخلٌ في بابِ بلاغَتِهِ، فلا يجبُ أن يُعَدّ فنّاً مُنفرداً في إعجازه إلا في تفصيل فُنون الْبَلاغَةِ. كذا في الدليل الصادق[1] على وجود الخالق. لجابَ اللَّه. وصفوة القول في إعجاز القرآن أنه يَرْجع إلى الوُجُوه الأرْبَعَة التي ذكرتُها لَكَ. وإليك بَيَانُها. فهيَ كافيةٌ ووافيةٌ وشافية لِمَا في الصُّدور.

الوجه الأوّل: جهةُ أخْبارِهِ عن الأُمَم الْمَاضِيَةِ

إنّه لدليلٌ قاطعٌ يقطعُ بصحتِهِ كُلُّ ذي عقل سَليم، وذلك أنَّ أخبارَ القُرآنِ عَنْ أحْوَالِ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، ومَا أَصَابَها، ومَا جَرى عَلَيْهَا بكلِّ دِقَّةٍ مِنْ لَدُنْ آدم عليه السّلام إلى وقت نزول القرآنِ الكريم هُو دليلٌ لا يُداخِلُه شَكٌّ أنّه من لدن عليم حكيم، فالقرآن يُعلنُ بكل صراحةٍ، ويُسمعُ كُلَّ مَا مِنْ شأنِه الخطابُ أن يَسْمَعَ من الإنس والجنّ لأن الجنسيْن معنييْن بذلك الْخِطاب، وهذا البلاغ أسمع إلى قوله تعالى: ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وأمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أليمٌ * تِلْكَ مِنْ أنْباءِ الْغَيْبِ نُوحيهَا إلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أنْتَ ولاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا فَاصْبِرْ إنَّ العاقِبَةَ للمتَّقِينَ * وإلىٰ عادٍ أخَاهُمْ هُوداً قال يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ [هود: ٤٨ - ٥٠]

---

(١) جـ١ ص ١٧٠

وَهَذا مِمَّا يُحيلُ الشكَّ باسْتِحَالة صُدُوره عن بشريٍّ مَهما عظُمَ شأنُـه، وكبُر عقْلُه وذكاؤُهُ. فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ من أنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ خطابٌ للمُصْطَفىٰ ﷺ. يعني أنّ هذه القصة التي أخْبَرْنَاكَ يا محمَّدُ من قصّةِ نُوح، وخبرِ قَومـهِ من أنْباءِ الغيْب. يعني من أخْبارِ الغيب الدَّالةِ على صِدْقِ رِسَالَتِك ﴿نُوحيهَا إلَيْكَ ما كُنتَ تَعْلَمُهَا أنْتَ ولاَ قوْمُكَ من قَبْلِ هَذا﴾ يعني من قبل نُزول القرآنِ عليْك. فإن قُلْتَ أنّ قِصَّةَ نُوح كانَتْ مشهورةً مَعْروفةً في الْعَالَم فكيف قال: ما كنْتَ تَعْلَمُها ولا قَـوْمُكَ من قبـلِ هٰذا. قلت: يُحْتمل أن يكونَ كانُوا يَعْلَمُونَهَا مُجْمَلَةً فَنَزَلَ القرآنُ بتفصيلها وبيانِها. وجواب آخر، وهو أنَّه ﷺ كان أُمِّيّاً لم يقرأ الكتبَ المتقدِّمَةَ، ولم يَعْلَمْها، وكذلك كانت أُمَّتُهُ فصح قوله: ما كُنْتَ تَعْلَمها أنت ولا قومُكَ من قبل هذا أي نزول القرآن بها[1] وهذا دليلٌ قاطعٌ عَقْلاً ونَقْلاً أنّ الإنْسانَ عـاجزٌ عن أن يُحيط بجميـع خفايـا وأحوالِ تلكَ الأُمَمِ مع كَثْرَتِهَا، وانقطاعِ بَعْضِهَا عن بَعْضٍ، خُصُوصاً إذا المُخْبِر أُمِّياً لم يَعْهَدْهُ قوْمُهُ أنَّهُ دَخلَ مكتبةً، أو تخرَّجَ مِنْ مَدْرَسَةٍ، أو جَامِعَةٍ، أو حَضَرَ عِنْدَ مُعَلِّم، وقد نشأ بَيْنَ أهْلِهِ وعَشيرَتِهِ مُنذ وُلِدَ إلى أن بَشَّرَ وَأَنْذَرَ، وجعلَ يُخْبِرُهُمْ بتلك الْحَوَادِثِ، والوقائعِ السَّالِفَةِ، ولم يُفَارِقْهُمْ أبَداً. فثبتَ أنَّ هَذا القرآنَ مُنَزَّلٌ من عِند خالق الْبَشَرِ، العليمِ بأخْبَارِهم وأحْـوالِهِم، ولا يَخْفى عليْه شيءُ ممّـا يُسرّون ومـا يُعْلِنُون، وهو عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُور، فكان قولُه حقّ، وَخَبَرُهُ صدقٌ، ولا يَشُكُّ فيهِ إلاَّ مكابرٌ، أوْ مُعَانِدٌ .

الوجه الثاني: تحدّيه لجميع الخلق أن يَأتُوا بِمِثْلِهِ

نعم إنَّ تحدِّي القرآنُ الكريمُ للإنْسِ والجنِّ على أن يَجْتَمِعُوا وَيَتَشَـاوَرُوا فيما بينهم على أنْ يأتُوا بِأقْصَرِ سُورةٍ مِنْ سُوَرِ القـرآن، وعجزهم عن ذَلِـكَ على مدى أرْبَعَةِ عَشَرَ قرناً لَهُوَ أبْلَغُ دليلٍ على أنّه مُنَزَّلٌ من عند اللَّهِ العظيم. استمع إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ عَلَىٰ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا الْقُرآنِ لَا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ ظَهيـراً﴾ [الإسراء: ٨٨] نـزلت هـذه الآيـة حين قـال المشرِكون: لو نشاءُ لَقُلْنَا مثلَ هذا فكذَّبهم اللَّهُ عز وجل وَوَقَعَ عَجزَهُمْ عن مُعَارَضَتِهِ

---

(١) الخازن جـ٢ ص ٣٣١

لأنّه مُعْجِزٌ في النَّظْمِ والتَّأليفِ والأخْبَارِ عن الْغُيوبِ، والحَاضِرِ والْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ كلامٌ في أعْلَىٰ طَبقَاتِ الْبَلَاغَةِ. لا يُشْبِهُ كلامَ الْخَلْقِ لأنَّهُ كَلَامُ الخالِقِ، وهو غَيْرُ مَخْلُوقٍ. ولو كانَ مَخْلُوقاً لأتَوْا بِمِثْلِهِ. وهذا هو سِرُّ تحدِّي اللَّهُ لَهُمْ بالقرآن على إنْ كانُوا يَشكُّون في رِسَالةِ محمَّد ﷺ فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ. فإنَّه مُرَكَّبٌ من نَفْسِ الحرُوف، والْأَلْفَاظِ الَّتي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا، فلَمْ يقدُروا، وعجزُوا عن ذلك. ثم تنزّل جلَّ جلاله فتحدّاهم على أن يَأْتوا بسورةٍ واحدةٍ مِنْ مِثْلِهِ. اسْمَعْ إلى قوله تعالى: ﴿وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الّتي وَقُودُها النَّاسُ والحجارَةُ أُعِدَّتْ للكافرين﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] إنّ أَصْحَابَ العقولِ السَّلِيمَةِ يُحيلونَ أنْ يكونَ هذا التَّحَدِّي والتهديدُ الشَّديدُ صادِراً عَنْ مخلوقٍ أُمّيٍّ لا يَعْهِدونَ مِنْهُ قراءةً، أو كِتَابةً، بَلْ إنَّهُمْ يَقطَعُونَ بأنّه لا يَصْدُرُ مثلُ هٰذا إلَّا مِنْ إلٰهٍ عَظيمٍ عليمٍ خَبيرٍ هُوَ وَحْدَهُ الذي يَمْلِكُ هذا التحدِّي والتَّهديدَ، وهذا الوعيدَ. وقوله: ﴿فَإِنْ لم تفعَلُوا﴾ أي فيما مَضى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فيما بَقِي. وهذه الآيَةُ دالَّةٌ على عَجْزِهِمْ، وأنهم لم يَأْتُوا بِمثله، ولا بمثْل شيءٍ مِنْهُ. وذلك أن النُّفُوسَ الأبيَّةَ إذا قُرِّعَتْ بمثل هٰذا التقريع، واستفرغتْ الوسعَ في الاتيان بمثْل القُرآن، أو بمثل سُورةٍ منه، ولو قدروا على ذلك لأتَوْا به، فحيثُ لم يأتُوا به ظهرتِ الْمُعْجِزَةُ للنّبيِّ ﷺ، وبان عَجْزُهُمْ، وهُمْ أهْلُ الفصَاحَةِ والبلاغةِ، وأرْبَابِ الكلام، والقرآنُ مِن جنْسِ كَلامِهِمْ، وكانُوا حُرَّاصاً على إطفاءِ نُورِهِ، وإبْطَالِ أمْرِهِ، ثم مَعَ هذا الحرْصِ الشديدِ لم تُوجدِ المُعَارَضَةُ من أَحَدِهِمْ، وَرَضُوا بِسَبْيِ الذَّرَارِي، وأخْذِ الأمْوَالِ والْقَتْلِ، ولمَّا وَقَعَ بِهِمْ هَذا كُلُّهُ، وَعَجِزُوا عن مُعَارَضتِهِ صَحَّ صِدْقُ رَسُول اللَّه ﷺ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك وَجَبَ تَرْكُ العِنَادِ.

في كتاب الوفا بأحْوالِ المصطفى ﷺ[1] لابن الجوزي: عن ابن عباس: أنّ الْوَلِيدَ بنَ المغيرة اجْتَمَعَ هو ونفرٌ من قُريشٍ، وكانَ ذَا سِنٍّ فيهم، وقَدْ حَضَرَ المَوْسِمَ فقال: إنَّ وُفودَ العرب سَتَقْدم عليْكم، وقد سَمعُوا بِصَاحِبِكُمْ هٰذا، فأَجْمِعُوا

(١) جـ١ ص ٢٦٦ طبع دار الكتب الحديثة بمصر.

فيه رأياً ولا تَخْتَلِفُوا فيكذّبُ بعْضكُم بَعْضاً. قالُوا: أنْتَ فَقُلْ، وأَقِمْ لَنَا رَأْياً نَقُولُ بِهِ. قال: بل أنْتُمْ فَقُولُوا أسْمَعُ. فقالُوا: نقولُ كَاهِنٌ، فقال: مَا هُوَ بِكَاهِنٍ. لَقَدْ رَأَيْتُ الكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الكَاهِنِ وَسِحْرِهِ، فقالُوا: نقولُ مَجْنُونٌ، فقَال: ما هو بمجْنُونٍ وَلَقَد رأيْنَا الجنُونَ وعَرَفْنَاهُ فمَا هو بِخَنْقِهِ، ولا تَخالُجِه ولا وَسْوَسَتِهِ. فقَالُوا: نقـولُ شاعرٌ. قال: مَاهُوَ بِشَاعِرٍ، وقدْ عَـرَفنا الشِّعْـرَ بِرَجْـزِهِ ومَزْجِـهِ، وقَريضِـهِ ومَقْبُوضِـهِ وَمَبْسُوطِهِ فما هُوَ بالشِّعْرِ. قالُوا: نَقُولُ سَاحِرٌ. قال: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ قد رَأيْنا السُّحّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِ ولا عَقْدِهِ. قالُوا: فَمَا تقولُ يا أبَا عبْدِ شَمْسٍ؟ قال: واللَّهِ إنَّ لِقَوْلِهِ حَلاَوَةً، وإنَّ عليْه لَطَلاوَةً، وإنَّ أصْلَهُ لَمُغْدِقٌ، وإنَّ فَرْعَهُ لَمُثْمِرٌ، فَمَا أنْتم بِقَائِلينَ مِنْ هذا شيْئاً إلاَّ عُرِفَ أنَّهُ بَـاطِلٌ، وإنَّ أقْرَبَ الْقَوْلِ أنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ، فَقُولُوا هُـوَ سَاحِـرٌ يُفَرِّقُ بيْنَ الْمَـرْءِ وأخيهِ وَزَوْجِـهِ فتَفَرَّقُـوا عنْه بِـذَلِكَ. وكـانَ النَّضْرُ بنُ الحارِثِ بنِ كِلْدَةَ يَقُولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَقَدْ نَزَلَ بِكُم أمرٌ ما ابْتُلِيتُم بِمِثْلِهِ، واللَّهِ مَا هُوِ بِسَاحِرٍ، وَلاَ كَاهِنٍ وَلاَ شَاعِرٍ، ولا مَجْـنُونٍ. ولمّا حَضَرَ عُتْبَةُ بنُ رَبيعَة عنْدَ رَسُول اللَّهِ ﷺ، فقرأ عَلَيْهِ: ﴿حمٓ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى أن بلغ ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ فـأمْسَكَ عُتْبَةُ بنُ رَبيعةَ على فيـه، ونَاشَـدَهُ بـالرَّحِـمِ أنْ يَكُفَّ، وَقَـال لِأَصْحَابِهِ: خِفْتُ أنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَاب.[١]

قال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فلمَّا تَحَيَّرُوا عِنْدَ سَمَاعِ القُرآنِ وأدْهَشَهُم، وسَكَتُوا نُودِيَ عليْهم بالعجزِ عن مماثلته بِقوله تعالى: ﴿فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مثلِهِ﴾ ثم قال: ﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إلـخ... ما تقـدّم. هذا: وقـد رامَ قومٌ من أهْـلِ الـزَّيْـغِ والإلحادِ أُوتُوا طَرَفاً من الْبَلاَغَةِ، وَحَظّاً من الْبَيَانِ أن يَصْنَعُوا شيئاً يُلَبّسُون به، فلمَّا وَجَدُوهُ مكَانَ النَّجْم من يَدِ المُتَنَاوِلِ مَالُوا إلى السُّورِ القِصَارِ كسُورَةِ الكوْثَرِ، والنَّصْرِ وأشْبَاهِهِمَا لإيقاع الشُّبْهَةِ على الجُهَّالِ فيما قَلَّ عَدَدُ حُروفِهِ لأنَّ العجزَ إنَّما يَقَعُ في التأْلِيفِ والاتِّصَالِ. وَمِمَّنْ رَامَ ذَلِـكَ من الْعَرَبِ بـالتَّشبثِ بالسُّـورِ القِصَارِ مُسَيْلَمَـةُ الكذّابُ فإنَّهُ لم يَسْتَحِ، وانْتَدَبَ لمقاوَمَةِ هذا الأمرِ الإلهيّ فافتُضِحَ، وأتى بِمَخْرَقَةٍ يَتَضَاحَكُ مِنْهَا النَّاسُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ حيْثُ قال: يَا ضِفْدَعُ نُقّي كم تَنقّيْنَ. أعْلاكِ

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص ٢٦٧.

فِي الْمَاءِ، وَأَسْفَلَكِ فِي الطِّيْنِ، لَا الماءَ تكدِّرين، ولا الشَّرابَ تَمْنَعينَ. فلمّا سَمِعَ أَبُو بكر الصّديق رضي اللَّهُ عنه هذا. قال: إِنَّهُ لكَلاَمٌ لمْ يَخْرُجْ من إِلّ. قال ابن الأثير: أي من رُبُوبيّةٍ. والإِل بالكَسْرِ هُوَ اللَّهُ تعالى، وقيل الإِل هُوَ الأَصْلُ الجيِّدُ. أي لم يَجِىءْ مِن الأَصْلِ الذي جَاءَ مِنْهُ القرآنُ. ولما سَمِعَ مُسَيْلَمَةُ الكذَّابُ لعنه الله: والنَّازعاتِ غَرْقا. قال: والزارِعَاتِ زَرْعاً، والحاصِدَاتِ حَصْداً، والذَّاريات قَمْحاً، والطَّاحِنَاتِ طَحْناً، والحافراتِ حَفْراً، والثّارِدَاتِ ثرْداً، واللَّاقِمَاتِ لقماً لقد فُضّلتم على أهل الوبر، وما سَبَقَكُم أهلُ الْمَدر. إلى غير ذلك من الهذيان ـ واللازم عليه بعد قوله: واللاقِماتِ لَقْماً ـ أن يقول: والخاريات خرياً لأنه لا مفرّ له من قول ذلك ضمناً ومعنى. ألا لعنة اللَّه على الكافرين. وقال آخر: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بالْحُبْلَىٰ، أَخْرَجَ مِنْ بَطْنِهَا نَسَمَةً تَسْعَىٰ مِنْ بَيْنِ شَراسِيفَ وأَحْشَىٰ. وقال آخرُ: الْفِيْلُ مَا الفيلُ، ومَا أَدْرَاكَ مَا الفيلُ لَهُ ذَنَبٌ وَثِيلٌ، وَمِشْفَرٌ طَويلٌ، وأنَّ ذٰلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا لَقليلٌ. وقد أتى من أتى بَعْدَ العربِ وعَجْزِهِمْ عن مُعارضتِهِ؛ ورَام ذلِك فَلم يُفْلِحْ، ولم يَنْجَحْ. وقد حُكي عن غيْر واحدٍ منْهم أنه اعْتَرَتْهُ رَوعةٌ وَهيْبَةٌ كَفَّ بِهَا عن ذَلك كما حُكي عن يَحيى بن حكيم الغزَّال، وكان بليغَ الأنْدَلُسِ في زَمَانِهِ أنَّه قَد رَامَ شَيْئاً مِنْ هٰذا فنظرَ في سُورةِ الإخْلاصِ لِيَحْذُو عَلَىٰ مِثَالِهَا، وَيَنْسُجَ على مِنْوَالِهَا، فاعْتَرَتْهُ خَشْيَةٌ وَرِقَّةٌ حَمَلَتْهُ على التَّوْبَةِ والإِنَابَةِ. ويُحكى أنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ، وكانَ أفْصَحَ أَهْلِ وَقْتِهِ طَلَبَ ذٰلِكَ وَرَامَهُ، ونظَمَ كَلاماً، وجَعَلَهُ مُفَصَّلاً، وسَمَّاهُ سُوراً، فاجْتَازَ يَوْماً بِصبيّ يَقْرَأُ في مَكتَبٍ قَوْلَه تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ...﴾ [هود: ٤٤] فَرَجَعَ ومَحَا مَا عَمِلَهُ، وقال: أشهد أنَّ هَذا لا يُعَارَضُ أبَداً، ومَا هُوَ من كَلامِ الْبَشَرِ. قال بعضُهم: هذه الآيةُ قَدْ احْتَوَتْ من أنْواعِ الْبَديع على أحَدَ وَعشرينَ نوْعاً، وفيها تِسْعُ عشرة كلمة(١). وقال العلاَّمة أبُو السُّعود في تفسير هٰذِه الآية: ولقد بَلَغَتِ الآيَةُ الكريمةُ منْ مَرَاتِبِ الإعْجَازِ قَاصِيَتَهَا، ومَلَكَتْ مِنْ غُررِ المزايَا نَاصِيَتَها، وقد تصدّى لتفصيلها المهرةُ الْمُتْقِنُونَ، ولعمري أنَّ ذَلِكَ فَوْقَ ما يَصِفُهُ الْواصِفُونَ، فَحَريٌّ بِنا أنْ نُوجزَ

---

(١) الدليل الصادق جـ١ ص ١٧٤

الكلامَ في هذا الباب، ونفوّض الأمْرَ إلى تَأمل أُولِي الألباب، واللّهُ عنده عِلْمُ الكتاب... في كلام مطوّلٍ لَهُ، فمن أحبَّ الوقوف عليه فليرجع إليه.

الْوَجْهُ الثالِثُ: أنَّ شَرْعَ القرآنِ الكريمِ عَامٌّ يَسْتَحيلُ صُدُورُه مِنَ الْبَشَرِ

إنَّ مِثْلَ هذا الشَّرع العظيم الَّذي جاءَ بِهِ القُرآنُ العظيمُ جامعٌ مَانِعٌ، فَهُوَ لَمْ يَتْرُكْ حركَةً من حَرَكَاتِ الإنْسَانِ إلاَّ وَجَعَلَ لهَا ضَوَابِطَ وقَوانينَ؛ وأحكاماً خاصَّةً في جميع المَجَالاتِ الاجتماعيَّةِ، أو الاقتِصاديَّةِ، أو السِّيَاسِيَّةِ، أو في المُعَامَلاتِ، والجُزْئِيَّاتِ، أوِ الْعِبَادَاتِ، وَكُلُّهَا تجدُها في غايَة التَّنْسيق والإتْقَانِ، والْعَدْلِ والانْصَافِ، والحُرِيَّةِ، والاسْتِقَامَةِ والقِسْطِ والمُسَاواةِ ـ وبيان هذا الوجه أنَّه يَحْتَاجُ إلى إفْرَادِهِ بِمؤلّفٍ قد يكونُ أكثر من مُجلَّد، ولعلّ اللّه يوفقني لِعَمَلِهِ، وهذا مَا أرجوه ـ إن مثلَ هذا القانون الإلهيَّ الذي بَلَغَ أقْصىٰ دَرَجَاتِ الإعْجَازِ في نُصُوصِهِ، وَوُضُوحِهِ، وَبَلاغَتِهِ مِمَّا يُحِيلُ العُقَلاءُ صُدُورُه من كَافَّةِ البشر مُجتمعينَ وَمُتَشَاورينَ في إصْدَارِهِ، فضلاً عن صُدوره من بشريٍّ أُمّيٍّ لا يَقرأ ولا يَكْتُب، وَقَدْ جَرَّبُوا منه ذلِكَ على مُدّةِ أرْبَعينَ سَنَةً، ولم يعدُّوه من الكُتّابِ ولا مِنَ القُرَّاء، وهنا يَحْكُمُ الْعَقْلُ، ويُؤيدُه النّقلُ أنَّه دُستورٌ سَمَاويّ لاَ دَخْلَ لِمَخْلُوقٍ في تَرْكيب حَرْفٍ وَاحِدٍ من كَلِمَاتِهِ. اسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنَا بيِّنَاتٍ قال الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بقُرآنٍ غيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحىٰ إلِيَّ إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ * قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَليْكُمْ وَلاَ أدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٦] ومجمل القول في تفسير هاتيْن الآيَتين. وإذا قُرِىءَ القرآن على هَؤلاءِ المشركين آياتِ كِتَابِنا الذي أنزلْناهُ إليْك يا محمَّدُ بيّناتٍ وَاضِحاتٍ تدلُّ على وَحْدَانِيَّتِنَا، وَصِحَّةِ نُبُوَّتِكَ. قال هؤلاءِ المشركُون الذين لا يخافون عذابنا، ولا يَرْجُون ثَوابَنَا لِأنَّهم لا يُؤمنون بالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وكُلُّ مَنْ كانَ مُنكراً للبعْثِ فإنَّهُ لا يَرْجُو ثواباً، ولا يخافُ عقاباً. ولذا قالُوا له: ائت بقرآنٍ غيْرِ

هَذا، أوْ بدِّلْهُ بما يوافق أهْواءَهُم، فأمَرَهُ المولىٰ بأن يَقُول لَهُم: إن الَّذي طَلَبْتُمُوهُ من التَّبديل لَيْسَ إليَّ، وَمَا يَنْبَغِي لي أنْ أغيرَهُ من تِلْقاء نفسي، ولا قُدْرة لي على الإتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فإنِّي لا أسْتَطيعُ أن أتبعَ إلا فيما آمُرُكُمْ بِهِ، أوْ أنْهَاكُمْ عنْهُ لِأنِّي أخْشَىٰ من اللَّهِ إنْ خالفتُ أمْرَهُ، أو غيَّرتُ أَحْكام كِتَابِهِ، أو بَدَّلْته فمعصيتُهُ بذلك أن يُعَذِّبَني بِعَذابٍ عظيمٍ، وآيةُ صِدْقِي أنَّ مَا أتْلُوهُ عليْكُم هو ما أنزله اللَّهُ عليَّ، وأمَرَنِي بِتَبْلِيغكم إيَّاه أني مكثتُ فيكُم مُدَّةَ أربعينَ سَنَةً لم آتيكم بشيْءٍ يُشْبِهُ هذا القرآنَ، وتعلمُون أنِّي أُمِّيٌّ لا أقْرأ ولا أكْتُبْ، فكيْفَ أستطيعُ تبْدِيلَه!! ألا تُدركون هذا المعنى بعقُولكم أنَّ هذا القرآنَ كلامُ اللَّهِ تعالى أوْحَاه إليَّ لا مِنْ قبلِ نَفْسِي * وكلُّ مَنْ كَان له عَقْلٌ سليمٌ، وفَهْمٌ ثَاقِبٌ يَعْلَمُ أنَّ هذا لم يَحْصُل إلا بوحي منَ اللَّهِ تعالى بَعْدَ هَذا الْبُرْهان الواضح الدِّلالة، الذي لا يَلْتَبِسُ على مَنْ لَهُ أدْنى مِسْكَةٍ من عَقْلٍ فضْلاً عن العُقَلاء النُّجَباء. نعم إنّ هذا القرآنَ العظيمَ، والذكر الحكيمَ المشتملُ على نفائِس الْعُلُومِ، وأخبارِ الْماضينَ، وفيه من الأحْكام والآداب، ومكارِمِ الأَخْلاقِ والْفَصَاحَةِ والبلاغَةِ مَا أعْجَزَ البُلَغَاءَ والفُصَحَاءَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ لَهُوَ أعظمُ دليلٍ عَلَىٰ أنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ، وما هُو من كلام البشر. واسْمَعْ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]. في الخازن[١] في تفسير هذه الآية: قال العلماءُ: جميعُ ما خَلَقَ اللَّهُ عزّ وجل لا يَخْرُجُ عن هاتيْن الحالتيْن إمّا أنْ يَدُبَّ على الأَرْضِ، أو يطيرَ في الْهَواءِ.. وإنما خَصَّ ما في الأَرْضِ بالذكر دُون ما في السّماء، وإن كانَ مَا في السَّماءِ مخلوقاً له لأنّ الاحْتِجَاجَ بالمُشاهَدِ أظهرُ وأَوْلَى مِمَّا لا يُشَاهَدُ... ﴿إلاَّ أُمَمٌ أمْثَالكُمْ﴾ قال مجاهد: أي أصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعرف بأسمائها. يُريد أنّ كُلَّ جنْس من الحيوانِ أُمَّةٌ، فالطَّير أُمَّةٌ، والدّوابُّ أُمَّةٌ. والسِّباعُ أُمَّةٌ تُعرف بأسْمائِها مثل بَني آدَمَ يُعرفون بأسْمائهم كما يُقال الأُنْسُ والنَّاسُ، ويدلُّ على أنّ كُلّ جنس من الدّواب أُمَّةٌ ما روي عن عبدالله بن مغفل عن النّبيِّ ﷺ قال: «**لَوْلَا أنّ الكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بقَتْلِهَا؛ فاقتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بهيم**» أخرجه

---

(١) جـ٢ ص ١٤

أبو داود والترمذي والنسائي. . . . وقد اختلف العلماء في هذه المماثلة. فقيل: إنّ الحيوانات تعرفُ اللَّهَ وتُوَحِّدَهُ، وتُسَبِّحَهُ وتُصلِّي له، كما أنكم تَعْرفونَ اللَّهَ وتُوحدُونَه، وتُسَبِّحُونَهُ، وتُصَلُّونَ لَهُ. . . . وهو الحقُّ لأنَّها لو لم تكن مخلوقةً لِتوحيدِه وتَسْبيحِهِ، والصّلاةِ لَهُ لكان خلْقُها عَبَثاً، وحَاشَاهُ جلَّ جلاله من الْخَلْقِ العبث، ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وسيأتي تفصيله في بحث معجزة تسبيح الحصى بيد المصطفى ﷺ. والمراد بالْكِتاب هنا هو القرآنُ الكريم أي مشتمل على جميع الأحْوال ممّا يحتاجُ بَيَانَهُ البشرُ. وفي حديث الترمذي عن عليّ رضي اللَّهُ عنه: «أن رسُول اللَّهِ ﷺ قال: **إنَّها سَتَكُونُ فِتْنَةٌ. قيل: فما المخْرَجُ مِنْها؟ قال: كتابُ اللَّهِ، فيه نَبأ من قبْلَكُمْ، وَخَبرُ مَنْ بَعْدَكُمْ، وحُكمُ ما بَيْنَكُمْ، هو الْفَصْلُ لَيْسَ بالْهَزَلِ، مَنْ تَركَهُ مِن جبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، ومَن ابْتَغَى الهُدَىٰ في غَيْرِهِ أضلّهُ اللَّهُ، وهُو حَبْلُ اللَّهِ المتينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، وهُو الصّراطُ المُسْتَقيمُ، هُو الّذي لا تَزيغُ بِهِ الأهْوَاءُ، ولا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، ولا تلْتَبِسُ بِهِ الألْسُنُ، ولا تَخْلَقُ على الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تَنْتَهِ الجِنُّ إذْ سَمِعَتْهُ: قالُوا: إنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إليْهِ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ**»[1] وهذا الحديثُ من أعْظَمِ وجُوهِ إعجاز القرآنِ الكريم، ومن لَمْ يؤمنْ به أنّه من عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ كفّارٌ أثيم، وشيْطَانُهُ مارِدٌ كَبيرٌ ـ أعاذني اللَّهُ وإيَّاكم من هذا الضلال المبين ـ وها نحنُ نتحدَّى دُولَ العالَم بأسْرها أن يأتوا بعُشْرِ مِعْشَارِهِ، ولكنَّهَا لَمْ تَزَلْ ولا تزالُ في كُلّ يَوْمٍ وليلةٍ تَسنُّ الْقوانينَ، وتُنظّمها وتُعْلِنُهَا على الملأِ أنَّ سعادَةَ النّاسِ في وَضْعِهَا، وَسُرْعَانَ ما يَظْهَرُ فسادَهَا، فتُعلنُ إلغاءَها، ثُمَّ تُحَاوِل وَضْعَ غيْرِهَا، ثم تُلْغيها، والسِّرُّ في هذا لأنَّها مَوْضوعَةٌ من قِبَلِ أُناسٍ قَدِ اسْتَحْكَمَتْ فيهم الأهواءُ، فلا يَسنُّونَ إلا مَا يُحَقِّقُ رغباتِهم، لإرْوَاءِ نَهَمِهم وأطْمَاعِهِمْ. إذاً فَيَنْبَغِي على المشرّع أنْ يَكُون مُتحرّراً مِنَ الأهْواءِ النَّفْسيَّةِ، والشَّهَواتِ الْجِسْمِيَّةِ، والنظر إلى المصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لا الخاصَّةِ، ولا يَمْلِكُ هَذَا إلا مَنْ بيدِهِ الأمرُ والنَّهيُ. المُنَزَّهُ عَن

---

(١) وانظر السيرة النبوية للدُّحلان جـ٣ ص ١١١.

الأهْواءِ والأطْمَاع والشَّهَواتِ، ولَيْس ذٰلِكَ إلاَّ اللَّهُ تعالى القائِل في مُحكم كِتابه: ﴿يَا أيُّهَا النَّاسُ أنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بِخلْقٍ جَديدٍ * ومَا ذٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزيزٍ * وَلاَ تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلَىٰ حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالْغَيْبِ وأقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فإنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وإلى اللَّهِ الْمَصِيْرِ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٨] وَمَنْ كَانَ جميعُ الخلْقِ منَ الإنْس مُحْتَاجُونَ إلى إفْضَالِهِ وإحْسَانِهِ في كل شيءٍ، فهو وحْدَهُ العليمُ بمصالحهم، ولا يَسْتَحِقُّ أحدُ سِوَاهُ وضْع قوانينَ لَهُمْ، فهو جلَّ جلاله ربّ الْبَشَرِ، وخالقُهُم، والعليمُ بما يُصْلِحُهُمْ وما يُفْسِدُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وآخِرَتِهِمْ، وهو العليمُ بمن خَلَقَ، وَمَنْ سَيَخْلُق على مَدَىٰ الدُّهُور والأجْيَال، فَوَضَعَ دُسْتُوراً صالحاً لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إلَيْهِ هُدِيَ إلىٰ صراط مُسْتَقِيم» وصَدَقَ تعالى إذ يَقُولُ: ﴿وَأنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ولا ينكرُ هٰذا إلاَّ كُلُّ كفّارٍ عنيد منّاعٍ للخيْر مُعتدٍ مريب.

الوجه الرابع: أخْبَارُهُ عن المُغَيَّباتِ التي ظهرتْ صِحَّتُهَا فِيما بَعْدُ في واقع حَياةِ الْبَشَرِ

إنّ القرآنَ الكريمَ قد أَخْبَرَ عِنْدَ صُدُورِهِ، ونُزُولِهِ على نبيّنا محمّد ﷺ بأشياء سَتَقَعُ، وتحدُثُ في الزَّمن المُقبِل، وأشياءَ خفيَّةٍ ستظهَرُ فيما بَعْدُ، وهي كثيرةٌ جدًّا لا نستطيع حَصْرَهَا. منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون * فَفِرُّوا إلى اللَّهِ إنّي لكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥٠] فالزَّوْجِيَّةُ قد ثبتَ وُجُودها في جميع المخلوقات حتى الْعَوَالِمِ والْعَنَاصِرِ، والْكَهْرَباءِ والْجَمَادِ والنَّبَاتِ والْماءِ والْهواءِ، وهذا أمرٌ كان يَعْجزُ البشرُ عن مَعْرِفَتِهِ في ذٰلِكَ الْوَقْتِ. بَلْ مَا قَبْلَ قَرْنٍ من الزّمَنِ لم يكُنْ أحدُ يَعْلَمُهَا، ويدلُّك عليه قولُ المفسّرين في هذه الزَّوْجِيَّة عِنْدَ تفسير الآية: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي صِنْفَيْنِ ونَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كالسَّماءِ والأرْضِ، والشّمْسِ والقمر، واللَّيْلِ والنَّهَارِ، والْبَرِّ والْبَحْرِ،

والسَّهْـلِ والْجَبَلِ، والصَّيْفِ والشِّتَـاءِ، والجنِّ والإنْسِ، والذَّكَـرِ والأُنْثَى، والنـورِ والـظُّلْمَـةِ، والإيمـانِ والكُفْـرِ، والسَّعَــادَةِ والشَّقَـاوَةِ، والحقِّ والْبَـاطِـلِ، والْحُلْوِ والْحَامِضِ. هذا مَا كانُوا يَعْلَمُونَـه في عُصُورهـم. أمَّـا في عَصْرِنـا هٰذَا فقـدْ بَانَتْ الزَّوْجِيَّةُ حتَّى في الذَّرَّةِ الكَهْرَبَائِيَّة في سَالِبِهَا وَمُوجِبِهَا، وفي ازْدِوَاجِيَّةِ النَّبَاتَاتِ في ذُكُورِها وإناثِهَا، وفي الزَّهرة وعَجائِبُهَا كما ثَبَتَ أخيراً عند عُلَماءِ النَّبَاتَاتِ، والّـذِي دَلَّ عليـه قولـه تعالى: ﴿وَمِنْ كُـلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[الرعـد. ٣] وقولـه: ﴿أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] وقولـه: ﴿فَأَخْـرَجْنَا بِـهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَـاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣] وقد قام إجماع علماء هذا العصر على صِحّةِ القول في الزَّوْجِيَّـةِ في كل شيء من سَلْبٍ وإيجابٍ في جَميع الْمَخْلُوقَاتِ بدون أدنى ارْتِيَاب، وَيدُلُّكَ على هذا أقْرَبُ الأشْياءِ إليك، وهي نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ أنَّ لَكَ عيْنَيْنِ وفتحتيْ منخـريـك، وشفتين، وثقْبيْن في أسفَلَيْـك، وخصُـوتَيْن في حقـويْـك، وأُذنيْن في رأسك، ويدين ورجليْن يُمنى ويُسرى، وظهْرك وبَطْنكَ، وكلوتيْك وَرِئَتيْك، وأضلاع جنبيْك، وأمَامَك وخلفك، وفوقك وتحتك، إلخ... ما تستنتجه من ازدواجيـة في نفسك، وما حولك. وبها عَرَفْنَا كَيْفَ أَخْبَرَ القرآنُ عن الزَّوْجِيَّة، وتحدَّث عنها منذ أربعة عشر قرناً، وجزم بوجودها في كافَّةِ المخلوقات عند جَهْـلِ الْبَشَرِ لهـا. ومن أحبَّ الوقوف على أوْضَحِ من هذا فليرجع إلى مؤلفي /سبعون برهاناً علميـاً على وجود الذات الإلهية/ سيجد فيه ما يُثْلِجُ صدْرَهُ، ويريحُ باله، ويزيده إيماناً ـ إن شاء اللّه. (ومنها) تَمَدُّد السَّمٰواتِ واتّساعها فقد شبهها العلم الحديث ببالون كلما نُفخ فيـه اتّسعَ. ودليـل ذلك قـوله تعـالى: ﴿والسَّمٰاءَ بَنَيْنَـاهَا بـأَيْـدٍ وإنَّـا لمُـوسعُـون﴾ [الذاريات: ٢٨] وإني أُحيلك في هـذه المعجزة إلى مؤلفي المـذكور آنفاً، (ومنها) إعجاز ظُهُورِ عِلْمِ الْبَنَانِ الذي أخبر عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قادرينَ على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤] أخبر القـرآن العظيمُ عن اخْتلاف بَصَمات الأصَابع منذ نزوله، ولم يعلمُوا معنى ذلك بـالمفهوم العلميّ المُعاصر لأنَّهُمْ لَمْ يَمْلُكُوا الآلاتِ الحديثة، ولا المكبرات المجهرية، فقدْ أثبت الْعِلْمُ الحـديث أنّ تلك الخطُوطَ التي تُـوجد في أَنَـامل الإنسـان متباينـة من شخْصٍ لشخص أشدُّ التّباين، ولا تُشبه بَصْمَةُ شخصٍ مَا بَصْمَةَ أيّ شخص آخر لا

في حَيَاتِهِ، ولا فيما بَعْد مَمَاتِهِ. فما رأيك بهذا الحدث العظيم، والسرّ الإلهي المعجز إلى يوم الدِّين!!؟ يجبُ عليك بالوقوف عليْه أن يَزداد إيمانك، وتتقرّبَ مِنْ ربّك، وإلا فجَاهدْ نفْسَكَ وشيطَانَكَ. إرجع إلى البُرهان الخامس والسِّتين من مؤلفي المذكور ستقرأ بَحْثاً في اختلاف بَصَمَاتِ الأصَابعِ شَائقاً ومُمْتِعاً، ومغذّياً للرُّوح والعقل معاً، منه. وفي عام ١٨٧٧م ابتدع الدكتُور هنري فولدز طريقة وَضع البصمة على الْوَرَقِ باسْتِخْدَامِ حِبْرِ المطابع... وفي عام ١٨٩٢م أثبت السير فرنسيس جالتُون: أنّ صُورة الْبَصْمَةِ لأيِّ أُصْبَعٍ تعيشُ مع صاحبها طوال حياتِهِ فلا تتغيَّر. وقد أثْبَتَتِ البصماتُ جَدَارَتَها بالْكَشْفِ عن الْمُجْرِمينَ، وأصْبَحَ لَدى النَّاسِ قناعةٌ تامّةٌ بذلك[1] (ومنها) عَلِمْنَا تفرطُحَ كُرَةِ الأَرْضِ من جهة قُطْبَيْهَا من قوله: ﴿أَنَّا نأتِ الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]. ومنها عَلِمْنَا أنَّ الأَرْضَ ذاتُ طُول وعرض من قوله: ﴿والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [ق: ٧] (ومنها) عَلِمْنَا بأنَّ الأَرْضَ واقفةٌ في الْفَضَاءِ من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَات والأَرْضَ أنْ تَزُولا﴾ [فاطر: ٤١] (ومنها) عَلِمْنَا بانقِسَامِ الأَرْضِ إلى سَبْعِ طَبَقَاتٍ من قوله: ﴿سَبْعَ سَمٰواتٍ ومنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. (ومنها) عَلِمْنَا بدورَانِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّة من قوله: ﴿وَتَرى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمرُّ مَرَّ السَّحَاب صُنْعَ اللَّهِ الَّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٨] وليس كما يُظنّ أنَّ الحركة تكون عِنْدَ قيام الساعة لأنَّ الإتْقان يكون في بِداية الصُّنْع للنَّظر فيه، والاتّعاظ به، ولا يكونَ وقتَ تخريبه. (ومنها) عَلِمْنَا بأنَّ الْجِبَالَ مخازنُ الماءِ كما ثَبَتَ عند علَماء طبقاتِ الأَرْضِ، وما هُو واضحٌ للعيان بتدفُّقِ العيُون من أُصُولِهَا. من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ شامِخَاتٍ وأسْقَيْنَاكُمْ ماءً فُراتاً﴾ [المرسلات: ٢٨] (ومنها) بأن الأجرام السَّماوية متحركةٌ كُلُّهَا من قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰواتِ بغيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] (ومنها) عَلِمْنَا بأنَّ الرِّياح تُلقِّحُ الأشجارَ من قوله تعالى: ﴿وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] (ومنها) عَلِمْنَا بنُزُولِ الحديد من السَّماءِ من قوله: ﴿وأَنْزَلْنَا الْحَدِيْدَ فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]

---

(١) انظر الموسوعة العلمية ص ٩٢.

وبَعْضُ المفسرين قالُوا نَزَلَ من السَّمَاءِ الحديدُ والماءُ والنَّارُ، والمُرادُ من النّارِ أصْلُهَا لا عَيْنَها، وهو عُنْصُرُ الأكسجين المُلْتَهِبُ، ونُزُول الحديد من السَّماءِ تحقق في هذا العصر ورأوْه في الثَّلْج. (ومنها) عَلِمْنَا بأنَّ ضَوْءَ القَمَرِ مستفادٌ من نُور الشَّمْسِ من قوله: ﴿وهو الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس: ٥]. (ومنها) عَلِمْنَا بصُنْعِ السَّيَّارات والطَّائِرات وغيرهما من الآليَّاتِ المُسْتخدمة في الركوب من قوله تعالى: ﴿والْخَيْلَ والبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] من أصْنَاف المركوبات، بعد انقراض هذه الحيوانات، وقد تحقَّقَ الأمرُ في هذاالعصر إذ حلَّ محلَّ الخيلِ والبغالِ والحميرِ ما يُستخدمُ في هذا العصر من الآليات، وكذلك سيخلُقُ اللَّه ما لا نَعْلَمُ من غيْرها لأنَّ خَلْقَ اللَّهِ جل جلاله متجدّدٌ على الدَّوَام. (ومنها) عَلِمْنَا بإمْكَانِ سَفَر الإنسان في الجوِّ من قوله تعالى: ﴿ولسليمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بأمْرِهِ إلى الأَرْضِ الّتِي بَارَكْنا فيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شيءٍ عَالِمينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] وقيل: إنَّ أريكتَه كانَتْ تَحْمِلُهُ في جَوِّ الهواءِ، وكان الكثيرُ من الملاحِدَةِ قد أنْكَرُوا ذلك، وكذّبُوا في هذه الآية حتَّى إذا ظهرتِ الطائِراتُ بهتُوا وأُلقمُوا الحجرَ، وخَسِئُوا ذَليلين بِكُفْرِهِمْ، وكانَ سليمانُ عليه السلام يقطعُ مَسَافةَ شهْرين بيوم واحدٍ كمَا قصّ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] ولأنَّ الغُدوَّ من الصَّباحِ إلى الظُّهْرِ، والرَّوَاحُ من الظُّهْرِ إلى الْمَسَاءِ. كَسُرْعَةِ طَائِرَةِ السَّفَرِ في أيَّامِنَا هذه(١). هذا: وجاء في مِشكاة العلوم: وقد اعترف بِفَضْلِ القُرآن وإعجازه رجالٌ من كبار الإفرنج منهم المستر (ديفورنبورت) فقد ذكر في كتابه (اعتذار إلى محمد والإسلام) قائلاً: يجبُ أن نَعْتَرِفَ بأن عُلُومَ الطبيعة والْفَلَكِ والفَلْسَفَةِ، والرِّياضِيَّاتِ التي أنعشتْ أوربا من الْقَرنِ العاشر مُقْتَبَسَةٌ من القرآنِ، بل إنَّ أُوربا مَدينةٌ للإسلام * وقال الكُونت (هنري دي كاستري): وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في القُرآنِ غيْرَ بَهاءِ مَعَانِيْهِ، وَجَمَالِ مَبَانِيْهِ لكَفَى بِذَلِكَ أن يَسْتَوْلِيَ على الأَفْكَارِ، وَيَأخذَ بِمَجَامِعَ القُلُوب * وقيل: إنّ الذي نبَّه خواطر

---

(١) انظر كتاب ماذا في التاريخ للقبيسي المجلد ٢٥ ص ١٥٥ وما بعدها وكتاب مشكاة العلوم للساعاتي ص ٥٢ ـ ٥٤، ومؤلفي: سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية في براهين هذه المعجزات في أبحاث ممتعة وشائقة.

الأوربيّين على الأكْلِ بِصِحَافٍ مُتَفرِّقَةٍ. آية: ﴿وليس عَلَيْكُم جُنَاحٌ أنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أوْ أَشْتَاتاً﴾ [النور: ٦١] والذي نبَّهَ خاطرهم على سَنِّ عَادَةِ طَلَبِ الإذْنِ لأجْلِ الدُّخُولِ على غُرفِ بَعْضِهِم قوله تعالى: ﴿يَا أيُّهَا الَّذين آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ وَالَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ...﴾ [النور: ٥٨].
والإمام علي كرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ ذكر في خُطبهِ المحرّرة في نَهْجِ البلاغة ما يُغني عن مُطَالَعَةِ كُتُبِ الهيئيّين والجيولوجيّين، فقد قال كرَّم اللَّهُ وجهه في الخُطبة التي ذكرها في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرْض: «وَوَتَدَ بالصُّخُورِ مَيدَانَ أَرْضِهِ» مشيراً إلى أنَّ الأَرْضَ كانتْ مائِدةً أي مضطربة لأنَّ الميدانَ بمعنى الاضطراب. ووتدها أي ثبتها وسكَّنَها.
وقال في الخُطبَةَ المعروفة في التَّوحيد: «وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا من غَيْرِ اشتِغَالٍ، وأَرْسَاهَا على غيْرِ قَرَارٍ، وأَقَامَهَا بغيْر قَوائِم، ورَفَعَهَا بغيْر دَعَائِمَ، وحَصَّنَهَا من الأَوَدِ والاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَها عَنِ التَّهافُتِ والانفراج، وأرْسىٰ أَوْتَادَهَا، وضرَبَ أَسْدَادَهَا، واسْتَفَاضَ عُيُونها، وخدَّ أوديَتَها» اهـ وله في الموضوع كلامٌ طويلٌ اكتفيت بما ذكرتُ حتى لا أخرج عن الموضوع الذي نحن بصدد ذكره * * *

ومن إعجاز القرآن الكريم شُمُولُه على عُلومٍ ومَعَارِفَ لم تَعْهَدْهَا العربُ عامَّةً، ولا محمّد ﷺ خاصّةً، ولا يُحيطُ بها أحدٌ من عُلماء الأُمَمِ، ولا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ من كُتُبِهِمْ، فجمع اللَّهُ فيه من بَيانِ عِلْمِ الشَّرائع، والأَحْكَامِ، والتَّنْبِيه على طُرُقِ الحُجَجِ الْعَقْلِيَّاتِ، وإقَامَةِ الدَّلائِلِ على وُجُودِهِ تعالى، وَتَوْحِيدِهِ، وعلى الْحَشْرِ والنَّشْرِ، وَرفع الشُّبَهِ، وإزالة الرِّيب، والردّ على فِرَقِ الأمم ببراهين قويّةٍ، وأدلَّةٍ بيّنةٍ سَهْلَة الألفاظ، مُوجَزَةِ المقاصد، رَامَ الحُذَّاقُ أن ينصبُوا أدلةً مِثْلَهَا فَلَمْ يقْدُرُوا عليْهَا كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾... وهذا هو الردُّ المُفْحِمُ على قَوْلِ القائل كأبيٍّ بن خلف الجمحي الذي خاصَمَ النَّبيَّ ﷺ في إنْكَارِ الْبَعْثِ، وأتاهُ بِعَظْمٍ قَدْ رُمَّ، وبلي، ففتَّهُ بِيَدِهِ. وقال: أتُرَىٰ يُحيي اللَّهُ هَذا بَعْدَ ما رُمَّ؟! فقال النبيُّ ﷺ: «نَعَمْ، وَيَبْعَثُكَ، وَيُدْخِلُكَ النَّارَ» فأنزل اللَّهُ تعالى فيه، وفي أمْثَالِهِ إلى يوم الدِّين: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ

خَلْقٍ عَليمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فإذا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيْمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وإليْهِ تُرجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ إلى آخر السورة] فأيُّ إعْجَازٍ بَعْدَ هذا الإعجاز الّذي يُخَاطِبُ الْعَقْلَ والرُّوحَ وَالوُجْدَانَ بِهَذِهِ الْبراهين الساطعة، والأَدلة القاطعة. أنَّ مَنْ كان أصْلُه نُطْفَةً قذرةً خسيسَةً خَرَجَتْ مِنْ مكانٍ مُهِيْنٍ، ومَاءٍ مُنْتِنٍ كَرِيهِ الرَّائِحَةِ والمنظر، تتقذّذ النُّفوسُ من رُؤيَتِهِ، كَيْفَ أنَّهُ جَلَّ جَلاٰلُهُ بعد أن خلق هذا الإنسانَ منها، وتولَّاهُ جلَّ جَلاٰلُه برعايَته وَعِنَايَتِهِ، وهو جنين في بطن أُمِّـه، ثم أخرجه من ظلمات كثيرة، فشقَّ له بَابَ الرَّحِم، وأخْرَجَـهُ إلى سَعَةِ الدُّنْيَا سَمِيْعاً بَصيراً. . . أليْس في هذا دليلٌ من أقوى الدَّلاٰئِلِ على الْبَعْثِ بَعْدَ الموت؟؟ ومتى كانَ مَوجوداً، ثم وُجِدَ، ومَا هِيَ الغـايةُ منْ وُجُودِهِ؟ إنّها الطَّاعَةُ والْعِبَادَةُ والشْكرُ لِهَـذا الخلاق العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ * إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزاقُ ذُو القُوَّةِ الْمَتينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] والعجيبُ من هذا المُخاصِم مَعَ مَهَانةِ أصْلِهِ كَيْفَ يتصدَّى لمُخاصَمَة الجبّار، وَيَبْرُزُ لمُجَادَلَتِهِ في إنكاره الْبَعْثَ، وكَيْفَ لا يتفكَّرُ في بَدْءِ خَلْقِهِ، فَهَلْ أوْجَدَ ذَاتَهُ بِذَاتِـهِ، أم جَاء إلى هذا الوجود رَغماً عَنْ أنفه؟!. وكذلك سَيمته اللَّهُ رَغم أنْفِـهِ، ويَبْعثُهُ رَغم أنْفِـهِ، ويُدْخِلُهُ النَّارَ رَغْمَ أَنْفِهِ، وهو جلَّ جَلاٰلُهُ أَهْوَنُ عَلَيْه، وَلَهُ المَثَلُ الإعْلَىٰ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ، وَهُوَ بِكُلِ خلق عليم لا تخفى عليْه أجْزاؤه وإن تفرَّقَتْ في الْبَرِّ والْبَحْرِ، أو أصْبَحَتْ حجارةً أوْ حديداً فَيَجْمَعَهُ جلّ جلاٰله ويُعيدُهُ لأنّه جلّ جَلاٰلُهُ أحْدَثَ جميعَ الْكَائِناتِ بِأَمْرِ «كُنْ» وهو كنايةٌ عن سُرعة الإيجاد من غيْر تركيب كافٍ ونُون، فكما أنَّا لا يَثْقُلُ عَلَيْنا لفظُ كُنْ فكَذا لا يثقلُ على اللَّهِ ابتداءَ الْخَلقِ، وَإعَادَتِهِمْ. وَهُوَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. جلّ جَلاٰلَهُ ما أعْظَمَهُ، وَمَا أكْرَمَهُ، ومَا أحْلَمَهُ، ومَا أرْحَمَهُ بِخَلْقِهِ، ومَا أَلْطَفَهُ!!!

مُعْجِزَةٌ للقرآن الكريم يكشف عنها العلم الحديث

قال العلامة صاحب مجلة الفتح الغراء: في سورة التوبة نقرأ هذه الأية الكريمة:

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفكُون﴾؟ [التوبة: ٣٠] فصدر هذه الآية، وهو جملة ﴿وقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ﴾ يتضمَّنُ من وقائع التَّاريخ، وحقائق العلم أمْراً لم يكن أَحَدٌ يعرفه على وَجْهِ الأَرْض في عَصْرِ نُزُول القرآن. ذلك أنّ اسْم عُزَيْر لم يكن مَعْروفاً عند بني اسرائيل إلا بَعْدَ دُخولهم مِصْرَ، واخْتِلاطِهم بأَهْلِهَا، واتِّصالِهِمْ بَعقَائِدِهَا، وَوَثنِيَّتِها. واسْمُ عزير هو (أوزيرس) كمَا ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كمَا ينطق به قُدَمَاءُ المصريّين، وقدماء المصريين منذُ تركوا عقيدةَ التَّوحيد، وانْتَحَلُوا عِبَادَةَ الشَّمْسِ، كانوا يَعْتَقِدُونَ في عُوزر، أو أوزيرس أنَّهُ ابن اللَّه، وكذلك بَنُو إسرائيل في دَوْرٍ من أدْوَار حُلُولهم في مِصْرَ القديمَةِ، استحسنوا هذه الْعَقِيدَةَ: عقيدة أنَّ أوزيرس ابنُ اللَّه، وصارَ اسمَ أوزيرس، أو عُوزر (عُزير) من الأسْماء المقدَّسة التي طَرَأَتْ عَلَيْهم من دِيَانَةِ قُدماء المصريين، وصاروا يُسمّون أوْلادَهُمْ بهذا الاسْم الّذي قَدَّسُوهُ كُفْراً وَضِلالاً، فعابَ اللَّهُ عليْهم ذلِكَ في القُرآن الحكيم. وَدَلَّهُمْ عَلى هذه الْوَقَائِعِ من تَارِيخِهم الذي نَسِيَهُ البشرُ جميعاً. إنَّ اليهودَ لا يستطيعُون أن يدَّعُوا في وقْتٍ من الأوْقَاتِ أن اسْمَ عزيرٌ كانَ مَعْرُوفاً عِنْدَهُمْ قبْلَ اختلاطِهم بقدماء المصريين، وهذا الاسْمُ في لغتهم في مادَةِ (عوزر) وهل تَدلُّ على الأُلوهيّة؟ ومعناه الإله المُعين، وكانَتْ بالمعنى نَفْسِهِ عِنْدَ قُدَمَاءِ المصريِّين في اسْم عُوزر، أو أوزيرس الذي كان عندهم في الدَّهْرِ الأوَّلِ بمعنى الإلهُ الواحدُ، ثم صَاروا يعتقدُون أنَّه ابنُ اللَّه عَقِبَ عِبَادَتِهِم للشَّمْسِ، واليهود أخَذُوا منْهُم هذا الاسْمَ في الطَّوْر الثاني عنْدَمَا كانُوا يعتقدُون أن أوزيرس ابنُ اللَّه * فهذا سرٌّ من أسْرارِ القرآن، لم يُكْتَشَفْ إلا بَعْدَ ظُهُورِ حقيقةِ ما كان عليه قُدَمَاءُ المصريِّين في العَصْرِ الحديث، وما كانَ شيءٌ من ذلك معروفاً في الدُّنيا عند نُزول القرآن! حتى إنّ أعداءَ الإسلام كانُوا يَصُوغون من جَهْلِهِمْ بهذه الحقيقةِ التَّاريخيّةِ شُبْهَةً يُلطخون بها وجه الإسْلامِ، ويَطْعَنُونَ بِهَا في القُرآنِ، فقال اليهود منهم: إنّ القُرآن يقول لنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عَقَائِدِنَا، وأتَى دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ منهم بما شاءَ لهم أدبهم مِنَ السَّبِّ والطَّعْنِ والزراية بالقرآنِ ودينِ

الإسْلَامِ، وَبَنِي الإسْلام! بتصرُّف طفيفٍ[1] قلتُ: وصفهم اللّه في الآية قبلها بقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقّ﴾ أي ولا يعتقدُون صِحَّةَ الإسلام الذي هو دين الحقّ، فَكَشَفَ اللَّهُ زَيْغَهُمْ وبيّنَ بَاطِلَهُمْ في هذه الآية بأنَّهُم أثْبَتُوا للّه وَلَداً، ومن جوَّزَ ذَلِكَ على اللَّهِ فقد أَشْرَكَ بِهِ لأنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ من يَعْبُدُ صَنَماً، وبَيْنَ من يَعْبُدُ المسيحَ، فقد بَانَ بهذا أَنَّهُمْ لا يُؤمنون باللَّهِ، ولا يدينون دينَ الحقّ. روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: «**أتَى رسُولَ اللّه ﷺ جَمَاعَةٌ من الْيَهُودِ: سَلَامُ بنُ مشكم والنُّعْمَانُ بن أوفى وشاسُ بنُ قَيْس ومالكُ بن الصَّيْف، فقالُوا: كَيْفَ نَتَّبِعُكَ، وقدْ تَرَكْتَ قِبْلَتَنَا، وأنْتَ لا تَزْعُمُ أنّ عُزيراً ابنُ اللَّهِ، فأنْزَلَ اللَّهُ هذه الآية**». وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يَعْنِي أنَّهُم يَقُولون ذٰلِكَ القوْل بأنّ عُزيراً ابنُ اللَّهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ غيرِ عِلْمٍ يَرْجِعُون إليْه. فَنَبَّهَهُمُ القرآنُ إلى حقيقةِ ذلك أنَّهُ لم يكُنِ ابنُ اللَّهِ كما يَدَّعُون، ولا عبرة بإنكار الْيَهُودِ ذَلِكَ فإنَّ خَبَرَ اللَّهِ عز و جل أصْدَقُ وأثْبَتُ من إنكَارِهِمْ، وقوْل النَّصَارٰى في عيسى أنه ابن اللّه لأنَّـهُ وَرَدَ ذكره في الإنجيل بالإبن على سَبيل التَّشريفِ، كما وردَ لفظ الخليل في حقِّ ابْراهيم على سبيل التشريفِ، فبالَغُوا وفسَّروا لفظَ الابْنِ بالْبُنُوَّةِ الحقيقية، والْجُهَّالُ قَبِلُوا ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَفَشَا هذا المذهبُ الْفَاسِدُ في أتْبَاعِ عِيسىٰ عليْه السَّلام * * *

إعجاز أخْبَارِ القُرآنِ عن المُغَيَّباتِ

ومن وجوه إعجاز القُرآنِ ما انْطَوى عليْه من الأخْبَارِ بالمغيَّبَات، وأنها ستقع في المستقبل، وهي كثيرةٌ جدّاً عَدا ما تقدّم منها.

١ ـ ما وعَدَ اللَّهُ به من النَّصْر يَوْمَ بدْرٍ مَعَ قِلَّةِ المُسْلِمينَ، وَكَثْرَةِ الكافِرِينَ. تسمعُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]قَدِمَ أبو سُفيان بعيرٍ تَحْمِلُ تِجَارَةً من الشَّامِ لِقُرَيْشٍ، فخرَجَ النَّبيُّ ﷺ ليغنمها، فعلمت قريشٌ، فخرج أبو جَهْلٍ ومُقَاتِلُو مكة، وكانوا ألفاً إلا

(١)مناهل العرفان في علوم القرآن جـ٢ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠. تأليف محمد عبد العظيم الزرقاني طبع دار إحياء الكتب العربية مصر.

خمسين، وَهُمُ النَّفيرُ، وأخذَ أبو سفيانَ بالعير طريقَ السَّاحِلِ فَنَجَتْ، فقيل لأبي جهل: ارْجِعْ فأبى وَسَارَ إلى بَدْرٍ فشَاوَرَ ﷺ أصْحَابَهُ، وقال: إنَّ اللَّهَ وَعَدَني إحْدى الطَّائِفَتَيْنِ فَوَافَقُوه على قِتالِ النَّفير، وكَرِهَ بَعْضُهُمْ ذلِكَ، وَقَالُوا لَمْ نسْتَعِدّ له كما قال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ في الْحَقِّ﴾ القتال ﴿بَعْدَمَا تبيَّنَ﴾ ظهر لهم ﴿كَأنَّهُمْ يُسَاقُونَ إلى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليه عِيَاناً في كراهَتِهِمْ لَهُ. وخَوْفِهِمْ من كَثْرَةِ عَدُوِّهم، ولم يَكُونوا قَدْ أَخَذُوا أهُبَتَهُمْ للقتال من سِلاحٍ ومَرْكُوبٍ وَعَتَادٍ، وفي البيضاوي: وكانَ رَسُول اللَّه ﷺ إذْ ذاكَ بِوَادِي دَقْران فنزل عليْه جبريلُ بالْوَعْدِ بإحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ، إمَّا العيرُ وإمَّا قُرَيْشٌ، فاستشارَ فيه أصْحَابَهُ، فقال بعضهم: هلاَّ ذكرتَ لنا الْقِتالَ حتَّى نَتَأَهَّبَ لَهُ، إنَّما خرجْنَا لِلعيرِ، فردَّ عليْهم وقال: إنّ الْعِيرَ مَضَتْ عَلَىٰ سَاحِلِ البحرِ، وهذا أبو جَهْلٍ قدْ أقْبَلَ، فقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه! عَلَيْكَ بالْعِيرِ، وَدَعِ الْعَدوَّ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقامَ أبو بكر وعُمَرَ رضي اللَّه عنهما فأَحْسَنَا في الْقَوْلِ، ثمَّ قامَ سعدُ بنُ عُبَادَةَ، فقال: انظُرْ أمْرَكَ فامضِ فيهِ. فَواللَّهِ لو سِرْتَ إلى عَدَنَ ما تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ، ثم قال مِقْدَادُ بنُ عمروٍ: امضِ كَما أمَرَكَ اللَّهُ فإنَّا مَعَكَ حَيْثُمَا أحْبَبْتَ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قالت بَنُو إسْرائيلُ لموسى: اذهبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا ها هُنا قَاعِدُونَ، ولكن اذهبْ أنْت وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثم قال: أشيرُوا عليَّ أيُّها النَّاسُ، وهُوَ يُرِيدُ الأنْصَارَ، وقَدْ شَرَطُوا حين بَايَعُوهُ بالْعَقَبَةِ أنَّهم بُرَاءُ مِنْ ذِمَامِهِ حتَّى يَصِلَ إلى دِيَارِهِمْ، فتخوَّفَ أنْ لا يَرَوْا نُصْرَتَهُ إلاَّ عَلَىٰ عدوٍّ دَهَمَهُ. أي هَجَمَ عليْهِ بالمدينَةِ، فقَامَ سعْدُ بنُ مُعاذٍ فقال: لَكَأنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: أجَلْ. قال: إنَّا قَدْ آمَنَّا بِكَ، وصدَّقْنَاكَ وشَهِدْنَا أنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وأَعْطَيْنَاكَ عَلَىٰ ذٰلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثيقَنَا عَلَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، فَامْضِ يا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَوَالَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتعْرَضْتَ بنَا هٰذا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخلَّفَ مِنَّا أَحَدٌ، ومَا نكْرَهُ أنْ تَلْقَىٰ بِنَا عَدُوَّنَا، وَإنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ. ولعلّ اللَّهَ يُريكَ مِنَّا مَاتَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ، فَنَشّطَهُ قَوْلُه، ثُمَّ قالَ: سِيرُوا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ، وأَبْشِرُوا، فَإنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَني إحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ، واللَّهِ لكأنِّي انظرُ إلى مَصَارِعَ الْقَوْمِ. ا هـ. وَقَدْ وَقَعَتِ المعركةُ الغيرُ مُتكافِئَةُ، فقد كانَ عَدَدُ المسلمين لا يتجاوَزُ الثلاثمائة، وكانُوا رَجَّالَةً،

ومَا كَانَ فيهم إلاّ فَرَسَانِ، فَتَمَّ النَّصْرُ بإذنِ اللَّهِ بَعْدَ أنْ أمدَّ اللَّهُ المسلمينَ بالملائِكَةِ اسْتِجَابةً لاسْتِغَاثَةِ المُسْلِمينَ باللَّهِ، وَأَحَقَّ اللَّهُ الحقَّ بكلماته، وَقَطَعَ دابرَ الكافرين، فقُتِلَ سَبْعُونَ مِنْ صناديدِ قريْشٍ، منهم أبو جهل قائد الحملة الشركية، تمّ هذا الأمرُ تحقيقاً لما أخْبَر بِهِ المولى نَبِيَّهُ ﷺ سابقاً في قوله جلّ شَأْنَهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر. ٤٤ ـ ٤٥] وقال سعيدُ بن المسيِّب: سمعتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ يَقُولُ لما نزلت: ﴿سيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنتُ لا أدْري أيَّ جَمْعٍ يُهْزَم، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يَثِبُ في دِرْعِهِ وَيَقُولُ: سيُهْزَمُ الجمعُ ويُولُّونَ الدُّبر. فعلمتُ تأويلها. وهل كانَ هذا الحدثُ العظيمُ مُجَرّدُ مُصَادَفَةً عمياء؟ أم أنّه أَخْبَارُ صِدْقٍ من ربّ السّماء؟ نعم إي وربِّي إنَّهُ لَلْحَقُّ، وآيةُ صِدْقِهِ قَتْلَىٰ الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] في الخطيب: ﴿سَأُلْقِي في قُلُوب الذين كفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي الخوف، فلا يكونُ لهم ثباتٌ، وكانَ ذلك نعمةٌ منَ اللَّهِ تعالى علىٰ المُؤمنين حيْثُ أَلْقَىٰ الخوفَ في قُلُوب المشركين. ا هـ. وفي الخازن ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ...﴾ مفعول به. ومعناه الرؤوسَ: كانتِ الملائكةُ لا تَعْرِفُ قتالَ بَني آدَمَ، فعلَّمَهُمُ اللَّهُ ذلك بقوله فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ. ا هـ. وقوله ﴿كُلَّ بَنانٍ﴾ أي أَطْرَافَ اليديْن والرِّجْلَيْن، فكانَ الرَّجُلُ يقصدُ ضرْبَ رَقَبَةِ الكافِرِ فتَسْقُطُ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إليه سيْفُهُ. وعبارة الخازن: قال سماك: فحدثني ابنُ عباس قال: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشركينَ أَمَامَهُ إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فوْقَهُ، وصَوْتَ الْفَارِسِ يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ إذ نظرَ إلى المُشْرِكِ أَمَامَهُ خرَّ مُسْتَلْقِياً، فنظر إليه، فإذا قد حُطِّمَ أنْفُه، وشُقَّ وجْهُهُ كضَرْبَةِ السَّيْفِ، فأحْصَىٰ ذلك أجمع، وجاءَ فحدَّث بذلك رسولَ اللَّه ﷺ قال: صَدَقْتَ ذٰلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّماءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يومئذٍ سبعينَ، وأَسَرُوا سَبْعينَ»**. ا هـ.[1] وفيه: روي أنَّه نزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ في خَمْسِمائَةٍ، وميكائيلُ عليه السَّلامُ في خَمْسِمائِةٍ في

---

(١) جـ٢ ص١٦٨.

صُورَةِ رِجَالٍ على خَيْلٍ بُلْقٍ، عليْهم ثيابٌ بيضٌ، وعمائمُ بيضٌ، قد أَرْخُوها بيْنَ أكْتَافِهِمْ. وروي أنّ النبي ﷺ لمَّا نَاشَدَ رَبَّهُ. وقال أبو بكر: إنّ اللَّه سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، خَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَفْقَةً وَهُو في الْعَرِيشِ، ثم انْتَبَهَ فقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ!! هٰذا جبريلُ آخِذٌ بِرَأسِ فَرَسِهِ، عليْهِ أداةُ الْحَرْبِ» يعني آلةَ الْحَرْبِ. ورُوي عن أبي أسيد: مَالكِ بنِ رَبيعَةَ، وكان قَدْ شَهِدَ بَدْراً أَنَّهُ قال بَعْدَمَا ذهبَ بَصَرُهُ: لو كُنْتُ مَعَكُمُ الْيَوْمَ بِبَدْرٍ، وَمَعي بَصَرِي لَأَرَيْتُكُمُ الشِّعْبَ الذي خرجتْ منْهُ الملائكة * وأخبار مُقَاتَلَةِ الملائكة ببدر كثيرةٌ جدّاً، أكتفي بما ذكرتُ * * *

٢ ـ ومنها ما وَعَدَ اللَّهُ به نبيَّهُ والمُسْلِمينَ من دُخول الْمَسْجِدِ الحرام، وَفَتْحِ مَكَّةَ. تَسْمَعُ هذا في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمنين...﴾ [الفتح: ٢٧]. في السيرة[1] النبوية للدَّحلان أخبرَ ﷺ أصْحَابَهُ بِدُخولِهِ مَعَهُمْ الْمَسْجِدَ الحرامَ، وَهُوَ بالْمَدينَةِ، قَبْلَ عَام الْحُدَيْبِيَةِ، فَظَنُّوا أنَّهُ ذٰلِكَ العامُ، فلمَّا صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عن الدُّخولِ شَقَّ عليْهم ذٰلِكَ، فأنزلَ اللَّهُ سُورَةَ الْفَتْحِ عِنْدَ مُنْصَرفهم من الْحُدَيْبِيَةِ، وفيها هٰذه الآيةُ، فأخْبَرَهُمْ أنَّهُ سَيَقَعُ ذلك، فكان كما أَخْبَرَ، فلما وَقَعَ ذلك قال لهم ﷺ: «**ذٰلِكَ الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ**» انتهى كلام الدّحْلان.

قلتُ: وهذا الخبرُ لا يَشُكُّ فيه مَنْ كَانَ لَهُ أدْنَى مِسْكَةٍ من عَقْلٍ، فكَيْفَ بمن يَدَّعُون الفلسفةَ والمعرفة، ويُجادِلُونَ بالْبَاطِلِ، فكانَ من الْواجِبِ عليْهِم أَوَّلَ مَنْ يُذعِنَ لِهٰذِهِ الأخْبَارِ الإلهيَّة المُعْجِزَةِ الدَّالةِ على أخْبَارِ مَا سَيَقَعُ في المُسْتَقْبَل، وَلاَ حَوْلَ ولا قُوَّةَ لِلْبَشَرِ على الاطِّلاع على أُمُورٍ مُغَيَّبَةٍ، حتَّى ولو كان مَداها لِثَوانٍ من الدَّقيقةِ لأنّه مِن اخْتِصَاصِ الْخَالِقِ جَلَّ شأنُه قال تعالى لنبيّه ﷺ، وإلى كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ هذا الخطابَ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمٰواتِ والأرْضِ الْغَيْبَ إلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] ومَنْ كانَ جَاهِلاً بِمَصِيرِهِ، وأعْمَى عمّا يُصِيبُهُ بِهِ مِنْ الْهَلاكِ فما عليه ـ إن كانَ عَاقِلاً ـ إلَّا أنْ يَهْتَدِي بِهِدَايَةِ الْقُرْآنِ، ويُسَلِّم أمْرَهُ إلى مَنْ بِيَدِهِ مصيرُ جميع الأكْوَانِ، فمن أذْعَنَ لِأمْرِهِ، وَانقادَ لِطَاعَةِ رَبِّهِ، وآمنَ بِرُسُلِهِ وأنْبِيَائِهِ كَان من النّاجينَ، وَحُشِرَ تَحْتَ لِوَاءِ سيِّدَ المُرْسَلينَ، وَدَخلَ الجنّةَ مَعَ زُمْرَةِ

---

(١) جـ٣ ص ١٠٢.

المؤمنين، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلا مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ * * *

٣ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بضع سِنينَ...﴾ [الروم:١] الرُّوم: اسْمُ قبيلةٍ، وسُمّيتْ باسم جدِّها، وَهُوَ رُومُ بنُ عِيصُو بنِ إسْحَاق بْنِ إبراهيمَ. من تفسير ابن جزي: وسُمّي عِيصُو لأنَّه كان مَعَ يعقوبَ في بَطْنٍ، فَعِنْدَ خُروجهما تَزَاحَمَا، وأراد كُلٌّ أنْ يَخْرُجَ قَبْلَ صَاحِبِهِ فقال عِيصُو لِيَعْقُوبَ: إنْ لم أَخْرُجْ قَبْلَكَ وإلاَّ خَرَجْتُ من جَنْبِهَا، فَتَأَخَّرَ يعقوبُ شَفَقَةً مِنْهُ. فلذا كان أبَا الأَنْبِيَاءِ، وَعِيصُو أبَا الجبَّارِينَ * وظَاهِرُهُ الضَّعْفُ لا مَحَالَة، وإنَّمَا ذكرتُه لِلْمُنَاسَبَةِ، وللتَّنْبِيهِ عليْه. وَسَبَبُ نُزول هٰذِهِ الآيةُ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُون أنَّهُ كانَ بَيْنَ فَارِسَ والرُّومِ قِتَالٌ. وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَوَدُّونَ أَنْ تَغْلِبَ فارسُ الرُّومَ، لأنَّ فَارِسَ كَانُوا مَجُوساً أُمِّيينَ، والمُسْلِمُونَ يَوَدُّونَ غَلَبَةِ الرُّوم عَلَىٰ فارِسَ لِكَوْنِهِمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَبَعَثَ كِسْرَىٰ جَيْشاً إلى الرّوم، واسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُقَالُ لَهُ: (شهريزان)، وَبَعَثَ قَيْصَرَ جَيْشاً، وأمّر عليهم رجلاً يُدعى (بخنس)، فالْتَقَيَا بأذْرِعَاتٍ وبُصْرَىٰ، وهي أَدْنَىٰ الشَّامَ إلى أَرْضِ الْعَرَبِ والْعَجَمِ، فَغَلَبَتْ فَارِسُ الرّومَ، فبلغَ ذٰلِكَ الْمُسْلِمينَ بِمَكّةَ فَشَقَّ عليهم، وَفَرِحَ بِهِ كُفَّارُ مكَّةَ، وقَالُوا لِلْمُسْلِمينَ: إنكُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، والنَّصَارَىٰ أهلُ كِتَابٍ، ونَحْنُ أُمِّيُّون، وَفَارِسُ أُمِّيُونَ، وقد ظَهَرَ إخوانُنَا مِنْ أَهْلِ فَارِسَ عَلى إخْوَانِكُمْ من الرُّومِ، وأَنَّكُمْ إنْ قَاتَلْتُمُونَا لَنَظْهَرَنَّ عَلَيْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى هٰذِهِ الآياتِ. فَخَرَجَ أبُو بكر الصّديقُ إلى كُفّارِ مَكَّةَ. فقال: فَرِحْتُمْ بِظُهُورِ إخْوَانِكُمْ فَلاَ تَفْرَحُوا، فَوَاللَّهِ لتظهرنَّ الرُّومُ على فَارِسَ. أخْبَرَنَا بِذلِكَ نَبيُّنَا ﷺ، فقَامَ إلَيْهِ أَبِيُّ بنُ خَلَفٍ الجُمَحِيٍّ، وَقال: كَذَبْتَ، فقَال لَهُ الصِّدِّيقُ: أَنْتَ أَكْذَبُ يا عَدُوَّ اللَّهِ. فقال: اجْعَلْ أَجَلاً أُنَاحِبْكَ عَلَيْهِ، والمُنَاحَبَةُ بالحاء المُهملة الْقِمَارُ والمُرَاهَنَةُ. أي أُرَاهِنُكَ على عَشْرِ قَلاَئِصَ مِنِّي، وَعَشْرِ قَلائِصَ مِنْكَ، فإنْ ظهرتِ الرُّومُ عَلَىٰ فارِسَ غَرِمْتُ لَكَ، وإنْ ظهرتْ فَارِسُ على الرُّومِ غَرِمْتَ لِي، ففَعَلُوا وَجعَلُوا الأجَلَ ثَلاثَ سِنينَ، فَجَاءَ أبُو بَكْرٍ إلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فأخْبَرَهُ بِذَلِكَ، وكَانَ ذٰلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْقِمَارِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: مَا هٰكَذَا ذكرتُ، إنَّمَا البِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلاثَةِ إلى التِّسْعِ، فَزَايَدْهُ في الْخَطَرِ، وَمَادِدْهُ في الأجَلِ، فَخَرَجَ أبُو بكْرٍ فَلَقِيَ أُبَيّاً، فقال: لَعَلَّكَ نَدِمْتَ!؟ فقال: لاَ، فَتَعَالَ أَزِيْدُكَ فِي الْخَطَرِ، وأُمَادِدُكَ في الأَجَلِ

فَاجْعَلْهَا مِائَةَ قَلُوصٍ ، وَمِائَةَ قَلُوصٍ إلى تِسْعِ سِنِينَ، وقيل إلى سَبْعٍ ، فقَال: قَدْ فَعلْتُ، فلمَّا خَشِيَ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ أن يَخْرُجَ أبو بكْرٍ من مكَّة أتَاهُ وَلَزِمَهُ. وقال: إنّي أخَافُ أَنْ تَخْرُجَ منْ مَكَّةَ. فَأَقِمْ لي كَفيلاً، فكَفلَهُ ابْنُهُ عبدُاللَّهِ بنُ أبِي بكْرٍ. فَلمَّا أَرَادَ أُبِيُّ بنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ إلَىٰ أُحُدٍ أتَاهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَلَزِمَهُ، وَقَالَ: واللَّه لا أَدَعُكَ حَتَّىٰ تُعْطِيني كَفيلاً، فأعْطَاهُ كَفيلاً، ثُمَّ خَرَجَ إلى أُحُدٍ، ثُمَّ رَجَعَ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ إلى مَكَّةَ، وَمَاتَ بِهَا مِنْ جِرَاحَتِهِ الّتي جَرَحَهُ إيَّاهَا النَّبيُّ ﷺ حِينَ بَارَزَه، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَىٰ فَارِسَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وذَلِكَ عَلَىٰ رأسِ سَبْعِ سِنِينَ مِنْ مُنَاحَبَتِهِمْ، وقيل كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَرَبَطَتِ الرُّومُ خُيُولَهُمْ بِالْمَدائِنِ، وبَنوا بالْعِرَاقِ مَدينةً، وَسَمُّوهَا رُومِيَّةَ، فقَمَرَ أَبُو بكْرٍ أُبَيًّا، وَأَخَذَ مَال الْخَطَرِ مِنْ وَرَثَتِهِ، وَجَاءَ بِهِ إلى النَّبيِّ ﷺ، وَذَلِكَ قَبْلَ أنْ يُحَرَّمَ الْقِمَارُ، فقال النّبيُّ ﷺ: تصدّق. انتهى خازن[1] ولهُ كَلامٌ مطوّل في الموضوع لا يخلو مِنْ فَائِدَةٍ. فمن أَحَبَّ الْوُقُوفَ عليْهِ فَلْيَرْجِعُ إليْه.

وهكذا أنْجَزَ اللَّهُ الأمْرَ، ونَصَرَ الرُّومَ على فارسَ، وخزى اللَّهُ الكافرينَ، كمَا خزىٰ المَجُوسَ على يَدِ الرُّومَانِ، وتَمَّتْ هٰذِهِ المُعْجِزَةُ القرآنيةُ التي تزيدُ المؤمنينَ إيماناً بِرَبِّهم، لكأنَّهُ جلّ جَلالُه مَاثِلٌ أمَامَ أعْيُنِهم، وَحَاضِرٌ فِي قُلُوبِهِمْ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمْ بالرَّحْمَةِ والرِّضا والغُفْرانِ، تُنَاجِيهِ أرْوَاحُهُمْ، وَتَبُثُّهُ شِدَّةَ الشَّوْقِ إلَيْهِ، تَرجُو نَوَالَهُ بالقُرْبِ مِنْهُ والأُنْسِ بِجَلالِهِ، وهَذَا هُوَ حَالُ الْمُوقِنينَ بِوُجِودِهِ، بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُلومِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ ذَاتِهِ، وأَخَصّهَا فَهْمُ مَعَانِي كَلامِهِ المُنَزَّلِ عَلَى خَاتَمِ أنْبِيَائِهِ، وَصَفْوَةَ رُسُلِهِ الَّذي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، إنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الأخْبَارُ القرآنيةُ المعجزةُ الدَّالَةُ عَلَى صِدْقِ كَلامِ اللَّهِ تعالى، وَصِدْقِ رِسَالَةِ المُنَزَّلِ عليْه لَتَزِيدُنا فَخْراً في دِينِنَا، وتَمَسُّكاً بِهَدْيِ كِتَابِ رَبِّنَا، وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ.

وَهٰذِهِ هِي بَرَاهِينُنَا عَلَىٰ وُجُودِ ربّنَا، وَصِدْقِ قُرآنِنَا، وَنُبُوَّةِ نَبِيِّنَا، نُفْحِمُ بِهَا المُخَالِفِينَ مِمَّنْ يَشُكُّ فِي دِينِنَا، وَيُغَرِّرُ بِضُعَفَاءِ الْعُقُولِ مِنْ أَبْنَاءِ دِينِنَا، لِيَكُونُوا عَوْناً لِنُصْرَةِ شَيَاطِينِهِمْ، وَسَادَاتِهِمْ وَكُبَرائِهِمْ، فَنَحْنُ نَدْعُوهُمْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا أَلَّا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وأنْ نَعْبُدَهُ ونُوَحِّدَهُ لإقَامَةِ الدَّلائِلِ الْعَقْلِيَّةِ والنَّقْلِيَّةِ أنَّهُ لا يَسْتَحِقُّهَا سِوَاهُ. وباللَّهِ التوفيق.

---

(١) جـ٣ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

٤ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] وهل تَحقَّقَ وَعْدُ اللَّهِ، ومَا أَخْبَرَ بِهِ عِبَادَهُ؟ وما دليلُ ذلك فِي وَاقع الأمْرِ؟ فالآيَةُ تُخبر بأنَّهُ سَيَجْعَلُ المُسْلِمينَ خُلَفَاءَ في أرْضِهِ، مَالكينَ لَهَا، مَنْصُورينَ عَلَى أعدائِهِمْ! قلتُ: نَعَمْ الآيَةُ نزلت في أبي بَكْرٍ الصدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عنْهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ من الصَّحَابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذْ هي إخْبَارٌ عَمَّا سَيَقَعُ في المُسْتَقْبَلِ بِشَرْطِ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَقَدْ قَامُوا بِهٰذَيْنِ الشرطَيْن: فَكَانَتِ الْغَلَبَةُ لَهُمْ عَلَى أهْلِ الرِّدَّةِ في خِلافَةِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعَلَىٰ الرُّوم وَفَارِسَ في خِلافَةِ عُمَرَ وَمَنْ بَعْدَهُ، وَهَكَذَا حَتَّىٰ مكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ في الْبِلادِ، وأبدلَهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أمْناً كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَكَّنَ دِينَهُمُ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ ومَغَارِبِهَا، وَمَلَّكَهُمْ إيَّاهَا، وَصَارُوا خُلَفَاءَ فيهـا كمَا قـال عليه الصلاة والسلام: «**زُوِيَتْ لِيَ الْأَرْضُ، فـأُرِيتُ مَشَارِقَهَا ومَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» في القرطبي في تفسير الآية. قوله «في الْأَرْضِ» فيها قولان: أحَدُهُمَا يعني أرْضَ مكّة لأنَّ المُهاجرين سألُوا اللَّهَ ذلك فَوُعِدُوا... الثاني: أنها بلادُ الْعَرَبِ والْعَجَمِ قال ابنُ العربي، وهو الصّحيحُ. اهـ. وفي الخازنِ في تفسير الآية: قيل: مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْوَحْيِ عَشْرَ سِنِينَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وأُمِرُوا بالصَّبْرِ على أذَى الكُفَّارِ. فَكَانُوا يُصبحونَ ويُمْسُون خَائِفِينَ، ثم أُمِرُوا بالْهِجْرَةِ إلى الْمَدِينَةِ، وأُمِرُوا بالْقِتَالِ، وَهُمْ عَلَىٰ خَوْفِهِمْ لا يُفَارِقُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِلاحَهُ، فقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: أَمَا يَأتِي عَلَيْنَا يومٌ نَأمَنُ فيهِ، وَنضَعُ السِّلاحَ، فَأنْزَلَ اللَّهُ هٰذِهِ الآيةَ. ومعنى لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ: واللَّهِ لَيُورِثَنَّهُمْ أرْضَ الكُفَّارِ مِنَ الْعَرَبِ والْعَجَمِ. فَجعَلَهُمْ مُلُوكَهَا وَسَاسَتَهَا وَسُكَّانَهَا. اهـ. أي فَأَنْجزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَأَظْهَرَهُمْ على جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَافْتَتَحُوا بِلادَ الْمَشْرِقِ، والْمَغْرِبِ، وَمَزَّقُوا مُلْكَ الأَكَاسِرَةِ. ومَلَكُوا خَزَائِنَهُمْ، وَاسْتَوْلُوا على الدُّنْيَا. وَهَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ الأَحْدَاثِ، والمُعْجِزَاتِ الَّتي تَقَعُ في الْأَرْضِ بأنْ يَمْلُكَ الْقِلَّةُ مِنَ المُؤْمِنينَ زِمَامَ مُلْكِهَا، ويَسْتَوْلِيَ الْعَرَبُ عَلَى أَعْظَمِ دَوْلَتَيْنِ في الْمَشْرِقِ والمَغْرِبِ: دَوْلَتَيْ الْفُرْسِ والرُّومِ، وَهَلْ يَدُورُ فِي خَلَدِنَا نحنُ العربَ المُسلمين

الآنَ أَنْ نَسْتَوْلِيَ عَلَىٰ دُوَلِ الْعَالَمِ شَرْقاً وَغَرْباً؟ ونكونَ الْمُسَيْطِرِيْنَ على تَسييرِ دَفَّةِ سِيَاسَةِ الشُّعُوبِ؟ وكلمتنا هي العُليا!!! قَدْ يَقُولُ الْبَعْضُ مِنَّا هٰذَا أَمْرٌ مِنَ الْمُحَالاَتِ الْعَقْلِيَّةِ والْمَادِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ، وأنَا أَقُولُ لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ مُحَالٍ على اللَّه تعالى ـ إِذَا حَقَّقْنَا الشَّرْطَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ: عِبَادَتَهُ وتوحيدَه ـ تحقيقاً لِمَا وَعَدَ اللَّهُ بـه المؤمنين من الاسْتِخْلاَفِ والتمكين في الأَرْضِ، يدلك على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابدين﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦] وفي تفسير هـذه الآية كما في الخازن. قال ابنُ عباس: «أرادَ أنّ أَرَاضِي الكُفَّارِ يَفْتَحُهَا الْمُسْلِمُونَ، وهٰـذا حكمٌ من اللَّهِ تَعَالَىٰ بإظْهَار الدِّينِ، وَإعْزازِ الْمُسْلِمِينَ[١] * وَهَذا الْبَلاغُ الْمُوَجَّهُ لِلْقَوْمِ الْعَابِدينَ، هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، أهْلُ الصَّلَوٰاتِ الخمْسِ، وشَهْرِ رَمَضَانَ والحجّ، وأهْلُ كَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ: لَا إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ محمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وقال الرازي: هٰذَا إشَارَةٌ إلى المذكُورِ في هٰذِهِ السُّورَةِ من الإخْبَارِ، والْوَعْدِ والْوَعيدِ، والْمَوَاعِظِ الْبَالِغَةِ لِقَوْمٍ عَابِدِيْنَ * أيْ عَامِلِيْنَ بِهِ. وقال ابن عباس: عَالِمينَ. قال الرازي: والأَوْلَىٰ أَنَّهُمْ الجامِعُونَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ لأنَّ الْعِلْمَ كالشَّجَرَةِ، والْعَمَلَ كالثَّمَرَةِ، والشَّجَرُ بِدُونِ الثَّمَرِ غَيْرُ مُفيدٍ، والثَّمَرُ بِدُونِ الشَّجَرِ غَيْرُ كَائِنٍ. وقال كعبُ الأحْبَار: هُمْ أُمَّةُ محمَّدٍ ﷺ. أَهْلُ الصَّلَوٰاتِ الخمس وشهْرِ رَمَضَانَ[٢] ومثلُ الآية قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ...﴾ فالآيةُ وإنْ كانَتْ شَامِلَةً لكل فَتْحٍ لٰكِنَّهَا نَزَلَتْ مُبَشِّرَةً بِفَتْحِ مَكَّةَ. فِي وَقْتٍ كَانُوا يأْمَلُونَ ذٰلِكَ، ونَاعِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ***

٥ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فأخْبَرَ سُبْحَانَهُ وتعالى بأنَّهُ تَوَلَّىٰ حِفْظُ القُرآنِ مِنَ التّبديل، والتَّغيير في سَائِرِ الأَزْمَانِ، بدليل التَّعبيرِ بالْجُمْلَةِ الإسْمِيَّةِ المؤكَّدَةِ بالمؤكِّدَاتِ، فَكَانَ فيْ الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا أخْبَرَ، فَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه، بِخِلاَفِ سَائِرِ الكُتُبِ، فَإنَّهُ تَعَالَىٰ وَكَلَ حِفْظَهَا إلى الأُمَمِ الْمُنْزَلَةِ عَلَيْهم كما قَالَ تَعالى: ﴿بمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٩] أي طلبَ حِفْظَهُ مِنْهُمْ، فَوَقَعَ فِيهَا التَّبْدِيلُ والتَّحْرِيفُ حتَّى صَارَتْ لَا يُوثَقُ بِمَا نُقِلَ مِنْهَا، فالمرادُ بالذِّكْرِ في قوله: ﴿إنَّا نحنُ

(١) وكذا في تفسير الكرخي.
(٢) الخطيب في تفسير الآية.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن الكريم، وَقَدْ اجْتَهَدَ كثيرٌ من المُلْحِدَةِ في إدْخَالِ شيْءٍ من التَّبْديل في القُرآنِ بَعْدَ أنْ أَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ، وَحَوْلَهُمْ وقوَّتَهُمْ في هٰذِهِ المُدَّةِ الطَّويلَةِ، فَمَا قَدِرُوا عَلَىٰ إطْفَاءِ شيْءٍ من نُورِهِ، وَلَا تغييرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، ولا تَشْكيكِ المُسْلِمِيْنَ في حَرْفٍ مِنْ حُروفِهِ، فَكَانَ الْحِفْظُ حَاصِلاً باللَّهِ كما أَخْبَرَ اللَّهُ تَعالى، فالحَمْدُ للَّهِ عَلَىٰ حفْظِهِ لِكَلَامِهِ، وَبَقَاءِ رَوْنَقِهِ وَنِظَامِهِ[1]. فالقرآنُ الكريمُ محفوظٌ بأمْرِ اللَّهِ من الزِّيادَةِ فِيهِ، والنَّقْصِ مِنْهُ، والتَّغييرِ والتَّبديلِ والتَّحْريفِ، فالقرآنُ العظيمُ مَحْفُوظٌ مِنْ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا، لا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ جميع الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ والإنْسِ أنْ يَزيدَ فيهِ، أو يُنقِصَ منه حرفاً واحداً، أو كلمةً واحدةً، وهذا مختَصٌ بالقرآنِ الْعَظيم. وَقَدْ جَعَلَ قوله ﴿وإنَّا لَهُ لحَافِظُون﴾ دليلاً على أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِهِ جَلَّ جَلَالُه، حَرفاً حَرْفاً، وَكَلِمَةً كَلِمَةً، وجُمْلَةً جُمْلَةً، عَلَى النَّسَقِ الَّذي أُنْزِلَ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذي حَفِظَهُ اللَّهُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِهِ الشَّريفِ، وَإخْراجِ حظِّهِ مِنْهُ كَمَا فِي أَحَاديثِ شَقِّ صَدْرِهِ الشَّريف، وسَيَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى. إذاً فَلَوْ كانَ القرآنُ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ لَتطَرَّقَ عَلَيْهِ الزِّيَادَةُ والنُّقْصَانُ كما يَتطَرَّقُ على كُلِّ كَلَامٍ سَواءً بِسَوَاءٍ، فَمَا أَنْ تَقَعَ حَادِثَةٌ إلَّا وَيُزَادُ فِيها مَا يُزَادُ، والْوَاقِعُ يُصدِّقُ هٰذَا، وَلِذَا كَانَتْ هٰذِهِ الآيَةُ، وغيْرُهَا مِنْ آيَاتِ الإعْجَازِ هِيَ المَحَجَّةُ الْبَيْضَاءُ فِي صِدْقِهَا، وَهِيَ الْهِدَايَةُ الْعُظْمَىٰ لِمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإسْلَامِ بِبَهَائِهَا ونُورِهَا، إذ بِهَا تَتَفَتَّحُ الْعُقُولُ، وتُعْطِي ثِمَارَهَا، وتُضْفِي عَلى الإيمَانِ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، وتَطْمَئِنُّ القُلُوبُ بِوَعْدِ اللَّهِ، بِمَا وَعَدَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، وأَحْبَابَهُ مِنَ الصِّدِّيقين والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفيقاً، كُلُّ ذٰلِكَ بِصِدْقِ إيمانِكَ بِرَبِّكَ، وَزِيَادَتِهِ بِمَا تَفَضَّلَ، وأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَاتِهِ، وَالْعَمَلِ بِهَا خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَريمِ، وأَنْعِمْ بِهِ مِنْ إلٰهٍ لَا يُضَامُ مَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً بِهِ، وما أَنْزَلَ على رُسله، وكَفَىٰ به نِعْمَةً وَفَضْلاً مِنْهُ ورَحمَةً * * *

٦ - ومنها قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حكيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] ففيها إخْبَار بالغيْب، وذلك أنَّ ناساً من الْيَمَنِ وَبَنِي خُزاعة اسْلَمُوا وَبقُوا بمكة بَعْدَ أنْ هَاجَرَ النَّبيُّ ﷺ، وكثيرٌ من أصْحَابِهِ، فَلَقُوا

---

(١) انظر السيرة النبوية لأحمد بن زيني دُحْلان جـ٣ ص ١٠٣.

من المُشْركينَ أَذىً شَديداً، فَأَرْسَلُوا وشَكُوا إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال: «**اصْبِرُوا وأبْشِرُوا بِفَرَجٍ قَرِيبٍ**» وَأَذِنَ اللَّهُ للمُسْلِمينَ في الْجِهَادِ، وَأَنْزَلَ آياتٍ في الأمْرِ بالْجِهَادِ. ومنها هذه الآية إلى آخرها، فكانَ بَعْدَهَا مَا أَوْقَعَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ، وَنُصْرَةِ المؤْمِنِينَ، التي شُفِيَتْ بِهَا صُدُورُهم، حتَّى خرّبُوا دِيارَ الشِّرك بالسَّبْي والْجَلاءِ، وَسَلْبِ الأمْوَالِ والنَّعَم. هذا كَلامُ الدُّحْلان في سِيرتِهِ[1]. وفي الخازن في تفسير الآية: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يُريدُ بالتّعذيب الْقَتْلَ، يعني يَقْتُلُهُمُ اللَّهُ بِأَيْديكُمْ، . . . ﴿وَيُخزِهِمْ﴾ يعني ويُذِلّهُمْ بالْقَهْرِ والأَسْرِ. ويُنْزِلُ بِهِمْ الذُّلَّ والهوانَ ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني بأن يظفركم بهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني ويُبْرِئُ داءَ قُلوبهم مما كَانُوا يَنَالُونَهُ من الأذَىٰ منهم، ومن المعلُوم أنّ من طَالَ تأذّيه من خَصْمِهِ، ثم مكّنه اللَّهُ منه، فإنّهُ يَفرحُ بذلك، ويعظُمُ سُرورُه، ويصيرُ ذلك سَبَباً لقوّة الْيقين، وثَبَاتِ الْعَزِيمَةِ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ويُذهب وجْدَ قُلُوبهم بما نالوْهُ من بَنِي بكر. روي أن النَّبيَّ ﷺ قال يوم فتح مكة: «**ارْفَعُوا السَّيْفَ إلاَّ خُزَاعَةَ من بني بَكْرٍ إلى الْعَصْرِ**» ذكره البغويُّ بغير سند. اهـ وقد حصَّل اللَّهُ تعالى هذه المواعيدَ كُلَّهَا، فكانَ دَليلاً على صِحَّةِ الإعْجَازِ بهذه الآيةِ، وَدَليلاً على صِحَّةِ نُبُوّتِهِ ﷺ * ولو أَرَدْنَا اسْتِقْصَاءَ ما أَخْبَرَ المولىٰ جلّ جَلالَهُ في القُرآن الكريم عن المغيَّبَاتِ، وتحقيق وبيان وقوعِهَا لطال بنا المقام، وَهَا أنا ذاكرٌ بَعْضَهَا على سبيل الإجْمَال لعلَّ ذكرها يُغْنِي عن تفصِيل الْمَقَال، فمنها بيان أخبار الأُمَم السَّالِفَة، قرناً بَعْدَ قرن، وعصراً بَعْدَ عصْر، ومنها أخبار المِلَّتَيْنِ من الْيَهُود والنَّصَارى بأوْجَزِ عِبَارَةٍ، وَأَفْصَحِ بيان، فكثيراً ما كَانُوا يَسْأَلُونَ المُصْطَفىٰ ﷺ عن أَخْبَارِ الأُمَمِ الماضية امْتِحَاناً لَهُ ﷺ وَتَعَنُّتاً، فَيُنَزِّلُ المولى جلّ جلالَهُ على نبيِّهِ ﷺ ما سَأَلُوا عنْهُ ـ وهم يَعْلَمُونَ جوابَهُ، ومُسجَّلاً عِنْدَهُم في كُتُبِهِمْ ـ كخبر موسى عليه السلام، والخضر، ويوسف وإخْوَتِهِ، وكَقِصَّةِ أصْحَابِ الكهْف، وَذِي القرنين، ولقمانَ وابْنه، وأشْباه ذٰلِكَ من الأَنْبَاءِ والقصص المذكورة في القرآنِ بألْطَفِ إشَارَة، وأبْلَغِ عِبَارَةٍ، وكبيَانِ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ، وَمَا جرَىٰ في ذٰلِكَ، وَخَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ، وآدَمَ وحواءَ، وما في التَّوْرَاةِ والانجيلِ مِنَ الأحكام [illegible] رائع والتَّوْحِيدِ، وَمَا في الزُّبُر، وصُحُفِ

(١) جـ٣ ص ١٠٤.

ابراهيم ومُوْسَىٰ، وغيْرِ ذلك مِمَّا صَدَّقَهُ فيه عُلَمَاءُ أهْلِ الكِتَابيْنِ: التَّوْرَاةِ والإنْجيلِ. ولم يَقْدُرُوا على تكذيب شيءٍ ممَّا أنزله اللَّهُ تعالى بِخُصُوصِهَا، بل أذْعَنُوا لذلك، واعْتَرَفُوا بِهِ، فمنْهم مَنْ وَفَّقَهُمُ اللَّهُ وهداهم إلى الإسْلامِ لِمَا سَبَقَ لَهُم مِن الْعِنَايَةِ الْأَزَلِيَّةِ كعبداللَّهِ بن سلام. أَحَدِ أَحْبَارِ الْيَهُود الكبار، ومنهم من خذلـه اللَّهُ فَكَفَرَ عِنَاداً وَحَسَداً، ومن ذلِكَ ما سألُوه عن الروح، وبَيَانِ حُكْمِ الرَّجْـم، وهُوَ مِمَّا أَخْفُوهُ في كُتُبِهِمْ، وكَبَيَانِ مَا حرَّمَ اسْرائيلُ على نَفْسِهِ امْتِحَاناً لَهُ ﷺ، ونَزَلَ الجـوابُ وَافياً صَادِقاً شافياً، وَسَأَلُوهُ عَمَّا حُرِّم على بَنِي اسْرَائيل من الطَّيِّبَاتِ والأنْعَامِ الَّتي كَانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ، فَحَرَّمَهَا اللَّهُ عليْهم بِبَغْيِهِمْ، عُقُـوبةً لَهُمْ بسبب ظُلْمِهِمْ، قـال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ الّذينَ هَادُواحَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ والْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مـا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَـا أو الْحَوَايَـا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَـظْمٍ ذَٰلِكَ جَـزَيْنَـاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإنَّـا لَصَـادِقُونَ﴾ [الأنعـام: ١٤٦] فحرَّم عليْهم مـا لم يكُنْ مَشْقُوقَ الأصَـابع من البهـائِم والطُّيُور، كالإبل والنَّعَام، والإوَزّ والْبَطِّ. وقيل: كُلَّ ذي مِخْلَبٍ من الطُّيُـور، وكلَّ ذي حَـافِرٍ من الـدَّوابّ، وَحَرَّمَ عليهم شَحْمَ الْبَقَـرِ والْغَنَمِ والكليتيْن إلَّا ما الْتَصَقَ بـالظَّهْـرِ والْجَنْبِ كما بَيَّنَـهُ المُفَسِّـرُون، وفصَّلُوه في تفسيـر هـذه الآيـة. وقـولـه: ﴿ببغيهم﴾ أي بقتلهم أنْبِيَائِهِمْ، وأخْذِهِمْ أمْوَالَ النَّاسِ بـالْبَاطِـلِ. وكانُـوا يَقُولُـونَ للنَّبِيِّ ﷺ: لم يُحَرِّمِ اللَّهُ عَلَيْنَا شَيْئاً، فَإنْ حرَّمَ عَلَيْنَا شيئاً فبيِّنْهُ، فـأنْزَلَ اللَّهُ هـذه الآيَةَ في تكذيبهم. فَافتُضِحُوا. إلى آخر ذٰلِكَ مِمَّا في التَّوْرَاةِ والانْجيلِ من إثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا محمَّد ﷺ. وأنَّه صَاحِبُ الرِّسَالَةِ المُنْتَظَرَةِ، وكانَ المنجِّمُونَ منهم يَرْقُبُونَ طُلُوعَ نَجْمِهِ ﷺ. قال اللَّه تعالى في القرآن الكريم: ﴿الَّذينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأمِّيَّ الَّـذي يَجدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيل يأمُرُهُمْ بالْمَعْرُوف ويَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الـطَّيِّبَـاتِ ويُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إصْـرَهُمْ والأغْلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهـذا يـدلُّ على أنَّه ﷺ لـو لم يكن مكتُوباً عِنْدَهُمْ في التّوراة والانجيل لكانَ ذِكْـرُ هذا الكـلامَ في القرآنِ مِنْ أعْـظَمِ المُنَفِّراتِ عن الدُّخُول في الإسلام، والعاقِلُ لا يَسْعَى فيما يُوجبُ نُقصـانَ حَالِـهِ، وينفّر النَّاس عن قَبُول مَقَالِهِ، فَلمَّا قال لهمْ عليه الصلاة والسلام هـذا دَلَّ عَلَى أنَّ

ذٰلِكَ النَّعتَ كانَ مَذكوراً في التَّوْرَاةِ والإنجيلِ، وَذٰلِكَ من أعْظَمِ وَأقْوَىٰ الدَّلائل على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، وممّا يَدُلُّكَ على صِدْقِ هٰذا إسْلامُ من أسْلَمَ مِنْ كبار أحبارهم كَعَبْدِ اللّهِ بنِ سَلامٍ، وتَميم الدَّارِي، وَكَعْب الأحْبَارِ. وَقَدْ وَقَفُوا مِنْهُ على مِثْلِ هٰذِهِ الدَّعَاوَىٰ، وفي التَّوْرَاةِ الَّتي بِأَيْديهِمْ مِمَّا ذكرهُ ابنُ ظفر في البشر، وابنُ قتيبة في أعلام النبوّة «تجلّى اللّهُ من سَيْنَاءَ، وأشْرَقَ مِنْ سَاعِيْرَ، واسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَاران» فسيْنا هو الجبلُ الذي كَلَّمَ اللّهُ فيه مُوسىٰ، وساعيرُ هو الجبلُ الَّذي فِيهِ ظَهَرَتْ نُبُوَّةِ عِيْسَىٰ، وجبالُ فاران. وهو اسْمٌ عبرانيٌّ، ولَيسَتْ أَلِفُهُ الأُولَىٰ همزة: هي جِبَالُ بَنِي هَاشِمٍ التي كانَ رَسُولُ اللّه ﷺ يَتَحنّثُ في أَحَدِهَا، وفيه فاتحةُ الْوَحْي، وَهُو أَحَدُ ثلاثَةِ جِبَالٍ: أحدُهَا أَبو قُبَيْس، والمُقَابِلُ له قَيْقَعَان إلى بَطْنِ الْوادِي، والثالث الشرقيُّ فاران، ومُنْفَتَحُهُ الّذي يلي قَيْقَعَانَ إلى بَطْنِ الْوَادي، شِعْبُ بَنِي هَاشِمٍ، وفيه مَوْلِدُهُ ﷺ على أحد الأقوال *[1]

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموضٌ لأنَّ تَجلّي اللّهُ تَعَالَىٰ من سَيْنَاءَ: إنْزَالُه التَّوْراةَ على مُوسىٰ بِطُور سَيْنَاءَ. ويجبُ أن يكونَ إشراقه من سَاعِيرَ إنزالُه على الْمَسيح الإنجيلَ، وكانَ المسيحُ يَسْكُنُ من سَاعيرَ أرْضِ الخليلِ بِقَرْيَةٍ تُدْعَىٰ نَاصِرَة. باسْمِها تسمَّى مَنْ تَبِعَهُ نَصارَىٰ. فكما وَجَبَ أن يكونَ إشْرَاقُهُ من سَاعِيرَ إنزالُه على المسيح الإنجيلَ والنُّبُوَّةَ فكذلك يَجبُ أن يكونَ اسْتَعْلانُهُ من جِبَالِ فَارَانَ إنْزَالُهُ القرآنَ على مُحَمَّدٍ ﷺ. وَهي جِبَالُ مكَّةَ، وليْس بيْنَ المُسْلِمينَ، وأهلِ الكِتَاب في ذلك اخْتِلافٌ في أنَّ فَارَانَ هِيَ مكَّةُ، وإن ادُّعيَ أنَّهَا غيرُ مكّة. قُلنا: أَلَيْسَ في التَّوْرَاةِ في سِفْرِ التَّكْوين: أَنَّ اللّهَ أسْكَنَ هَاجَرَ وإسْمَاعِيلَ فَارَانَ؟؟؟ وقُلْنَا دُلُّونَا على الموضِعِ الذي اسْتُعْلِنَ اللّه منه، واسمه فاران. والنبيُّ الذي أُنزل عليه كتابٌ بعد المسيح. أَوَ ليسَ استعلن، وَعَلَنَ بمعنىً وَاحِدٍ؟ وهُوَ مَا ظَهَرَ، وانكَشَفَ. فَهَلْ تَعْلَمُونَ دِيناً ظَهَرَ ظُهُورَ الإسْلامِ، وَفَشَا في مَشَارِقِ الأَرْضِ ومغارِبِهَا فَشْوَهُ؟[2] وفي الإنجيل مِمَّا ذَكَرَهُ ابن طغربك في الدُّرِ المنتظم: قال يُوحنا في إنْجيلِهِ عن المسيح: إنه قال: «أَنَا أَطْلُبُ لكُمْ من الأَبِ أَنْ يُعْطِيكُمْ فَارَقْلِيطَ آخرَ يَثْبُتُ مَعَكُمْ

---

(١) الدليل الصادق جـ١ ص ١٩١ - ١٩٢.
(٢) الدليل الصادق جـ١ ص ١٩٢

إلى الأَبَدِ: رُوحُ الحقّ الذي لا يُطيقُ العالَمُ أن يَقْتُلُوهُ * وهو عنْد ابن ظفر بلفظ: إنْ أَحْبَبْتُمُوني فاحْفَظُوا وَصِيَّتِي، وأنا أطلبُ إلى أبي فَيُعْطِيكُمْ فارقليط آخَرَ يكون معكم الدّهْرَ كُلّهُ * قال: فهذا تصريح بأنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُ إلَيْهِمْ مَنْ يقُوم مقَامَهُ، وَيَنُوبُ عَنْهُ في تَبْليغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، وسِيَاسَةِ خلْقِهِ مَنَابَهُ، وتكون شريعتُه باقيةً مُخَلَّدةً أبداً، فَهَلْ هذا إلاَّ مُحَمَّدٌ ﷺ؟اهـ.[1] وإلى هُنا أكْتَفِي بذكرِ هٰذِهِ النُّبْذَةِ الْيَسيرَةِ عَنْ بيَانِ إعْجَازِ القرآن، وبه أُنهي القِسْمَ الأوّل.

(١) الدليل الصادق لجاب الله جـ١ ص ١٩٣.

القسم الثاني

يشملُ هذا القسمُ عَلَى ما صَحَّ دليلُهُ من مُعْجِزَاتِ النَّبيِّ ﷺ. مُبْتَدِأً بتعْريفِ المُعْجِزَة، لِنَعْلَمَ بِهِ أوْجُهَ الإعجازِ فيما ظَهَرَ على يَدَيْهِ ﷺ مِنْهَا. وبهِ أستعينُ.

تَعْرِيفُ المعجِزَةِ، وبيانُ أقْسَامِهَا

في الْمَوَاهِبِ اللَّدنيَّة بالمنح المحمديَّة[1] (المعجزةُ هِيَ الأمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ. الْمَقْرُونُ بالتَّحَدِّي. الدَّالُّ على صِدْقِ الأَنْبِيَاءِ عليهُمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ).

وسُمِّيَتْ معجزةً لَعَجْزِ الْبَشَرِ عن الاتْيَانِ بمثلها. ومن هذا التَّعْريف عُلِمَ أنَّ لَلْمُعْجِزَةِ شروطاً يَجِبُ أن تَتوفَّرَ فيها ١ ـ أن تكون المعجزةُ خَارِقَةً لِلْعَادَة كانْشِقَاق الْقَمَرِ، وانْفِجَارِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ، وَقَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً، وَإخْرَاجِ نَاقَةٍ مِنْ صَخْرَةٍ، وإعدامِ جَبَلٍ. فخرج غَيْرُ الخارِق لَلْعَادَةِ كطُلُوعِ الشَّمْسِ كل يَوْم، فَلَيْسَ في التَّحدي في طُلوعِهَا مُعْجِزَةٌ. ٢ ـ أَنْ تكون مقرونةً بالتَّحَدِّي، وهو طلب المُعَارَضَةِ والمقابلة ٣ ـ أنْ لَا يَأْتي أحَدٌ بِمِثْلِ مَا أَتَىٰ بِهِ المُتَحَدِّي عَلى وَجْهِ المُعَارَضَةِ، وخَرَجَ بقيْدِ التَّحَدِّي الخارقُ من غيْرِ تحدٍّ، وهُو الكرامةُ للوليّ، وبالمُقَارَنَةِ الخارقُ المتقدّمُ على التَّحَدِّي كالإرْهَاصِ. كتظليل الْغَمَامِ لَهُ ﷺ حينَ خُرُوجه إلى الشامِ، ومُشاهَدَةِ الرَّاهِب لِذَلِكَ، وكشق صَدْرِهِ ﷺ الْواقعيْن لَهُ قبل دَعْوىٰ الرِّسالة، وكلامِ عِيْسَىٰ في الْمَهْدِ، فَإنَّهَا لَيْسَتْ مُعْجِزَاتٌ، وإنَّما هي كَراماتٌ يجُوزُ ظُهُورُهـا على أيْدي الأوْلِيَاءِ تَنويهاً بِشَأْنِهِمْ، وبَيَاناً لِفَضْلِهِمْ، والأنْبِيَاءُ قَبْلَ نُبُوَّتِهِمْ لا يَقْصُرُونَ عَنْ دَرَجَةِ الأوْلِيَاءِ، فيجُوز ظُهُورُهَا عَلَيْهم أيضاً، وَتُسَمَّى

---

(١) لأحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب القسطلاني جـ١ ص ٣٤٦ نشر دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.

إرْهَاصاً. أي تأْسيساً للنُّبُوَّة، وعلامةً عليْها، وَجَزْماً بِوُقوعِها عِنْدَ تكريرها، قبْلَ الْبِعْثَةِ، كما هُو شأنُ نَبِيِّنَا محمَّدٍ ﷺ، فيما نُوِّهَ بِشَأْنِهِ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَمَا وَقَعَ منْ إرْهَاصَاتٍ يَوْمَ مَوْلِدِهِ، وَرِضَاعِهِ، وَشَقِّ صَدْرِهِ. وَأكْثَرُ العُقَلاءِ قَالُوا عَنْهُ إنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْناً في مُسْتَقْبَلِهِ، وما دَرُوا أنّها النُّبُوَّةُ. وخرجَ أيْضاً بقيْدِ الْمُقَارَنَةِ المتأخّرُ عن التّحدِّي مَا يُخرّجُهُ عن الْمُقارَنةِ الْعُرْفِيَّةِ، نَحْوَ مَا رُوي بعد وَفَاتِهِ مِنْ نُطْقِ بَعْضِ الْمَوْتَىٰ بالشَّهادَتَيْن[١] وشبهه مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ الأخْبَارُ، وخرج أيضاً بأَمْنِ المُعَارَضَةِ السَّحَرَةُ، فَإنَّهُ من المُمْكِن مُعَارَضَتُهم، لِكُلِّ مَنْ تعلَّم فَنَّهُمْ.[٢] وبعدَ هذا البيان فأقول: حينما يَقُومُ أَمَامَنا إنسانٌ مثلاً، وَيَدّعِي النُّبُوَّةَ، وأنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ إلَيْنا، فَإنَّنا سَنُطَالِبُهُ بالدَّليلِ على صِدْقِ مَا ادَّعَاهُ. فإذا قال: إنَّ آيَةَ صِدْقِي أَنَّ اللَّهَ الّذي أرْسَلَنِي سيُغيِّرُ عَادَةً من عَادَاتِهِ في الْمَخْلُوقَاتِ، فَسَلُونِي مَا بَدا لكُمْ حتَّى تَرَوْنَ صِدْقَ دَعْوَايَ. هبْ أنَّا قُلْنَا له: شُقَّ لنَا هَذا الْقَمَرَ نِصْفَيْنِ، ثم لِيَعُدْ كَمَا كَانَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مُدَّعِي الرِّسالَةِ، وأشَارَ بِيَدِهِ إليْهِ، وَبالْفِعْلِ فَقَدْ انْشَقَّ الْقَمَرُ نصْفَيْنِ، ثم عَادَ كَمَا كَانَ. ثُمَّ قال لَنا: اشْهَدُوا أنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكم، بَعَثني بِالْهُدَىٰ ودينِ الْحَقِّ، وإذَا لَمْ تَكُونُوا مُصَدِّقينَ بِهَذا الْحَدَثِ الْعَظيم فأتُوا بِمِثْلِهِ إن كُنْتُم تَشكُّونَ في نُبُوَّتِي. لاَ شَكَّ أنَّهُم عَاجزون عَنِ الْقِيَامِ بِهَذا الأمْرِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ، فَمَا عَلَيْهِم إلاَّ التَّصْديقُ بِهٰذِهِ المُعْجِزَة، وَالإيمَانِ بِمَنْ أَوْقَعَهَا اللَّهُ عَلى يَدَيْهِ، وَاسْمَعْ الآنَ ما أقوله لَكَ، وسَأضْرِبُ لك أَمْثِلَةً من مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ. جَاءَ مُوسى عليْه السَّلامُ قَوْمَهُ بمُعْجِزَاتٍ كثيرةٍ سَأَكْتَفِي مِنْهَا بِذِكْرِ مُعْجِزَةِ (الْعَصَا) إنَّها خَشَبٌ، لا إحْسَاسَ لَهَا ولا رُوحَ فيهَا، وَلَيْسَ لَهَا لَحْمٌ، ولاَ عَظْمٌ، ولاَ عُرُوقٌ ولا قَلْبٌ وَلَا دَمٌ، إنَّهَا مَواتٌ كَالتُّرابِ، حتَّى إنّها لا تُسَبِّحُ اللَّهَ تعالى لِيُبْسِهَا، فَقَدْ ثَبَتَ أنَّ كُلَّ شيْءٍ أخْضَرَ من النَّبَاتِ يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعالى، فَإذَا يَبِسَ يَنْقَطِعُ تسبيحُهُ، ويدلُّ عليه حديث القبريْن اللَّذين كَانَ صَاحِبُهما يُعَذَّبَانِ، أَحَدُهُمَا كَانَ لَا يَسْتَتِرُ منَ الْبَوْلِ، أوْ يَسْتَنْزِهُ، والثاني كان يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، فَأَخَذَ ﷺ خُوصاً من تَمْرٍ، وَشَقَّهُ نِصْفَيْنِ، وَوَضَعَ عَلَىٰ كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا نِصْفاً. وَقَالَ: أَرْجُو أنْ يُخَفِّفَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا.

---

(١) وسيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

(٢) وسيأتي بيان تزييف هذا الفن وخداعه.

معناهُ إذا يَبِسَا لا يُسبِّحَانِ، فتكون عَصَا مُوسَىٰ عليه السَّلامُ مَيِّتَةً كبقيَّةِ الْمَوَاتِ، ولكنْ ظَهَرَتْ الْمُعْجِزَةُ الْخَالِدَةُ أنَّهُ حِينَمَا أَلْقَاهَا قَائلاً باسْمِ اللَّهِ فَإذا هِيَ حَيَّةٌ حقيقيَّةٌ تَسْعَىٰ، قَدِ انْقَلَبَتِ المادَّةُ الْخَشَبِيَّةُ، إلى مَادَّةٍ حَيَّةٍ، تَشَكَّلَ مِنْهَا هَذا الْحَدَثُ الْعَظيمُ، تَماماً يُشْبِهُ هَذا الْحَدَثُ خَلْقَ آدَمَ عليْه السَّلامُ من تُرابٍ لاَ حَيَاةَ فيه، فَيَا لَهُ مِنْ أمْرٍ مُعْجِزٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، مَقْرُونٍ بالتَّحَدِّي لِفِرْعَونَ وَسَحَرَتِهِ، أنْ يأتُوا بِمِثْلِهِ، لَقَدْ جَمَعَ فِرْعَونُ السَّحَرَةِ، وأغراهُم بالأَمْوَالِ والسُّلْطَانِ إنْ هُمْ غَلَبُوا مُوسَىٰ عليْهِ السَّلامُ . إنَّ مُوسَىٰ عليْه السلامُ لَيْسَ سَاحِراً كما ادَّعَىٰ فِرْعَونُ، وأنَّهُ كَبيرُهُمْ، وإذَا كانَ مُوسَىٰ عليْه السَّلامُ كَبيرُهُمْ، فَلِمَاذا لم يَقُولُوا لَفَرْعَونَ إنَّهُ هُو الَّذي عَلَّمَنا السِّحْرَ، وَإنْ كَانَ كَبيرُهُم فلِمَاذَا يُنَازِلُوهُ، أمَام النَّاسِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُم مَغْلُوبونَ، وَلِكِنْ لَمْ يكُنْ مُوسَىٰ عليْه السَّلامُ يَعْرِفُهُمْ، ولم يُخَالِطْهُمْ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، بَلْ كَانَ رَاعِياً لشُعَيْبِ عليهِ السَّلام في مَدْيَنَ، وَلَمَّا رَجَعَ إلى مِصْرَ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ أكْرَمَهُ اللَّهُ بالنُّبُوَّةِ، وَأَرْسَلَهُ رَبُّهُ إلى فِرْعَونَ وَقَوْمِهِ. لَقَدِ اجْتَمَعَ السَّحَرَةُ في يَوْمِ الْعِيْدِ، واجْتَمَعَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ لِيُشَاهِدُوا هَذِهِ الْمُبَارَاةِ بَيْنَ مُوسَىٰ والسَّحَرَةِ، لقد حَانَ الْوَقْتُ، وكَانَ السَّحَرَةُ قَدْ قامُوا بِلُعْبَتِهِمُ السِّحْرِيَّةِ، فَثَقَبُوا عُصِيَّهُمْ، وَمَلَؤُهَا بالزِّئْبَقِ، وَكَذَلِكَ احْتَالُوا عَلى الْحِبَالِ، وصوَّرُوهَا بِصُوَرِ حيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وكَانَ الْمَوْعِدُ مَتَىٰ يُحْشَرُ النَّاسُ ضُحَىً، حَتَّى تكُونَ الشَّمْسُ أشَدَّ حَرَارَةً فَتُحَرِّكُهَا، وقد خَيَّرُوا مُوسَىٰ بِمَنْ يُلْقِي أوَّلاً وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّ عَصَاهُ كَعِصِيِّهِم، فقَالَ: بَلْ أنْتُم الْمُلْقُونَ، فَأَلْقَوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إنَّهُم لَغَالِبُونَ، وإذَا بَعَصِيِّهم وحِبَالِهِمْ يُخَيَّلُ لِلنَّاسِ مِنْ سِحْرِهِمْ: من حِيَلِهِمْ أنَّهَا تَسْعَىٰ، وَشَاهَدَ مُوسَىٰ عليْه السَّلامُ هَذَا السَّعْيَ مِنْهَا، فأوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً لاَ يَغْلِبُونَهُ فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إليْهِ، أَلْقِ عَصَاكَ فإنَّكَ أنْتَ الْفَائِزُ، فأَلْقَاهَا مُوسى عليه السَّلامُ قائِلاً بِاسْمِ اللَّهِ، وإذَا بِهَا حَيَّةً عَظيمةً قَدِ ابْتَلَعَتْ جميعَ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ، وسجَدَ السَّحَرةُ لِلَّهِ مُؤْمِنينَ بِرَبِّ هَارُونَ ومُوسَىٰ، قائلين لِمَعْبُودِهِمْ وَمَلِكِهِمْ فِرْعَونَ بَعْدَ أَنْ تَوعَّدَهُمْ بالصَّلْبِ ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا من الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ مَا أنْتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ومَا أكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللَّهُ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢] وبَعْدَ هذا فإنَّنَا سَنَبْلُغُ دَرَجَة اليقين بأنَّ مُوسَىٰ عليه السلام مُرْسَلٌ من ربِّ

الْعالمينَ لِقِيَامِ الدَّليلِ ** وهب أنَّه وَقَفَ أمامَنا إنْسَانٌ يدَّعِي النّبوَّةِ، وقال: إنَّ آيةَ صِدْقِي أنْ أُبَرْهِنَ لكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاؤُونَ، ثمّ تَشَاوَرْنَا فيمَا بَيْنَنَا، وَطَلَبْنَا مِنْهُ أن يُعِيْدَ الْحَياةَ لَميِّتٍ مَضَىٰ عَلَىٰ مَوْتِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وقَدْ وَافقْنَا عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَقَالَ لنا: أيُّ قَبْرٍ تُرِيدُونَ أن أُحْيِيَ صَاحِبَهُ لكُمْ؟ فَأَشَرْنَا إليْهِ إلى أَقْدَمِهَا، وَإِذَا بِهِ يَقُولُ: قُمْ بإذْنِ اللَّهِ يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ، وَإِذَا بالْفِعْلِ يَنْشَقُّ الْقَبْرُ، وظَهَرَ مِنْهُ رَجُلٌ، وَهُوَ يَقُولُ: لاَ إلٰـهَ إلَّا اللَّهُ عِيْسَىٰ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وتكَلَّم الْحَاضِرُونَ مَعَهُ، وذكَـرَ لَهُمْ بِأَنَّـهُ كَـانَ يَحْسَبُ بأنَّهُ قَدْ قَامَتِ السَّاعَةُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذا الأَمْرِ نَشكُّ في رِسالَةِ عِيْسَىٰ عليْهِ السَّلاَمُ؟ وهل يُسَاوِرُنَا أَدْنَىٰ شَكٍّ أَنَّهُ غَيْرُ مُرْسَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ هَبْ أنَّ الْبَعْضِ مِنَّا سَاوَرَتْهُ بَعْضُ الشُّكُوكِ، وَقَالَ: أُرِيدُ أنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ ذٰلِكَ، فَنَاوَلَ عِيسَىٰ عليْهِ السَّلاَمُ قِطْعَةً مِنَ الطِّينِ، وَلْتُصْبِحْ طَيْـراً يَطِيـرُ في جَوِّ السَّمَـاءِ، فَأَخَـذَ عِيسىٰ عليـه السَّلاَمُ تِلْكَ الْقِـطْعَةَ، وأمْسَكَهَـا بَيْنَ يَدَيْـهُ ،وَنَفَخَ فيهَـا قائِـلاً كُوني طَيْراً بِإذْنِ اللَّهِ، فكانَتْ كَما قال. وبِهَاتَيْنِ المُعْجِزَتَيْنِ الْخارِقَتَيْنِ لَلْعَادَةِ، الْمَقْرُونَتَيْنِ بالتَّحَدِّي على المُعَارَضَةِ بَلَغْنَا في إيمانِنا بِعِيسىٰ عليْه السَّلاَمُ دَرَجَةَ الْيَقِينِ أَنَّهُ مُـرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَلَمْ يَعدْ لَنَا عُذْرٌ بَعْدَ هٰذَا فإمَّا إيمَـانٌ، وإمّا كُفْـرٌ لا ثَالِثَ لَهُمَـا بَعْدَ أنْ نَسْمَعَ كلاَمَ اللَّهِ في هٰذا الأمْرِ الْعجيبِ المُنَزَّلِ بِمَنْزِلَةِ صَدَقَ عَبْدِي فِيْمَا يَدَّعِيهِ. قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإِنْجِيْلَ وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهيْئَـةِ الْطَّيْـرِ بِإِذْنِي فَتَنفُـخُ فِيها فَتَكُـونُ طَيْراً بـإِذْنِي وتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْـرِجُ الْمَوْتَى بِـإِذْنِي وَإِذا كَفَفْتَ بَني إِسْـرائيلَ عَنْـكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بـالْبَيِّنَـاتِ فقَـالَ الَّـذينَ كَفـرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰـذا إلَّا سِحْـرٌ مُبينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] وهـكَذا ادَّعَىٰ قَتَلَةُ الأنْبيَاءِ مِنَ الْيَهُـودِ مِنْ أَنَّ هٰذِهِ الأُمُورَ الْخارِقَـةَ لِلْعَادَةِ، الْمَقْرُونَةَ بالتَّحدِّي، السَّالِمَةَ مِنَ المُعَارَضَةِ أَنَّهَا سِحْرٌ، وهل هذا صحيح؟ أم تكذيب بِآياتِ اللَّه؟ إنَّ السَّاحِرَ كذّابٌ مُخَادِعٌ ماكِرٌ مُحْتَالٌ شريرٌ دَجَّالٌ، يَقُوم بأَلْعابٍ تُـوهِمُ النَّاسَ أنَّهـا مـن صُنْعِ يَـدِهِ، وأنَّه قـادِرٌ على فَعْلَ الْعَجَـائِبِ، وكَذَبَ وربِّ مُحَمَّدٍ ﷺ. وإليْك هٰذِهِ الأَمْثلَةَ مِنَ الأَلْعَابِ السِّحريَّة بَيَاناً للحقِّ وَدَمْغاً لِلْبَاطِلِ.

المثال الأوّل: (قَتْلُ حَمامة ثُمَّ إِحْيَاؤُهَا).

يُمسكُ اللاعبُ حمامةً ويلوي رقبتَها بيدِه، فتظْهرُ وكأنَّها مَاتَتْ، فيرميَها للنَّاسِ فيتلقَّوْنها مَيّتَةً، وَيَنْظُرُون إلى اللاَّعِبِ شَذَراً لِقَسْوَتِهِ، وإتْيَانِهِ بِهٰذا الْفِعْلِ المُسْتنكَرِ، وفي هذه اللَّحْظَةِ يَمُدُّ اللاَّعِبُ يَدَيْه قَائِلاً: أعْطُوني الْحَمَامَةَ الميِّتَةَ فأُحْيِيها لَكُم ـ كذابٌ ومُشَعْوِذٌ ودَجَّالٌ فإنَّه لا يُحيي الْمَوْتَى إلاّ اللّهُ، ولذا أَوْجَبَ الشَّرْعُ قَتْلَ السَّحَرَةِ ـ وَحينَما تُرمَىٰ الحَمَامَةُ الميِّتة إليْه، ويَلُفُّها في طَبَقٍ مِنَ الْوَرَقِ، ويُصوِّبُ عَلَيْها مُسدَّساً من أنْواعِ لَعِبِ الأطْفَالِ، ويُطلِقُ طَلْقَتَهُ فإذَا بِالْحَمَامَةِ فِعْلاً قَدْ انْفَلَتَتْ مِنَ الْوَرَقِ وَطَارَتْ. يَا لّلهول! لقد دُهِشَ النّاسُ وانْبَهتُّوا، وأخذَ بَعْضُهم يَنْظُرُ إلى بَعْضٍ بإِعْجَابٍ وإكْبَارٍ مِنْ هَذا الأمْرِ العظيمِ، وما عَلِمُوا سِرَّ هٰذِهِ اللُّعبَة اللَّعينَةِ التي تُشَوِّشُ على النَّاسِ عَقَائِدَهُمْ، وَلَوْ أنَّهُمْ عَلِمُوا سِرَّهَا لَاشْبَعُوا السَّاحِرَ لكْماً وَهزْءاً وسُخْرِيَةً... سرُّ ذلك إنّ اللاَّعِبَ يَكونُ قَدْ وَضَعَ بِيَدِهِ بِطَرِيقَةٍ خفيّة مادَّة (كلورفورم) المخدِّر، وَهو مُمْسِكٌ بالْحَمَامَةِ، فَحِينَمَا يَلْوي رَقَبَتَها، يَكُونُ قَدْ نَشَّقَهَا تِلْكَ الْمَادَّة، فَتَخَدَّرَتْ وَفَقَدَتْ شُعُورَهَا، ولمَّا يَرمِي بِهَا إلى الْمُتَفَرِّجِينَ يَظُنُّونَ أنَّها قَدْ مَاتَتْ. أمَّا حينَ يَتَلَقَّاهَا مِنْهُمْ يُخاطِبُها بِقَوْلِهِ: لَقَدْ مَاتَتْ حَمامَتِي إلى رَحْمَةِ اللَّهِ. ويُقلِّبُها بَيْنَ يَدَيْهِ يُدَغْدِغُهَا بأَصَابِعِهِ لِتَسْتَعِيدَ وَعْيَها، ومَا أَنْ يَشْعُرَ بإفاقَتِها إلاَّ وَيضَعَهَا عَلَى ذٰلِكَ الطَّبَقِ، ويُطْلِقُ عَلَيْها الْمُسَدَّسَ، وَمَا أنْ تَسْمَعَ صَوْتَه إلاَّ وَتَرَاهَا قَدْ طَارَتْ مُسْرِعَة في طَيَرانِها. وَهَكَذا تَرى الْمُشَعْوِذَ قَدِ ابْتَسَمَ بابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ مُوهِماً النّاسَ أنَّهُ يَفْعَلُ الأَعَاجِيبَ. وفي الحديث «اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وسَاحِرَةٍ» وقد قتلتْ عائشةُ سَاحِرةً لَهَا تَقُومُ بمثل هٰذِهِ الألْعَابِ، وقتلَ عمرُ كثيراً من السَّحرة حَتَّى لا تَخْتَلِطَ أعْمَالُهُمْ الشَّيْطَانِيَّةِ هٰذِهِ بِمُعْجِزَاتِ الأنْبِيَاءِ الْكِرَامِ، وَهُوَ أمْرٌ حقٌّ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤمِنٍ مُحَارَبَةَ هَؤُلَاءِ الْمَرَدَةَ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ، حتّى لَا يُدْخِلُوا الشَّكَّ عَلَى ضِعَافِ العُقُولِ مِنْ أبْنَاءِ أُمَّتِنَا. وأيُّ شَكّ أعظمُ وأكْبَرُ مِنْ إِحْيَاءِ ميِّتٍ أَمَامَ عَيْنِكَ؟! ولكِنْ مَنْ عَرَفَ السَّبَبَ بَطَلَ الْعَجَبَ، وقَدْ عَرَفَهُ، وللَّهِ الْحَمْدُ.

المثال الثاني (نَشْرُ امْرَأةٍ ضِمْنَ صُنْدُوقٍ وإعَادَةِ الحياةِ إلَيْهَا).

يضعُ المُشَعْوِذُ الخبيثُ صُنْدُوقاً خَشَبِيّاً رَقيقاً مُسْتَطِيلَ الشَّكْلِ عَلَى الْمَسْرَحِ، وَتَدْخُلُ فِيهِ امرأةٌ نَحِيفَةٌ بِحَيْثُ رَأْسَهَا مِنْ طَرَفٍ، وَرِجْلاَهَا مِنْ الطَّرَفِ الآخَرِ، ويَبْدَأ الْمُشَعْوِذُ فِي نَشْرِ الصُّنْدُوقِ إلى نِصْفَيْنِ بِمنْشَارٍ كبيرٍ، فَتصيحُ المرأةُ بِأَلَمٍ، وَيَنْخَفِضُ

صَوْتُها شَيْئاً فَشَيْئاً حتى تَفْقِدَ الْحَيَاةَ بشطرها إلى قسمين، ثم يَفْتَحُ الْمُشَعْوِذُ الصُّنْدُوقَ، وإِذَا بِالْمَرْأَةِ قَدْ عَادَتْ إِلَيْها الْحَيَاةُ ثَانِيَةً، وَتَقْفِزُ مِنَ الصُّنْدُوقِ ضَاحِكَةً، وَلَعَلَّكَ شَاهَدْتَ هٰذَا الْمَنْظَرَ عَلَى شَاشَةِ التّلفازِ، فَقَدْ عُرِضَ أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ. . . وسرُّ هٰذِهِ اللُّعْبَةِ السِّحْرِيَّةِ. إِنَّ الصَّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ يَكُون ضِمْنُهُ ابْتِدَاءً فَتَاةٌ ثَانِيَةٌ مُضْطَجِعَةٌ جَامِعَةً أَطْرَافَها حَوْلَهَا في مُؤخَّرة الصُّنْدُوقِ، وَبِهٰذا تكونُ قَدْ شَغَلَتْ نِصْفَ الصُّنْدُوق فَقطْ. وعندما تَدْخُلُ الْفَتَاةُ الثَّانِيةُ تكونُ قَدْ شَغلَتْ نِصْفَ الصُّندوقِ الْبَاقِي فَقط، وتَضُمُّ أعْضَاءَهَا أيْضاً بِحَيْثُ يَبْقَىٰ فَراغٌ بَيْنَهُما، وهو الّذِي يَقُومُ الْمِنْشَارُ بِنَشرِهِ. وَقَبْلَ بَدْءِ الْعَمَل تكُون الْفَتَاةُ الأولَىٰ قد أخْرَجَتْ رَأسَها مِنَ الصُّنْدُوقِ وَعِنْدَ نُزُولِ الثَّانِيَةِ إلَيْهِ تُخرِجُ رِجْلَيْها مِنَ الطَّرفِ الثَّاني بِحَيْثُ يَرى النَّاظِرُ أَنَّ رَأْسَ الْفَتَاةِ مِنْ طَرفٍ، وَرِجْلَيْهَا مِنْ طَرَفٍ آخَرَ. ثُمَّ يَبْدأ السَّاحِرُ بِالنَّشْرِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ يَنْشُرُ في الْفَرَاغِ بَيْنَ الْفَتَاتَيْنِ، ثُمَّ يَفْتَحُ الصُّنْدُوقَ، وَإِذَا بِالْفَتَاةِ قَدْ ظَهَرتْ تَقْمُزُ هُنَا وَهُنَاكَ مُلَوِّحَةً فِي يَدَيْها والجمهورُ في تَصْفيقٍ حَادّ عَلَى وُقوعِ هٰذَا الأمْرِ الْعَجِيب. وإِذَا عُرِفَ السَّبَبُ بَطَلَ الْعَجَبُ. وبهٰذين المثالين تَسْتَطِيعُ أنْ تُقارِنَهُمَا بِمُعْجِزات الأنْبِيَاء لتَتأكَّدَ أَنَّها لَيْسَتْ مِنْ قبيلِ السِّحْرِ، بل هي أُمورٌ رَبَّانيَّةٌ خَارِقَةٌ لِقَوانينِ الطَّبيعَة، بِحَيْثُ يُبدِّلُ اللَّهُ طَبيعَةَ الأشْيَاءِ بالكَلِّيَّةِ كَقَلْبِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام حيَّةً حَقيقيَّةً تَتهدَّدُ فِرعونَ، وتَتَوعَّدُهُ إِذَا لم يُؤمِنْ، وَلِذَا كان أوَّلُ المؤمنينَ بِهِ هُمُ السَّحَرةُ أنْفُسُهُمْ لِعِلْمِهِمْ وَيَقينِهِمْ أنَّه أمْرٌ رَبَانِيٌّ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِمُعَارَضَتِهِ، فآمَنُوا بِمُوسَىٰ عليْهِ السَّلامُ غَيْرَ مُبالينَ بما يُصيبُهُمْ من الصَّلْبِ، أوْ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا، وَمَا أكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللَّهُ خَيْرٌ وأبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢] وسيأتي إن شاء اللَّهُ تعالى المزيدُ من بَيَانِ صِدْقِ مُعْجِزَاتِ نبيِّنا محمّدٍ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلم قَريباً جِدّاً، وباللَّه التَّوفيق على ما حباني به مِنْ هذا البيان.

أقسام المعجزة

إعلمْ أَنَّ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ تَرْجعُ إلى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ: مِنْهَا مَا وُجِدَ قَبْلَ وُجُودِهِ ﷺ * ومِنْها مُسْتَقْبَلٌ وُجِدَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ * وَمِنْهَا مُقَارِنٌ لَهُ مِنْ حِينَ حَمْلِهِ إلى أنْ نَقَلَهُ اللَّهُ إلَى مَحَلِّ فَضْلِهِ. فأمَّا الْقِسْمُ الْمَاضِي، وَهُو مَا كَانَ قَبْلَ وَجُودِهِ ﷺ فَكثيرةٌ جِدّاً كَقِصَّةِ الْفِيلِ، وتَبْشِيرِ الأنْبِيَاءِ، والْكُهَّانِ بِهِ ﷺ، وغيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ تأسِيسٌ لِنُبُوَّتِهِ ﷺ،

وإرْهَاصٌ لِرَسَالَتِهِ، وَهٰذَا الْقِسْمُ سَمَّاهُ بَعْضُهُم إرْهَاصاً. وَجوَّز بَعْضُهُمْ تَسْمِيَةُ ذٰلِكَ مُعْجزَةً * وَأمَّا الْقِسْمُ الثاني، وَهُوَ مَا وَقَعَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ فكثيرٌ جدّاً إذْ في كُلِّ حِينٍ يَقَعُ لِخَواصِّ أُمَّتِهِ مِنْ الكَرَامَاتِ، وخَوارِقِ الْعَادَاتِ بِسَبَبِهِ - أي بِبَرَكَةِ إيمانِهِم بِهِ ﷺ، وقُوَّةِ يَقِينِهِمْ بِرَبِّهِمْ - مَا لَا يُحْصَىٰ، فَكَرَاماتُ الأوْلِيَاءِ - مِنْ أهْلِ هٰذِهِ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ الْمَجيدَةِ - مِنْ تَتِمَّاتِ مُعْجزَاتِهِ ﷺ. وَرَحِمَ اللَّهُ الأبُوصِيري حيْثُ يقُولُ:

والكـرامـاتُ مِنْهُمْ مُـعْجِـزاتٌ .'. حَـازَهَـا مِنْ تَـوالِـكَ الأولِيـاءُ

وأمّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ مَا كَانَ مَعَهُ ﷺ مِنْ حِينَ وِلَادَتِهِ - الْمُبَارَكَةِ - إلى حِينَ وَفَاتِهِ، فَمَا وُجِدَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ يُسمَّىٰ أيْضاً إرْهَاصاً. وَذَلِكَ كالنُّورِ الَّذِي خَرَجَ مَعَهُ حَتّى أضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشّامِ، وَأَسْوَاقُهَا حتّى رأتْ أُمُّهُ قُصورَ بُصْرىٰ - روى ابنُ سَعْدٍ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ آمِنَةَ قَالتْ: «**لِمَّا فَصَلَ مِنِّي - تعني النَّبِيَّ ﷺ - خَرَجَ مَعَهُ نُورٌ أضَاءَ لَهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ**» وَغَيْر ذٰلِكَ مِمّا شُوهِدَ حَالَ وِلَادَتِهِ، وَفِي رِضَاعِهِ. وكَتظْلِيلِ الْغَمَامِ لَهُ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الْبِعْثَةِ وغَيْـرِهَا الكثيـرُ[1] كَخَمُودِ نَارِ فَارِسَ عِنْدَ مِيلَادِهِ ﷺ، وَكَانُوا يَعْبُدُونها، وكان لها ألفُ عَامٍ لَمْ تَخْمَدْ، وَسُقُوطِ أرْبَعَ عَشْرةَ مِنْ شُرُفَاتِ إيوَانِ كِسْرَىٰ، وَغَيْضِ مَاءِ بُحَيْرَة سَاوَةَ، وكَانَتْ مُتَّسِعَةً أكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ فَراسِخَ، يُرْكَبُ فيها السُّفُنُ، ويُسَافَـرُ فيهَا إلى مَـا حَوْلَهَـا مِنَ الْبِلَادِ والْمُـدُنِ، فَأَصْبَحَتْ لَيْلَةُ مَوْلِدِهِ ﷺ نَاشِفَةً كأنْ لَمْ يَكُنْ بِهَا شيءٌ مِنَ الْمَاءِ، وَرُؤْيا المُوبَذَانِ: قَاضِي الْمَجُـوسِ رَأى لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ ﷺ إبلاً صِعَاباً تَقُودُ خَيْلاً عِرَاباً، قَدْ قَطَعَتْ دَجْلَةَ، وَانْتَشَرَتْ فِي الْبِلَادِ، فقال لَهُ كِسْرَىٰ: أيُّ شيْءٍ يَكُونُ هٰذا؟ قال: حَدَثٌ يَكُونُ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ ذٰلِكَ مَا سُمِعَ مِنْ هَـوَاتِفِ الجِنِّ الصَّارِخَـةِ بِنُعُوتِـهِ، وانْتِكَاسِ الأصْنَامِ الْمَعْبُودَةِ، وخرُورِها لِوَجْهِهَا مِنْ غَيْرِ رَافِعٍ لَهَا مِنْ أمْكِنَتِهَا إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا رُوِيَ * ونُقِـلَ في الأخْبَارِ المَشْهـورَةِ مِن ظُهورِ الْعَجَـائِبِ، فِي وِلَادَتِهِ ﷺ، وأيّـامِ حَضَانَتِهِ، وَبَعْدَهَا إلَى أنْ بَعثَهُ اللَّهُ نَبِيّاً * وَمَنْ تأمَّلَ فِي جَمِيعِ مَآثِرِهِ، وَحميدِ سِيرَهِ، وبَراعَةِ عِلْمِهِ، وَرَجَاجَةِ عَقْلِهِ وَحِلْمِهِ، وَجميعِ خِصَالِهِ لَمْ يَشُكَّ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ﷺ. واعْلَمْ أنَّ تِلْكَ الصِّفَاتِ لا يُمْكِنُ أنْ يَتَّصِفَ بِهَا غَيرُ نَبِيّ، وَقَدْ كَانَ ﷺ سمتُ وَجْهِهِ

(١) انظر السيرة الدّحلانيّة جـ ٣ ص ١١٤ مع زيادة في التعبير لحسن البيان، وهو ما بين قوسين غالباً.

الشّريفِ، يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، فَقَدْ أخرجَ التِّرمذيُّ عن عَبْدِ اللَّهِ بن سَلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، جِئْتُهُ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذّاب، فَصَدَّقَهُ وَآمَنَ بِهِ، وَقَالَ لِلْيَهُودِ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ! اتَّقُوا اللَّهَ، واقْبَلُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ، فَواللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي تَجِدُونَهُ عِنْدَكُمْ مَكْتُوباً في التَّوْرَاةِ، اسْمُهُ وصِفَتُهُ، وَإِنِّي أُومِنُ بِهِ، وَأُصَدِّقُهُ» وَعَنْ أبي زمنة التّميمي رضي اللَّهُ عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قُلتُ: هٰذَا نَبِيُّ اللَّهِ» أي لِمَا شَاهَدَهُ مِنْ عَظْمَتِهِ، ونُور نُبوَّتِهِ، فَأَوْقَعَ اللَّهُ في قَلْبِهِ عِلْماً ضَرُورِيّاً بِصِدْقِهِ ﷺ. وروى مسلم أنْ ضِمادَ بنَ ثَعْلَبَةَ الأَزْدِي كانَ صَدِيقاً للنَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبِعْثَة، وَكَانَ يَغِيبُ في قَوْمِهِ، ثُمَّ يَقْدُمُ وَافِداً إلى مَكَّةَ، تَقَدَّمَ مرَّةً فِي أَوَّلِ مَبْعَثِهِ ﷺ، وسَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ فيهِ مَا قَالُوا. أي مِنْ نِسْبَتِهِ للسِّحْرِ، أو الكَهَانَةِ، أو الجُنونِ، وكانَ ضِمادُ عَاقِلاً يُطَبِّبُ ويُرْقِي في الْجَاهِلِيَةِ، فَلَمَّا سَمِعَهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ جَاءَهُ، وَقَالَ: إنِّي رَاقٍ؛ فَهَلْ بِكَ مِنْ شَيْءٍ فَأُرْقِيكَ؟! فأجَابَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: إنّ الْحَمْدَ لِلّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ ضِمادُ: أَعِدْ عليَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاءِ، فَلَقَدْ بَلَغْتَ قَامُوسَ الْبَحْرِ ـ أي وَسَطَهُ أو لُجَّتَهُ ـ ثُمَّ قَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعكَ، فآمَنَ بِهِ، وصَدَّقه، وَأَسْلَمَ، وَانْقَادَ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ، واكْتَفَى بِهٰذِهِ الْكَلِماتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ ﷺ، الْبَالِغَة مِنْ الْفَصَاحَةِ والْبَلاغَةِ غَايَتَها مَعَ مَا شَهِدَهُ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ الشَّرِيفِ، وَحُسْنِ بَهْجَتِهِ * وقال بَعْضُهم في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ هٰذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِنَبِّيهِ ﷺ يقولُ: يَكَادُ مَنْظَرُهُ يدلُّ على نُبُوَّتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْرأ قُرآناً، أي وإنْ لَمْ يُظهِرْ مُعْجِزَةً كما قال ابنُ رواحة رضي اللَّهُ عنه:

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آياتٌ مبيِّنةٌ ∴ لَكَانَ منظرُهُ يُنْبِيكَ بالخبَرِ[1]

---

(١) السيرة الدُّحلانية جـ٣ ص ٩٣ ـ ٩٤ ط الأهلية للنشر والتوزيع.

بيانُ بَعْضِ مُعْجِزَاتِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

مُعْجِزَةُ شَقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ وَاسْتِخْرَاجِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِهِ

أخرج البيهقيُّ في دَلَائِل النُّبُوَّةِ(١) عن أنس بن مالك: «أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، ذاتَ يَوْمٍ، وهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، ثُمَّ شَقَّ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هٰذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ - أي جَمَعَهُ؛ وَضَمَّ بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ - وَأَعَادَهُ في مَكَانِهِ، وَجَعَلَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهِ - مُرْضِعَتَهُ، فقَالُوا: إنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ، فَجَاؤوا، وهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. فقال أَنَسُ: فَلَقَدْ كُنْتُ أرَى أَثَرَ الْمخيط - هي الإبْرَةُ - في صَدْرِهِ»(٢) وهو نَصُّ مُسْلِمٍ في صحيحه. وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ في صحيحه أيضاً بَعْدَهُ عَنْ أَنَسٍ في باب الإسْرَاءِ وفرضِ الصَّلَوَاتِ. عن أنس بن مالك قال: «كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فُرِجَ سَقْفُ بَيْتي، وأنا بِمكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتلِىءٍ حِكْمَةً وَإيمَاناً، فَأَفْرَغَهَا في صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إلى السَّماءِ. . . .» الحديث. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال الصَّالحيُّ في السّيرَة الشَّاميّة(٣): وقد تكرَّرَ شقّ صَدْرِه الشَّريف ﷺ أرْبَعَ مَرَّاتٍ (الأولى) وهو ﷺ صَغيرٌ في بَني سَعْدٍ، - وهي

---

(١) جـ٢ ص ٥. طبع دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

(٢) وأخرجه مسلم في الصحيح عن شيبان عن حماد به في ١ - كتاب الأيمان (٧٤) باب الإسراء برسول الله ص ١٤٧ وأحمد في المسند (٣: ١٤٩).

(٣) جـ٢ ص ٨٢ - ٢٦.

الأولى - (الثانية) وهو ﷺ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ (الثالثة) عِنْدَ الْمَبْعَثِ * رَوى أبو داود الطيالسيُّ، والحارثُ بنُ أبي أُسَامةَ في مسنديهما، وأبو نُعيم في الدَّلائل عن عائشة رضي اللَّه عنها « أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ نَذَرَ أنْ يَعْتَكِفَ شَهْراً هُوَ وَخَدِيجَةُ، فَوافَقَ ذٰلِكَ شَهْرَ رَمَضَانَ، فخرجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فسَمِعَ: السَّلامُ عَلَيْكَ. قال: فَظَنَنْتُ أنَّهَا فُجَاءَةُ الْجِنِّ، فَجِئْتُ مُسْرِعاً حَتَّىٰ دَخَلْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، قَالَتْ: مَا شَأْنُكَ؟ فأخْبَرْتُهَا. فقَالَتْ: أبْشِرْ فإنَّ السَّلاَمَ خيْرٌ، ثُمَّ خَرَجْتُ مرَّةً أُخْرَىٰ، فإذا أنَا بِجِبْريلَ عَلَىٰ الشَّمْسِ لَهُ جَنَاحٌ بالْمَشْرِقِ، وجنَاحٌ بالْمَغْرِبِ، فهُلْتُ منْهُ، فَجِئْتُ مُسْرِعاً، فإذا هُو بَيْني، وَبَيْنَ الْبَاب، فَكَلَّمَنِي حتَّى أَنِسْتُ مِنْهُ، ثم وَعَدَنِي مَوْعِداً، فَجِئْتُ لَهُ، فَأَبْطَأَ عَلَيَّ، فَأَرَدْتُ أنْ أَرْجِعَ، فإذا أَنَا بِهِ، وبميكَائيل قدْ سدَّ الأُفُقَ، فَهَبِطَ جِبْرِيلُ، وَبَقِيَ ميكَائيلُ بيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَأَخَذَني جبْريلُ فأَلْقَانِي، ثُمَّ شَقَّ عَنْ قَلْبِي، فاسْتَخْرَجَهُ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَسْتَخْرِجَ، ثم غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أَعَادَهُ مكَانَهُ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَكْفَانِي كَمَا يُكْفأُ الإِنَاءُ، ثُمَّ خَتَمَ في ظَهْرِي حَتَّىٰ وجَدْتُ مسَّ الْخَاتَم في قَلْبي »(الرابعة) ليلةُ الإسْرَاء. كما في روايةِ مسلم. وذكر صَاحبُ سبل الهُدى[1] أحاديث فيها شَقُّ صَدْرِهِ ﷺ مِنْ غيْرِ تعيين زَمَانٍ * * *

وفي البخاري في باب المعراج[2] عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ رضي اللَّهُ عنهُ **«أنَّ النَّبيَّ ﷺ حدَّثَهُ عنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ قال: بيْنَمَا أَنَا في الْحَطيمِ - وربَّما قال في الحِجْرِ - مُضطَّجعاً، إذْ أتَانِي آتٍ فقَدَّ - قال: وسَمِعْتُهُ يقُولُ: فَشَقَّ - ما بَيْنَ هٰذِهِ إلَىٰ هٰذِهِ. فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ، وَهُوَ إلى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قال: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إلَىٰ شِعْرَتِهِ - وسَمِعْتُهُ يَقُولُ مِنْ قَصِّهِ إلَىٰ شِعْرَتِهِ - فاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمّ أُتيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إيمَاناً، فَغَسَلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُوتيتُ بدابَّةٍ...»** الحديث، ومرادي بذكر هذِه الأحاديثِ إثْبَاتُ وُقوع شقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيف سَوَاءٌ كانَ مَرّة، أو أكْثَرَ، والّذي نُرِيدُ أنْ نُبَرْهِنَ عليْه في هذه الْمُعْجِزَة، أنّه حَدَثٌ عجيبٌ غريبٌ لم يَقَعْ على الصَّحيحِ لِأحَدٍ ممَّنْ سَبَقَهُ مِنَ الأنْبياءِ الكرام صَلَواتُ اللَّهُ وسلامُه عليهم أجمعينَ، وَبِقَدْرِ عَلْمِنَا بِوَقَائعِ هذه المُعْجِزَةِ، يكونُ

(١) جـ٢ ص ٨٦.

(٢) فتح الباري جـ٧ ص ٢٠١ نشر دار المعرفة بيروت - لبنان.

إيمانُنا بها أقْوَى وأكْبَرُ. لَقَدْ أَدْلَى أنس بنُ مَالِك رضي اللَّه عنه، بِشَهَادَةٍ عُظْمَىٰ، هذه الشَّهَادَةُ تبقى مَدَىٰ الدَّهْرِ نَاصِعَةً كالشَّمْسِ في رَابِعَةِ النَّهَارِ، وَهُوَ أنّه رَأى أثَرَ الْمَخيطِ في صَدْرِهِ الشَّريفِ ﷺ. والمِخْيَطِ بكسر الميم، وإسكان الخاء، وفتح الياء. وهي الإبرةُ الصَّغيرةُ، أوالمخاط، وهو الإبرةُ الكبيرةُ التي خيط بها صَدْرَهُ الشَّريفُ، وإخراجُ الْقَلْبِ مِنْهُ، وَغَسْلُهُ بِماءِ زَمْزَمَ في طَسْتٍ مِنَ ذَهب أمْرٌ قَدْ بَلَغَ غايَةَ الإعْجَازِ في هٰذَا الْحَديثِ الْعَظيم، إنَّ هٰذِهِ الْعَمَلِيَّةَ الملائكيَّة قامَ بها أكْثَرُ من مَلَكٍ بدليلِ رُوايةِ أنس عند مسلم أيضاً: عن أنس بن مالك قال: قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «**أُتِيتُ فانْطَلَقُوا بِي إلى زَمْزَمَ، فَشُرِحَ عن صَدْرِي، ثُمَّ غُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمِ ثُمَّ أُنْزِلْتُ**» أي صُرِفْتُ إلى مَوْضِعِي الّذي حُمِلْتُ منْهُ، والأمْرُ الأعظمُ والأهَمُّ والجديرُ في الموضُوعِ الْقَلْبُ. كيف اسْتُخْرِجَ منْ مَكانه، وشُقَّ نِصْفَيْنِ، وأُخْرِجَ منْهُ عَلَقَةً الَّتي هي حظُّ الشَّيْطَانِ مِنْ بني آدَمَ، وَهِيَ الّتي يَضَعُ الشَّيْطَانُ خُرْطُومَهُ فِيهَا وَيُوَسْوِسُ لِلإنْسَانِ بالشَّرِّ، ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ * الَّذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وفي الحديث «**إنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ ـ خُرْطُومَهُ ـ عَلَىٰ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإذا سَكَتَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ**» قال قتادة: الخنّاسُ لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ الكلب * وقيل: كخرطُومِ الْخَنْزير في صَدْرِ الإنْسَان، فإذا ذكر العبدُ رَبَّهُ خَنَسَ، ويُقَالَ رَأْسَهُ كَرَأسِ الْحَيَّةِ، واضعٌ رَأْسَهُ عَلَىٰ ثَمرةِ الْقَلْبِ يَمَسُّهُ، ويُحَدِّثُهُ، فإذَا ذكر اللَّهَ خَنَسَ ورجع، وَوَضَعَ رأسَهُ فَذَلِكَ قوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ﴾ أي يُلْقِي الْمَعَاني الضَّارَّةِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخَفَاءِ والتكرير في صُدُورِ المضْطَربينَ مِنَ النَّاسِ إذا غَفَلُوا عنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ. فَيْحَدِّثُهُمْ بالشُّرُورِ وَالآثَامِ، والمُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ * * *

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ سِرَّ الْحِكْمَةِ في شَقِّ صَدْرِهِ الشَّريفِ، وإخْرَاج الْقَلْبِ مِنْهُ، وَشَقِّهِ أيضاً، وإخراج حظِّ الشيطان مِنْهُ حتّى لا يَكُونُ لِلَّعِينِ الشَّيْطَانِ الرَّجيمِ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَىٰ قلبه ﷺ، وَإلاَّ لَوْ كَانَ لَهُ تَسَلُّطٌ على قَلْبِهِ الشَّريفِ لاخْتَلَطَتْ وَسْوَسَتُهُ بالْوَحْي الإلٰهِيِّ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ ﷺ التّمييزَ بَيْنَهُمَا لِذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الإلَهِيَّةِ إجْراءُ هٰذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْمَلاَئِكِيَّةِ، وَإلْقَاءِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِهِ الشَّريفِ، وَإمْلاَئِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالإيمَانِ مِنْ ذٰلِكَ الطَّسْتِ الَّذي جِيءَ بِهِ خِصِّيصاً لِهٰذا الغَرَضِ، لَكَأَنَّ الإيمانَ

والحِكْمَةَ كَانا مُجَسَّمَيْنِ بِهِ تَجْسِيماً نُورَانيّاً يَليقُ بهما يُطْلَقُ علَيْه إيمَانٌ وحِكْمَةٌ، وهذا ما أَرْجُو صِحَّتَه إن شاء اللَّهُ تعالى، لأَنَّهُ لم يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّرَّاح *

والسُّؤَالُ هُنَا: لعلَّ قَائِلاً يَقُولُ تَكَادُ الْعُقُول لا تُصَدِّقُ بِإخْراجِ الْقَلْبِ مِنَ الْجِسْمِ وَيَبْقَى حَيّاً، لا بُدَّ للشَّخْصِ الْمُسْتَخْرَج قَلْبُهُ وشقُّهُ مِنَ الْمَوْتِ، فكَيْفَ يَكُونُ تَفْسِيرُهُ هُنا؟؟ والجوابُ: لَوْ كَانَ هٰذا السُّؤَالُ مُوَجَّهٌ قبْلَ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ لَكَانَتِ الإجَابَةُ عليْه عَقْلاً صَعْبَةُ الْمَنَالِ إنْ لَمْ تَبْلُغْ دَرَجَةَ الإسْتِحَالَةِ، وَتَعْلَمْ أيُّهَا السَّائِلُ عَنْ هٰذَا الْحَدَثِ العظيم مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَر قَرْناً، قد تَوَصَّلَ الْعِلْمُ الحديثُ في هٰذَا الْعَصْرِ إلى إبْقَاءِ الشخص حيّاً بدُونِ قَلْب إلى عِدَّةِ أَيَّامٍ باسْتِخْدَامِ وَسَائِلَ تَقُومُ بِضَخِّ الدَّم إلَىٰ جَميعِ أَنْحَاءِ الْجِسْمِ، رِيْثَمَا يَتِمُّ غرسُ قَلْبٍ جديدٍ لَهُ، أَوْ إجْرَاءُ عَمَلِيَّةٍ جِراحِيَّة لإِصْلاحِ الْخَلَلِ الْوَاقِعَ فيهِ، وَبِهَا يتِمُّ الشِّفَاءُ إذَا شَاءَ اللَّهُ تعَالى. وَهَذا أَمْرٌ واقِعٌ ولا رَيْبَ فيه، وإِذَا كَانَتْ مِثْلُ هٰذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ الْقَلْبِيَّةِ تُجْرىٰ فَوْقَ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ هُنَا وَهُنَاكَ، وَنُصَدِّقُ بِهَا، وإِذَا أنكَرْنَاهَا لَوُصِفْنَا بالْجُمُودِ وَبِالْجُنُونِ لأَنَّهُ قَامَ إجْمَاعُ النَّاسِ على وُقوعها، وصِدْقِ حَدَثِهَا. وعَلَيْهِ فَيَكُونُ مِنَ الْواجِبِ عَلى الانْسانِيَّةِ جَمْعَاءَ أن تُؤْمِنَ أيضاً بإجْراء عَمَلِيَّةٍ ملائِكِيَّةٍ، أَوْ قُلْ رُوحانيَّة صِرْفَةٍ لسيِّد الْعَالَمِيْنَ، وإمَامِ الْمُرْسَلينَ، وخَاتَمِ النَّبيينَ، الرَّحْمةِ الْمُهْدَاةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ أجْمَعينَ: سيِّدنا ومَوْلانا وَحبيبنَا وَقُرَّةِ أعْيُنِنَا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فإنَّ مَا وَصَلَنا عَنْهُ مِنْ هٰذَا الْخَبَرِ الصَّحيح قد بَلَغَ دَرَجَةَ الْيَقِينِ، وإنكارُه في شَرْعِنَا فِسْقٌ والعياذُ باللّه، يُخْشَىٰ عليْه مِنْ سَلْبِ الإيمَانِ لأَنَّهُ شَكٌّ في الرِّسَالَةِ، والسُّنَّةِ الْمُطَهَّرةِ، ومن هٰذِهِ الْمُعْجِزَةِ الْعَظيمةِ نُثْبِتُ أنَّ مِنْ بَيْنِ الملائِكَةِ مَنْ يَقُومُ بأعْمَالِ الطِّبِّ، والْجِراحَةِ حَتَّى لأَصْعَبِ الْعَمَليَّاتِ الأنْسَانِيَّةِ. وإنِّي لأسْتَطيعُ الْقَوْلَ، وإنِّي لَجَازِمٌ بِهِ مِنْ أنَّهُ يُوجد دَاخِلَ كُلِّ قَلْبٍ إنْسَانِيٍّ ذكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ عَلَقَةٌ سَوْدَاءُ، أَوْ بَيْضَاءُ هِيَ حظُّ الشَّيْطَانِ مِنَ الإنْسَانِ، وعلى الأَطِبَّاءِ الْمُسْلِمينَ أَنْ يُثْبِتُوا ذٰلِكَ فَهِيَ مَوْجُودَةٌ لا مَحَالَة. وباللّه التّوفيق * * *

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح:(١) وثبت شقُّ الصَّدْرِ أيضاً عِنْدَ الْبِعْثَة كما أَخْرَجَهُ أبو نعيم في الدّلائل. وَلِكُلٍّ مِنْهَا حِكْمَةٌ، فالأوَّلُ وَقَعَ فِيهِ مِنَ الزِّيادَةِ كما عِنْدَ

---

(١) جـ٧ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ نشر دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

مُسْلم مِنْ حَدِيثِ أَنَس «**فأخرج عَلَقَةً، فقال: هٰذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ**» وكانَ هٰذَا في زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ، فَنَشَأَ على أكْمَلِ الأَحْوَالِ من الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ الْبَعْثِ زِيَادَةً في إكْرَامِهِ ليتلقَّى ما يُوحَىٰ إليْهِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ في أَكْمَلِ الأَحْوَالِ من التَّطهيرِ، ثِمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ إرَادَةِ الْعُرُوجِ إلى السَّمَاءِ لِيَتَأَهَّبَ لِلْمُنَاجَاةِ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ الحِكْمَةُ في هٰذَا الْغَسْلِ لِتَقَعَ الْمُبَالَغَةُ في الإِسْبَاغِ بِحُصُولِ المرّةِ الثَّالِثَةِ كما تَقَرَّرَ في شَرْعِهِ ﷺ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ الحِكْمَةُ في انْفِرَاجِ سَقْفِ بَيْتِهِ الإشَارَةُ إلَى ماسَيَقَعُ مِنْ شَقِّ صَدْرِهِ، وأَنَّهُ سَيَلْتَئِمُ بِغَيْرِ مُعَالَجَةٍ يَتَضَرَّرُ بِهَا. وَجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصَّدْرِ، واسْتِخْرَاجِ الْقَلْبِ وغيْرَ ذٰلِكَ مِنَ الأُمُورِ الْخَارِقَةِ للعادة، مِمَّا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ دُونَ التَّعَرُّضِ لِصَرْفِهِ عَنْ حَقيقَتِهِ لِصَلاحيَّةِ الْقُدْرَةِ، فَلاَ يَسْتَحيلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. اهـ. كلام الحافظ.

مُعْجِزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ
والتّنويهِ به ﷺ وبأمته بالكتب السَّابقة

قال اللَّهُ تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ * وإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢] وأَخْرَجَ البُخَارِيُّ ـ في باب انشقاق القمر[١] ـ عن أنس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أنْ يُرِيهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّىٰ رأوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا**» وفي الحديث الثاني من الباب[٢] أخرج عن عَبْدِاللَّهِ رَضي اللَّهُ عَنْهُ قال: «**انْشَقَّ الْقَمَرُ، وَنَحْنُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ بِمَنىً فقَالَ: اشْهَدُوا، وَذَهَبَتْ، فِرْقَةٌ نَحْوَ الْجَبَلِ**» وقال أَبُو الضُّحَىٰ عن مَسْرُوقٍ عن عَبداللَّهِ «انْشَقَّ بِمَكَّةَ» وفي الثالث من الباب[٣] عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إنَّ الْقَمَرَ انْشَقَّ عَلَىٰ زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**». **

وأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِاللَّه[٤] بلفظ «**انْشَقَّ الْقَمَرُ على عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَقَّتَيْنِ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: اشْهَدُوا**» وفي الحديث بَعْدَهُ عن عبْداللَّهِ بن مسعود قال: «**بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بمَنىً إذَا انْفَلَقَ الْقَمَرُ فِلْقَتين، فَكَانَتْ فِلْقَةٌ وَرَاءَ الْجَبَلِ، وَفِلْقَةٌ دُونَهُ، فقال لَنا رسُولُ اللَّه ﷺ: اشْهَدُوا**» وفي الحديث الثالث من الباب عن عبداللَّه بن مسعود قال: «**انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِلْقَتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فِلْقَةً، وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اشْهَدُوا**»

---

(١) رقم الحديث في الفتح الرباني جـ٧ ص ١٨٢ ـ (٣٨٦٨)
(٢) رقم (٣٨٦٩).
(٣) رقم (٣٨٧٠).
(٤) باب انشقاق القمر المجلد السادس: شرح النووي جـ١٧ ص ١٤٣.

وأخرج عن أنس ـ في الباب ـ(١): «أنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رسُولَ اللَّهِ ﷺ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مرَّتينِ» وتخريج الحديث على النحو التالي(٢).

قلتُ: بَعْدَ ذكر هذه الأحاديثِ الصَّحيحةِ، وَذِكْرِ القُرآنِ المجيدِ لِهٰذِهِ المُعْجِزَةِ الْخَارِقَةِ لِقوانينِ سُنَّةِ اللَّهِ في مَخْلُوقَاتِهِ، التي لا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، عَلِمْنَا عِلْماً يقيناً أنَّ هٰذَا الْحَدَثَ وَقَعَ تَصْدِيقاً لنبيِّنَا المُصْطَفىٰ ﷺ في دَعْوَاهُ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَإلاَّ لَكَانَ هٰذَا الْحَدَثُ مِنَ المُحَالاتِ الْعَقْلِيَّةِ، لأَنَّهُ لَا تَسَلُّطَ للإنْسَانِ مَهمَا عَلا شَأْنَهُ عَلَىٰ خَرْقِ الْقَوَانينِ الَّتي وَضَعَهَا اللَّهُ في مَخْلُوقَاتِهِ، دلالَةً عَلَىٰ وُجُودِهِ، وعلى الأَخصِّ إذَا كانَ ذٰلِكَ التَّسَلُّطُ عَلَىٰ مَا لَمْ تَنَلْهُ يَدُ الإنْسَانِ، وأَيُّ تَسَلُّطٍ للإِنْسَانِ على الْقَمَرِ الَّذي جَعَلَهُ اللَّهُ نُوراً في السَّماءِ، وَعَلامَةً على مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالأيَّام. ولكنْ لمَّا وَقَعَ هَذا الأَمْرُ العجيبُ مِنْ إنْسَانٍ يَقُولُ إنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إليكم وآيةُ صِدْقِي أنْ أُبَرْهِنَ لكُم فيمَا تَطْلُبونَ مِنَ خَرْقِ قَوانينِ هٰذَا الْعَالَمِ، وَلِذَا فَقَدْ أَجْمعَ المُشْرِكُونَ أَمْرَهُمْ في لَيْلَةٍ مقْمِرَةٍ عَلَىٰ أَنْ يَفْلُقَ لَهُمُ الْقَمَرَ فِلْقَتَيْنِ ليكُونَ دَليلاً عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وأنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدَ رَبِّهِ، لَقَدْ تَوَجَّهَ المُصطفى ﷺ إلى السَّماءِ رَاجياً تحقيق هَذا الأَمْر كَمَا طَلَبُوا، وَبِلَمْحِ الْبَصَرِ يَأْتِي أَمْرُ السَّماءِ. أَنْ أَشِرْ إليْه فَسَيَحْدُثُ هَذَا الأَمْرُ الْعَجِيبُ الْغَرِيبُ الْمَعْجِزُ الَّذي لا قُدرة لَلْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعاً عَلَىٰ وُقُوعِهِ. وَمَا أَنْ أَشَارَ إليْه نَبِيِّنَا ﷺ إلاَّ وَقَدْ انفَلَقَ الْقَمَرُ فلقتَيْنِ كَما جاءَ به الْخَبَرِ المقْطُوعُ كمَا سَمِعْتَ، نَعَمْ لكأَنَّهُ كَانَ بيْن الْقَمَرِ والنَّبيِّ مُحمد ﷺ هٰذا الْمَوعِدُ، وهذا الْحَدَثُ مِنْذُ كَانَ طِفْلاً ﷺ يُنَاجِي الْقَمَرَ، ويُشِيرُ إليْهِ، وَيَبْتَسِمُ، وبه عَلِمْنَا سرَّ تِلْكَ الْمَنَاجَاةِ، وَصِحَّةِ وُقُوع هذا الْحدث الْيقينيّ الّذي لا تَخْتَلِفُ الْعُقُولُ السَّليمةُ فيه بعد مَا قَامَ الدَّليلُ، وتواتَرَ النَّقْلُ لِرُؤْيَةِ

---

(١) رقم الحديث (٢٨٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في: ٦١ ـ كتاب المناقب (٢٧) باب سؤال المشركين أن يُريهم النبيُّ آية فأراهم انشقاق القمر حديث(٣٦٢٧) فتح الباري (٦: ٦٣١) وأعاده ٦٣ ـ كتاب المناقب (٣٦) حديث (٣٨٦٨) فتح الباري (٧: ١٨٣) وأعاده في تفسير وانشق القمر (٨: ٦١٧) فتح الباري. وأخرجه مسلم: في ٥٠ ـ كتاب المنافقين (٨) باب انشقاق القمر حديث (٤٣، ٤٧، ٤٨) عن ابن مسعود وأنس وعن ابن عباس (٤: ٢١٥٨، ٢١٥٩) وأحمد في مسنده (١: ٣٧٧، ٤١٣، ٤٤٧) و(٣: ٣٧٥، ٢٧٨)، و(٤: ٨٢) وفي الدلائل للبيهقي جـ٢ص ٢٦٢ باب سؤال المشركين رسول الله بمكة أن يريهم آية...

انْفِلاقـهفِي الْبَرِّ والْبَحْرِ، بَلْ وَفِي السَّمواتِ، وفي الأَرْضِ. قال القـاضي: انْشِقَاقُ القمرِ مِنْ أُمَّهاتِ مُعْجِزَاتِ نبيِّنا ﷺ. وَقَدْ رَوَاهَا عِدَّةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ ظَاهِـرِ الآيةِ الكـريمة، وَسَيَـاقِهَا * قـال الزَّجَـاجُ: وقد أنْكَـرَهَا بَعْضُ الْمُبْتَـدِعَةِ الْمُضَاهِينِ. الْمُخَالِفِي المِلَّةَ. وذلك لِمَا أَعْمَىٰ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَلَا إِنْكَارَ لِلْعَقْلِ فِيهَا لأَنَّ الْقَمَرَ مَخْلُوقٌ للَّهِ تَعَالَىٰ يَفْعَلُ فيهِ مَا يَشَاءُ كَمَا يُفْنِيهِ ويكوِّرُهُ في آخِرِ أَمْرِهِ، وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ الملاحِدَةِ: لَوْ وَقَعَ هَذا لَنُقِلَ مُتواتراً، واشْتَرَكَ أَهْلُ الأَرْضِ كُلِّهِمْ في مَعْرِفَتِهِ، ولم يختصّ بِهَا أَهْلُ مكَّةَ. فَأَجَابَ الْعُلَمَاءُ: بأَنَّ هٰذا الانْشِقَاقُ حَصَلَ في اللَّيْـلِ، ومُعْظَمُ النَّاسِ نِيَامٌ غَافِلُونَ، والأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ، وَهُمْ مُتَغَطُّونَ بِثِيَابِهِمْ، فَقَلَّ مَنْ يَتَفَكَّرُ فِي السَّمَاءِ، أَوْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا الشَّاذُّ النّادرُ، وَمِمَّا هُوَ مُشَاهَدٌ مُعْتَادٌ أَنَّ كُسُوفَ الْقَمَرِ وَغَيْرَهُ مِنَ الْعَجَائِبِ، وَالأَنْوَارَ الطَّوَالِعَ، والشُّهُبِ العِظَامَ، وغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَا يَحْدُثُ في السَّمَاءِ في اللَّيْلِ يَقَعُ ولا يَتَحَدَّثُ بَهَا إِلَّا الآحَادُ، ولا عِلْمَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ لِمَا ذكرنَاهُ، وكانَ هٰذَا الانْشِقَاقُ آيَةً حَصَلَتْ في اللَّيْلِ لِقَوْمٍ سَأَلُوهَا، وَاقْتَرَحُوا رُؤيَتَهَا، فَلَمْ يَتَنَبَّهْ غَيْرُهُمْ لَهَا قَالُوا: وَقَدْ يكُونُ القمرُ كَانَ حِينَئِذٍ في بَعْضِ الْمَجَارِي، والْمَنَازِلِ الَّتي تَظْهَرُ لِبَعْضِ الآفَاقِ دُونَ بَعْضٍ، كَمَا يَكُون ظَاهِراً لِقَوْمٍ غَائِباً عَنْ قَوْمٍ كَمَا يَجِـدُ الكُسـوفَ أَهْـلُ بَلَدٍ دُونَ بَلَدٍ *[1] قُلْتُ: وذكـرَ ابنُ الْجَـوْزِيّ في الْـوَفَـا بِـأَحْـوَالِ الْمُصْطَفىٰ[2]: وعن عَبْدِاللَّه قال: «**انْشَقّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْـدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَـالَ قومٌ: هٰذَا سِحْرٌ سَحَرَكُمْ ابنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَاسْأَلُوا الَّذينَ يَقْدُمُونَ عليْكُمْ، فَإِنْ كَـانَ مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِلاَّ فَهُوَ سِحْرٌ، فَقَدِمَ السُّفَّارُ فَسَأَلُوهُمْ؛ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَدْ رَأَيْنَاهُ قَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ**» وذكر الحافظُ في الفتح بـأنّه أخْـرَجَهُ أبـو نعيمٍ في الدَّلائـلِ كذلك من طريق هشيم عَنْ أبي الضّحَىٰ «**انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْـدِ رسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقالتْ كُفّارُ قريْشٍ: هٰذَا سَحْرٌ سَحَرَكُمْ ابنُ أَبي كَبْشَةَ، فَانظروا إلى السُّفَّارِ، فإِنْ أَخْبَرُوكُم أَنَّهُمْ رَأَوْا مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَّقَ، قال: فَمَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إلَّا أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ**» لفظ هشيم، وَعند أبي عُوانة «**انْشَقَّ الْقَمَرُ بِمكَّةَ** ـ نحوه وفيه ـ **فَإِنَّ مُحمداً لا**

---

(١) كذا نقل هذا الكلام الإمامُ النووي في شرح الأحاديث جـ١٧ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) جـ١ ص ٢٧٣.

يَسْتَطِيعُ إنْ يَسْحَرَ النَاسَ كُلَّهُمْ»[1] وقال الحافظ في الفتح[2]: وقد أنْكَرَ جُمْهُورُ الْفَلاسِفَةِ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مُتَمَسِّكِينَ بأنَّ الآياتِ الْعُلْوِيَّةِ لا يَتَهَيَّأُ فيها الإنْخِراقُ والإلْتِئَامُ، وكذا قالوا: في فتح أَبْوَابِ السَّماءِ لَيْلَةَ الإسْرَاءِ إلىٰ غيْرِ ذَلِكَ مِنْ إنْكَارِ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَجوابُ هَؤُلاءِ: إنْ كَانُوا كفّاراً أَنْ يُنَاظِرُوا أوَّلاً عَلَىٰ ثُبُوتِ دينِ الإسْلامِ، ثُمَّ يُشْرِكُوا مَعَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أنكَرَ ذٰلِكَ مِنَ الْمُسْلِمينَ، وَمَتى سَلَّمَ الْمُسْلِمُ بَعْضَ ذٰلِكَ دُونَ بَعْضٍ أُلْزِمَ التَّنَاقُضَ، ولا سَبيلَ إلى إنكارِ ما ثَبَتَ في الْقُرآنِ مَنِ الإنخراقِ والإلْتِئامِ في الْقِيامَةِ، فَيَسْتَلْزِمُ جَوَازَ وُقوعِ ذٰلِكَ مُعْجِزَةً لِنَبِيِّنَا ﷺ. اهـ. قُلْتُ: وفي قوله تعالى: ﴿وانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال الحليمي: فإنْ كَانَ كَذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ في عَصْرِنَا، فَشَاهَدْتُ الْهِلالَ بِبُخَارىٰ في اللَّيْلَةِ الثالثة مُنْشَقّاً نصفَين عَرْضُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُما كَعَرْضِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ أوْ خَمْسٍ، ثُمَّ اتّصَلاَ فَصَارَ فِي شَكْلِ اتْرُجَّةٍ إلَى أَنْ غَابَ. قالَ: وأخْبَرَنِي بَعْضُ مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّهُ شَاهَدَ ذٰلِكَ في لَيْلَةٍ أُخْرَى»[3] اهـ. قلتُ: وهذا مِمّا نَردُّ به على الْفَلاسِفَةِ الْمُفْلِسين مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَمِنَ الْعِلْمِ الصَّحيح لاتِّبَاعِهِمْ الظَّنُونَ والأَوهَامَ ممّا يدّعُونَه أنّه عِلْمٌ، فَإنَّ تَجَاذُبَ النُّجُومِ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ، والتِحامُهَا في كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ بَلَغَ في هٰذَا الْعَصْرِ دَرَجَةَ الْيَقِينِ، بل إنَّ الْقَارَّاتِ الأَرْضِيَّةِ قَدْ كَانَتْ بَعيدَةً كُلَّ الْبُعْدِ بَعْضُهَا عنْ بَعْضٍ فَتَلْتَئِمُ وَتُشَكِّلُ قَارَاتٍ جَديدةً مُتَبَايِنَةً عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ كُلَّ التَّبَايُنِ، وَلَوْ كَانُوا فَلاسِفَةً حَقّاً لَعَلِمُوا بِكُلِّ هٰذا؛ لأنّ مِنْ شَأْنِ الْفَيْلَسُوفِ أنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْعُلُوم ظَاهِراً وبَاطِناً، هذا هُو الْفَيلَسُوفُ أمَّا كَوْنُهُ لَا يَعْلَمُ تَجَاذُبَ النّجوم والْقَارَّاتِ وَالْتِحَامِهَا والْتِئَامِهَا، فَهُوَ مِنْ جَهلَةِ الأطْفَالِ الّذينَ لا يَعْلَمُونَ شَيئاً، نَعَمْ قَدْ وَقَعَ الانْشِقَاقُ، وَشَاهَدَهُ الجمُّ الغفيرُ مِنَ المؤمنينَ، وَالْكَافِرينَ، وَرَوَىٰ حَديثَهُ جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الصَّحابةِ، وَرَوَىٰ ذَلِكَ عنْهُم أمْثَالُهُمْ مِنَ التَّابعينَ، ثُمَّ نَقَلَهُ عَنْهُمْ الجُمُّ الْغَفِيرُ إلَى أَنْ انْتَهىٰ إلَيْنَا مُتَواتِراً، وَيُؤَيِّدُ ذٰلِكَ بالآيَةِ الكَريمَةِ، فلم يَبْقَ لاسْتِبْعَادِ مَنِ اسْتَبْعَدَ وُقُوعَه عُذْرٌ، وَلاَ يَهُمُّنَا نحنُ الْمُسْلِمينَ مَا يَقُولُه الفلاسِفَةُ،

---

(١) فتح الباري جـ٧ ص ١٧٤.
(٢) جـ٧ ص ١٨٥.
(٣) نقله الحافظ في الفتح (جـ٧ ص ١٨٦).

والمُلْحِدُونَ، والْخُبَثَاءُ الْمُجْرِمُونَ عَنْ هٰذِهِ المُعجِزَةِ الْقَطْعِيَّةِ الْيَقينيَّـةِ، وَالَّتي تكفينا فَخْراً بِدينِنَا، وَنَبِيِّنَا الكَرِيم مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمين، وَإِذَا كانَ الركبانُ الضَّـاربينَ في شَرْقِ الأَرْضِ وَغَرْبِها، وَعَرْضِهَا وَطُـولِهَـا،وَغالبُهم مَن الكُفَّارِ وَالمُشـركين يُؤْكِدون رُؤْيَتَهُمْ لانْشِقَاقِ الْقَمَرِ في تِلكَ اللَّيْلَةِ، فَمَعْنَاهُ أَنَّ مَنْ يُخَالِفُهُم يكونُ مَن المُعانـدينَ؛ ومِنَ المُكَذِّبينَ بالدِّينِ، وآيَاتِ القُرآنِ الْعظيم، وَمَا هُمْ في الْحَقيقةِ إلَّا مِنْ إخْـوانِ الشيـاطينِالَّذينَ أَقْفَلَ اللَّهُ عُقُولَهُمْ، وَخَتَمَ عَلى قُلوبِهِم؛ وعَلَىٰ سَمْعهم وأَبْصَارِهِم؛ فمن يَهْـديهمْ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟؟! إنَّـهُ لَا هَادِيَ لَهُمْ، وَلَـوْ عَلِمَ فيهِمْ خَيْراً لَأسْمعهُمْ، وَلكِنْ تَـوَلَّوْا عَنْ سَمَـاعِ الحقِّ وَهُمْ يَجْمَحُونَ، كـأَنَّهُم حُمُـرٌ مُسْتَنْفِـرَةٌ، فـرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ؛ أَسَدٍ يُريد افْتِرَاسَهَا، فأَنَّىٰ يَسْمَعُونَ؟! وأَنَّىٰ يَعُوونَ؟!، وأَنَّىٰ بآيَـاتِ اللَّهِ، وبانْشِقَاقِ الْقَمَـرِ، وغيْرِهِ مِنَ الْمُعْجِـزَاتِ يُؤْمِنونَ؟! قَـاتَلَهُـمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ. قـال أَحْمَدُ بن زَيْني دُحْلانَ في السيرة[1] النَّبويَّة عند ذكره لمعجزات النَّبي ﷺ: وَمَا وُجِدَ بَعْـدَ الْبِعْثَةِ فكثيـرٌ جِدّاً. فَمِنْـهُ (انْشِقَاقُ الْقَمَـرِ) وقد نَـطَقَ القرآنُ بـه قال تعـالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ وَرَوىٰ أَحَادِيثَهُ أَهْلُ السُّنَنِ كالبُخَارِي ومُسْلم والإمامِ أَحْمَدَ والبيهقيِّ، وبقيَّةِ أَهْـلِ السُّنَنِ رَوَوْا ذٰلِكَ عن جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ: عليٌّ وابنُ مَسْعُود وابنُ عُمَرَ، وجُبيـرُ بنُ مُطْعَمٍ وأَنَسُ بنُ مَالِكٍ، وعَبْدُاللَّهِ بنُ عبَّـاسٍ وحذيْفَـةُ بنُ الْيَمَانِ وغيـرُهـم، وَرَوَاه عنهُمْ جَمْعٌ عَنْ جَمْعٍ حتَّى بَلَغَ مَبْلَغَ التَّواتُرِ. وَنَقَلَ قوْلَ الْعَلاَّمَةِ عَبْـدِ الْوَهَـابِ بنِ السُّبْكي: إنَّ انْشِقَـاقَ الْقَمَـرِ مُتَـواتِـرٌ، مَنْصُـوصٌ عليْـهِ في القُـرآنِ، مـرويٌّ في الصَّحيحيْن، وغيْـرهمـا مِنْ طُـرُقٍ، وَلَمْ يَنْشَقّ لِغَيْـرِ نَبِيِّنَـا ﷺ، وَهُـوَ مِنْ أُمَّهَـاتِ مُعْجِزاتِهِ ﷺ. قَالَ في الْمَواهِبِ: وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ، والمُفَسِّرُونَ على وُقوعِهِ لِأَجْلِه ﷺ. قال الخطابيُّ: انْشِقَاقُ الْقَمَرِ آيَةٌ عَظيمةٌ لا يَكَادُ يَعْدِلُهَا شَيْءٌ مِنْ آيَاتِ الأنْبِياء، وَلِذَا اخْتَصَّ بِهَا سيِّدُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَهَرَ في مَلَكُوتِ السَّمَوَات خَارِجاً عَنْ جُمْلَةِ طِبَاعِ مَا في هَذا الْعَالَمِ الْمُركَّب مِنَ الطَّبَائِعِ، فَلَيْسَ ممَّا يُطْمَعُ فِي الوُصُولِ إلَيْهِ بِحيلَةٍ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْبُرْهَانُ بِهِ أَظْهَرُ مِنْ غيْرِهِ * انتهى ما في الدّحْلانيّة * * *

---

(١)جـ٣ ص١١٥.

قلتُ: لَكَأنَّ اللَّهَ تعالى يَقُول لحبيبِهِ المُصْطَفىٰ سَلْ مَا تَشَاءُ ستُعْطىٰ، سَنَشُقُّ لَكَ الْقَمَرَ نِصْفَيْنِ دِلالَةً عَلَىٰ صِدْقِكَ بأنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، بل إنَّ اللَّه الَّذِي أرْسَلَكَ سَيُرِيكَ أعْظَمَ مِنْ هٰذَا، سَيُرِيكَ الآياتِ الكُبْرَىٰ سَيَفْتَحُ لَكَ أبْوَابَ السّمٰواتِ سَماءً بَعْدَ سَمٰاءٍ حتّى تَخْتَرِقَ السَّبْعَ الطِّباقَ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهىٰ، إلى وُقُوفك بيْنَ يَدَي اللَّهِ، وَيُسْمِعُكَ كَلامَهُ، وَتنالَ قُرْبَهُ وَنَوَالَهُ مِنْ عُلوِّ الشَّأنِ، وكرائِمِ الْفَضْلِ مَا لَمْ يَنَلْهُ أحدٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَا مَلكاً مُقرَّباً، وَلَا عَبْداً مُرْسَلاً، فقد جَعَلْتُكَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وخاتِماً لِلْمُرْسَلينَ، وشفعّتُكَ بالمُذْنِبينَ، وَنَوَّهْتُ بِنبُوَّتِكِ فِي كُتُبِ الأوّلينَ * فقد جَاءَ في الْعَهْدِ القديم في سِفْرِ (أشعياء) في الإصْحاحُ الحادي عشر: «وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلادِ الْعَرَبِ، في الْوَعْرِ، في بِلادِ الْعَرَبِ تَبيتُنَّ يَا قَوَافِلَ الدِّدَانيِّينَ، هَاتُوا مَاءً لِمُلاقَاةِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْض تيْمَاءَ، وَافُوا الْهارِبَ بِخُبْزِه، فَإنَّهُمْ مِنْ أمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، ومن أمَام شِدَّةِ الْحَرْبِ، وإنَّهُ هٰكَذا قالَ ليَ السيِّدُ في مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأجير، يَفْنَى كُلُّ مجْدٍ وبَقِيَّةِ عَدَدِ قُسيٍّ. أَبْطَالُ بَني قِيْدَارَ تَقُلُّ، لأنَّ الرَّبَّ إلٰهُ اسْرَائيلَ قدْ تَكَلَّمَ» ألم يكن الدّدانيُّون اسْمٌ قَديمٌ لِبَعْضِ الْقَبائِلِ العربيَّة؟ وَأَلَم يكُنْ قَيْدَارُ اسماً قديماً لِقُرَيْشٍ؟! ويدلّكَ عليه مخاطَبَتَهُ لِسُكَّانِ أرْضِ تيْماءِ إشَارَةً إلى أهْلِ الْمَدينَةِ، والْهَارِبُونَ: هُمُ المُهاجِرُونَ من مكَّة إلى الْمَدينَةِ؟! والنْصُ كُلُّه يُشيرُ إلىٰ نُزول الْوَحْي في أرْضِ الْعَرَبِ، واضْطِهَادِ الْمُؤْمِنينَ، وَهٰجْرَتِهِمْ إلى الْمَدينَةِ، وَوُقُوعِ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ بَعْدَ سَنَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَضَيَاعِ مَجْدِ الكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَقْتَلِ عَدَدٍ مِنْ أَبْطَالِهِمْ في الْمَعْرَكَةِ!!! إي وَرَبِّي إنَّهُ للحقُّ.

وَجَاءَ فِي الإنْجيلِ على لِسَانِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامِ «**يأتِي مِنْ بَعْدِي الْفَارَاقِليطُ**» وهذه كلمةٌ يُونَانيةٌ مَعْنَاهَا «**الْحَمْدُ**» أي أنها مُشتَقّةٌ مِنْ «**أَحْمَدَ**» وقد أبَوْا أن يُتَرجمُوها فِي النُّسْخَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وأبْقُوها هَكذا لكيْ تَظَلَّ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ لِلْقَارِىءِ، وَلكَيْلا يُعلمَ مَنْ هٰذَا الَّذِي سَيَأْتِي بَعْدَ الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَرَّ الزَّمَنُ، وَلَمْ يأتِ بَعْدَ الْمسيحِ إلاّ مُحَمَّدٌ ﷺ. نَعَمْ إنَّه هُوَ أَحْمَدُ الَّذِي نَطَقَ القرآنُ بِهِ فِي قوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بالبيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا

سِحْرٌ مُبينٌ﴾ [الصف: ٦] في الخازن في تفسير الآية(١): عن أبي مُوسَىٰ قال: «أمَرَ رسُولُ اللّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَأْتُوا النَّجاشِي» وذكر الحديث وفيه. قال: «سَمِعْتُ النَّجَاشِيَّ يقُول: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رسُولُ اللّهِ، وأنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَىٰ، وَلَوْلا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ. وَمَا تَحَمَّلْتُ مِنَ أَمْرِ النَّاسِ لأَتَيْتُهُ حتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ» أخرجه أبُو داود. وعن عبد اللّه بن سَلاَمٍ قال: «مكْتُوبٌ فِي التَّورَاةِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ يُدْفَنُ مَعَهُ» فقال أبو داود المدني: «قد بَقِيَ في البيْتِ مَوْضِعُ قَبْرٍ» وأَخْرَجَ الترمذي عن كعْبِ الأحْبَارِ: «أنَّ الْحَوارِيينَ قالُوا لِعِيسَىٰ ﷺ: يا رُوحَ اللّهِ، هَلْ بَعْدَنَا مِنْ أُمَّةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَأْتِي بَعْدَكُمْ أُمَّةٌ حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ اتْقِيَاءُ كَأَنَّهُمْ فِي الْفِقْهِ أَنْبِيَاءُ، يَرْضُونَ مِنَ اللّهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الرِّزْقِ، وَيَرْضَىٰ اللّهُ مِنْهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ» وفي الصَّحيحيْنِ عن جُبيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قال: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أنَا مُحَمّدٌ، وأَنَا أَحْمَدُ، وأنَا الْمَاحِي الّذِي يَمْحُو اللّهُ بِيَ الكُفْرَ، وأنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وأَنَا الْعَاقِبُ الّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ» وقَدْ سمَّاهُ اللّهُ تَعالى رَؤُوفاً رَحِيماً. اهـ (تنبيه) عُثر في دير سَانَتْ كَاتْرِينَ بسيناءَ على نُسْخَةٍ قَدِيمَةٍ مِنَ التّوراةِ جَاءَ فيها ذكرُ مُحمّد ﷺ، ثُمّ اختَفَتْ هٰذِهِ النُّسْخَةُ، وَلَمْ تَعُدْ مَرَّةً أُخْرىٰ لِلظُّهُورِ. هكذا درَّسْتُ الطلابَ هذه العبارة في المملكة العربيّة السعودية الصف الثّاني ثانوي، مادة التّربية الإسلاميَّة بحث تحريف الكُتُب السَّابِقَةِ، وهو صحيحٌ مَاة بالمائة وفي التوراة أيضاً في (التَّثْنِيَةِ) ممّا ذكَرَهُ ابنُ ظفر خِطاباً لموُسَىٰ. والمرادَ بِهِ الّذِينَ اخْتَارَهُم لِميقاتِ رَبِّهِ الّذِينَ أخذَتْهُم الرَّجْفَةُ خُصُوصاً، ثُمَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عُمُوماً: «وَاللّهُ رَبُّكَ يُقِيمُ نَبِيّاً مِنْ إِخوتِكَ، فَاسْتَمِعْ لَهُ كَالَّذِي سَمِعْتَ رَبَّكَ فِي حُوريتَ يَوْمَ الاجْتِمَاعِ حِينَ قُلْتَ لاَ أعُودُ أسْمَعُ صَوْتَ اللّهِ رَبِّي لِئَلّاَ أَمُوتَ، فَقَالَ اللّهُ تَعَالى: نِعْمَ مَا قَالُوا، وَسَأُقِيمُ لَهُمْ نَبِيّاً مِثْلَكَ مِنْ إِخْوَتِهِمْ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي في فَمِهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَمَرْتُهُ بِهِ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ لَمْ يُطِعْ مَنْ تكلّمَ بِاسْمِي فإنِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُ» قَالَ: وفي هٰذا الكلام أدلَّةٌ عَلَى نُبوَّة مُحمّد ﷺ. مِنْها قَوْلُه: نبيّاً مِنْ إِخْوَتِهِمْ. ومُوسَىٰ وقومُه مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، وإِخْوَتُهُمْ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، ولو كَانَ هٰذا النبيُّ الْمَوعُودُ بِهِ مِن بَنِي إِسْحَاقَ لكانَ مِنْ

(١) جـ٤ ص٢٦٢.

أنْفُسِهِمْ لاَمِنْ إخْوَتِهِمْ. وَمِنْها قَوْلُه: نبيّاً مِثْلَكَ، وقد قال في التَّوراة لا يقومُ في بَنِي إسْرَائِيل أحدٌ مِثْلَ مُوسَىٰ. وفي ترجمة أخرى: مِثْلَ مُوسَىٰ لاَ يَقُوم في بَنِي إسْرائِيلَ أَبَداً. أي من أنْفُسِهِمْ، وإلاّ لَنَا في قَوْل التَّوراة السَّابق. وسَأُقِيمُ لَهُمْ مِثْلَكَ، وَحِينَئِذٍ فالمرادُ بِـهِ مُحَمّد ﷺ لأنَّـهُ مِنْ بَنِي إسْمَاعِيـلَ إخْوَتُهم، لاَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَهُـوَ مثلُ مُوسَىٰ بَلْ أَجَلُّ لِعُمُومِ دَعْوتِهِ. وَقَدْ ذَهَبَتِ الْيَهُودُ إلَى أَنَّ هٰذَا النَّبِيَّ الْمَوْعُودَ بِهِ هُوَ يُوشَعُ بنُ نُونٍ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لأَنَّ يُوشَعَ لَمْ يَكُنْ كُفُؤاً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، بَلْ كَانَ خَادِماً لَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَمُؤكّداً لِدَعْوتِهِ بَعْدَ وفَاتِهِ، فَتَعيَّنَ أنْ يَكُونَ المُرادُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ فَإنَّه كُفْؤٌ لِمُوسَىٰ لأنَّه يُماثِلُهُ فِي نَصْبِ الدَّعْوَةِ، والتَّحدّي بالمُعْجَزة، وشرع الأحْكَامِ والْجِهَادِ، وإجْرَاءِ النسْخ عَلَى الشَّرَائِعِ السّالِفَةِ. ومنها قوله: وأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ. فَإنَّهُ وَاضِحٌ فِي أنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ لأنَّ مَعْنَاهُ: أوْحي إلَيْهِ بِكلاَمِي فَيَنْطِقَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا سَمِعَهُ، وَلاَ أُنزِلُ عَلَيْهِ صُحُفاً ولا أَلْـوَاحاً لأنَّـهُ أُمّيٌّ لا يُحْسِنُ أنْ يَقْرأَ المكتُوبَ. وَفِي الإنْجيلِ مِمَّا ذكَرَهُ ابنُ طغربك في الدُّر المنتظم. قال يُوحَنَّا في إنْجِيلِهِ عَنْ الْمَسيح. أنَّه قَال: «**أَنَا أَطْلُبُ لَكُمْ مِنَ الأبِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ فَارَقليطَ آخَرَ يَثْبتُ مَعَكُمْ إلى الأبد رُوحُ الحقّ الَّذِي لَنْ يُـطيقَ الْعَالَمُ أَنْ يَقْتُلُوهُ**» وَهُـوَ عند ابن ظفر: «**إنْ أَحْبَبْتُموني فَاحْفَظُوا وَصِيَّتِي وَأَنَـا أَطْلُبُ إلَى أَبِي فَيُعْطِيكُمْ فَـارَقليطَ آخرَ يكُونُ مَعَكُمُ الدَّهْرُ كُلَّهُ**» قال: فهذا تصريح بأنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُ إلَيْهِمْ مَنْ يَقُومُ مَقَامَـهُ وَيَنُوبُ عَنْهُ في تبليغ رِسَالَةِ رَبِّهِ، وَسِيَاسَةِ خَلْقِهِ مَنَابَهُ، وتكونُ شَرِيعَتُهُ بـاقيةً مُخَلَّدَةً مُخَلَّدَةً أَبَداً، فَهَلْ هٰذا إلاّ مُحَمَّدٌ ﷺ. اهـ[1] وَفِي زَبُورِ داود عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ مَزْمُورٍ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ: «**فاضَتِ النِّعْمَةُ مِنْ شَفَتَيْكَ، مِنْ أَجْلِ هٰذا بَارَكَكَ اللَّهُ تقلّدْ أيُّها الْجَبَّارُ سَيْفَكَ فَإنَّ شَرَائِعَكَ؛ وَسُنّتك مَقْرُونةٌ بِهَيْبَةِ يَمِينكَ وَسِهامُكَ مَسْنُونَةٌ، وَجميعُ الأُمَمِ يَخِرُّونَ تَحْتَكَ**» ولا تفسيـر للنِّعْمَةِ الّتِي فَـاضَتْ مِنْ شَفَتَيْه إلاَّ الكتـابُ الَّذِي أُنْـزِلَ عَلَيْهِ ﷺ، والسُّنَّةُ الّتي سَنّهَا، ولا تفْسيرَ لِقَوْلِهِ: تَقَلَّدْ أيُّهـا الجبَّارُ سَيْفَـكَ إلاَّ النَّبِيُّ الْعَـرَبِيُّ إذْ لَيْسَ يَتَقَلَّدُ السَّيْفَ أُمَّـةٌ مِنَ الأُمَمِ إلاَّ الْعَـرَبُ، وكلُّهُمْ يَتَقَلَّدُونَهـا عَلَى عَـوَاتِقِهِمْ. وقَوْلـه: فَإنَّ شَـرَائِعَكَ وَسُنَّتَـكَ. لا تَفْسيرَ لَـهُ إلا بِشَـرِيعَـةِ وَسُنَّـةِ نَبِيِّنَـا المُصْطَفَىٰ ﷺ، وَأَنَّها تَقُومُ بِسَيْفِهِ، وَأَسِنَّةِ سِهَامِـهِ، والجبَّارُ هُـوَ الَّذِي يُجْبِـرُ الْخَلْقَ

(١) انظر الدليل الصادق على وجود الخالق جـ١ ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

بِـالسَّيْفِ عَلَى الانْقِيَادِ إِلَى الْحَقِّ، ولم يَجُـرِّ النّاسَ بِـالسَّـلاسِـلِ لِيَـدْخُلُوا فِي دِينِ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَصْحَابُ النَّبِي مُحَمَّدٍ ﷺ. وَبِهَذا القدر كفاية وباللّهِ التوفيق.

مُعْجِزَةُ تَسْبِيحِ الْحَصَىٰ فِي كَفِّهِ ﷺ

أخرج ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى[1] عن أبي ذر: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ في مكانٍ هو وأبوُ بكر وعمر وعثمان، فتناول النبيُّ ﷺ سَبْعَ حصيات فَسَبَّحْنَ حتّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حنيناً كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثم وَضَعَهُنَّ فَخرسْنَ، ثُمَّ أَخَـذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ في يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حنيناً كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثم وَضَعَهُنَّ فَخَرَسْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ في يد عُثمانَ فَسَبَّحْنَ حَتَّى سَمِعْتُ لهنَّ حنيناً كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وضعَهنَّ فَخَـرَسْنَ**».

وفي السيرة النبوية[2] وحديثه ـ أي تسبيح الحصى ـ قد اشتهر، ورواه أكثر أهل السّنن. منهم البيهقيُّ والبزّار والطبرانيُّ وابن عساكر من حديث أبي ذرّ، وأنس بن مالك رضي الله عنهما، ففي رواية عن أبي ذرّ رضي الله عنه. قال: «**كُنْتُ أَتَتَبَّعُ خَلَواتِ النبيّ ﷺ، فرأيْتُهُ يوماً خالياً، فاغْتنمتُ خَلْوَتَهُ، فأتَيْتُهُ، وهُوَ جَالِسٌ لَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ من النَّاسِ، وكأنّي أرَى أنَّهُ في وحي، فَسَلَّمْتُ عليْه فردَّ عليَّ السَّلام، ثم قال لي: ما جاء بِكَ؟ قلتُ: اللَّهُ ورسولُه. أي حبهما، فأمَرَني أنْ أجْلِسَ، فَجَلَسْتُ إلَى جَنْبِهِ لا أَسْأَلُ عَنْ شيْءٍ، ولاَ يذكُرُهُ لي، فَمَكَثْتُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ، فَجَاءَ أبوُ بكر رضي الله عنه يمشي مُسْرِعاً، فسلَّم عليْه، ثُمَّ قال: ما جَاءَ بِكَ؟ قال الله ورسولُه، فأشَـارَ بِيَدِهِ أنِ اجْلِسْ، فَجَلَسَ إلى رَبْوَةٍ مُقابِلَ النّبيّ ﷺ، ثـمَّ جَاءَ عمرُ رضي اللَّهُ عَنْهُ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ، وقال لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: مثل ذلك، وجلسَ إلى جَنْب أبي بَكْرٍ رضي الله عنهُ، ثُمَّ جَاءَ عثمانُ رضي اللهُ عَنْهُ كذلِك، وَجَلَسَ إلى جَنْبَ عُمَرَ رضي اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ قَبَضَ رسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ حَصَياتٍ سَبْعٍ، أَوْ تِسْعٍ، أَوْ مَا قَرُبَ مِنْ ذٰلِكَ فَسَبَّحْنَ في يَـدِهِ حتَّى سُمِعَ لَهُنَّ حَنِينٌ كَحَنِينِ النَّحْل في كفِّ رسُـولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ بالأرْضِ**

(١) جـ ١ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥

(٢) جـ ٣ ص ١٢٨. وهي لأحمد بن زيني دُحلان طبع الأهلية للنشر والتوزيع.

فَخَرَسْنَ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ وناوَلَهُنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عَنْهُ فسبّحْنَ في كفّ أبي بكْرٍ رضي الله عنهُ حتى سُمِعَ لَهُنَّ حَنِينٌ كحنين النَّحل، ثُمَّ أخَذَهُنَّ مِنْهُ فَوضَعَهُنَّ في الأرْضِ فَخَرَسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ، ونَاوَلَهُنَّ عُمَرَ رضي الله عَنْهُ فَسَبَّحتْ في كَفِّهِ كَمَا سَبَّحَتْ في كَفِّ أبي بكْرٍ رضي الله عنه. وفي رواية: حتى سُمِعَ لَهُنَّ حَنِينٌ كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ في الأَرْضِ فَخَرَسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ مِنَ الأَرْضِ، وَنَاوَلَهُنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنهُ، فَسَبَّحْنَ في كَفِّهِ كَنَحْوِ مَا سَبَّحْنَ فِي كفّ أبي بكْرٍ وعمر رضي الله عنهما. وفي روايـة: حَتَّى سُمِعَ لَهُنَّ حَنينٌ كَحَنِيْنِ النَّحْلِ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ في الأَرْضِ فَخَرَسَنَ فَلَمْ يُسَبِّحْنَ مع وَاحِدٍ منَّا. وفي رواية أنس: ثُمَّ وَضَعَهُنَّ في أَيْدينا رَجُلاً رَجُلاً فَمَا سبَّحَتْ حَصَاةٌ مِنْهُنَّ».

وظاهر الحديث يدلُّ على أنّ حضور الجماعة قد حصل فيما بعد، ولم يذكر علياً رضي الله عنه في الحديث، لأنه لم يكن حاضراً معهم في ذلك المجلس، وذلك لا يشين مقامه رضي الله عنه مع ما له من المناقب، ولو كان حاضراً لسبحت في كفه قطعاً. في تسبيح الحصى في كفّه ﷺ معجزةٌ له، وتسبيحه في كفّ الصحابة الثلاثة كرامات لهم رضي الله عنهم نالوها ببركة إيمانهم برسول الله ﷺ، وهو دلالة صدق على إثبات نبوّته ﷺ، وقد حدَّثنا القرآن العظيم على أنّ كل شيء في هذه الكائنات من الحيوان، والنبات، والجماد يُسَبِّحُ الله تعالى بلسان المقال وهو الصحيح لا بلسان الحال. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فيهنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِنْ لَا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[الإسراء آية: ٤٤]. في الخازن في تفسير هذه الآية قال ابن عباس «وإن مِنْ شيء حيٍّ إلّا يُسَبِّحُ بحمده» وقيل جميعُ الحيوانات والنباتات. قيل: إن الشجرة تُسَبِّحُ، والاسطوانة لا تسبّح. وقيل: إنّ التُّرابَ يُسَبِّحُ ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التّسبيح، وإنّ الخرزَة تُسَبّح ما لم تُرفع من موضعها، فإذا رُفِعَتْ تركت التّسبيح. وإنَّ الورقة تُسبّح ما دامت على الشّجَرَةِ، فإذا سَقَطَتْ تركت التسبيح، وإنّ الماء يُسبّح ما دام جارياً، فإذا ركد ترك التّسبيح، وإنّ الثوب يُسبّحُ ما دام جديداً، فإذا اتّسخ ترك التّسبيح، وأنَّ الوحوش والطيْرَ تُسبّحُ إذا صاحت، فإذا سكتت تركت التّسبيح. وقيل: وإن من شيءٍ جمادٍ أو

حيّ إلاّ يُسبّحُ بحمده، حتّى صرير الباب، ونقيض السّقف، وقيل: كُلُّ الأَشياء تسبّح اللهَ حيواناً كانَ أو جماداً. وتسبيحها سبحان الله وبحمده. ويدلُّ على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: «كنا نعدّ الآيات بركة، وأنتُم تعدّونها تخويفاً، كنا مع رسُولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ، فقلّ الماءُ، فقال: اطلُبُوا فضلَةً من مَاءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ، فأَدْخَلَ يدَهُ ﷺ في الإناء، ثم قال: حيّ على الطّهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيتُ الماءَ ينبُعُ مِنْ بينْ أصابع رسول الله ﷺ. ولقد كُنّا نَسْمَعُ تسبيح الطعام، وهو يؤكل» أخرجه البخاري أ. هـ. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - قلتُ وفي مسلم[1] وحدَّثنا أبو بكر بنُ أبي شيبة، حدّثنا يحيى بن أبي بُكَيْرٍ عن ابْراهيم بن طَهْمَانَ، حدَّثني سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ عَنْ جابرِ بنِ سَمُرَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لأعْرِفُ حجراً بِمَكّة كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إني لأعرفُهُ الآن» قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: فيه معجزة له ﷺ، وفي هذا إثبات التّمييز في بعض الجمادات، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وإنَّ مِنهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنْ من شيَءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحمدِهِ﴾ وفي هذه الآية خلاف مشهور، والصحيح أنّه يسبّح حقيقةً، ويجعلُ اللهُ فيه تمييزاً بحسبه كما ذكرنا. ومنه الحجر الّذي فرّ بثوب موسى عليه السَّلامُ. وكلامُ الذّراع المسموم، ومشي إحدى الشجرتين إلى الأخرى، حين دعاهما النبيُّ ﷺ، وأشباه ذلك. انتهى كلام النّووي. قلتُ: ويؤيده قوله تعالى: ﴿ولكن لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ﴾ أنّ السّموات السّبع، والأرض، وما فيهنّ، وما عليهنّ من الملائكة والإنس والجن والجمادات والحيوانات والنباتات كلها تُسبّحُ الله بلغةٍ يعلمها اللهُ، وأننا نحن بني البشر لا نعلمها، ولا نفقهها لاختلاف اللغات، أو لتعسُّر الإدراك، وذلك لعدم بلوغنا درجة الولاية التي بها يتمّ السماع، والفهم كما حكي ذلك مستفيضاً عن الأولياء. إنَّ الجبال تسبّحُ الله تعالى، ولا نسمعُ أو ندرك تسبيحها، إلا أن داود عليه السلام يسمعُ ويفهم ذلك معجزة له، وكرامة لكل من بلغ هذه الدرجة قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينْ﴾ [الأنبياء آية: ٧٩] الآية واضحة المعنى، وقاطعة الدّلالة على أنّ الجبال والطير يسبّحن مع داود عليه

---

(١) كتاب الفضائل رقم الحديث (٢٢٧٧).

السلام إذا سبح. في الخازن في تفسير الآية: قال ابن عباس: «كان يَفْهَمُ تسبيح الحجر والشّجر» قيل: كانت الجبال تجاوبه بالتّسبيح، وكذلك الطَّير. وقيل: معنى يسبّحن: يُصلين معه إذا صلَّى. وقيل: كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التّسبيح. ويشتاق إليه، وقوله: ﴿وكُنَّا فاعَلَيْنَ﴾ يعني ما ذكر من التّفهيم، وإيتاء الحكم والتّسخير. اهـ. وعبارة النَّسفي «وكنا فاعَلَيْنَ» بالأنبياء مثل ذلك، وإن كان عجباً عندكم. اهـ. وهذا يعني أن كل الأنبياء تُسَبِّحُ معهم الجبال والطير، وتأيَّد هذا القول بتسبيح الحصى في كفّ رسول الله ﷺ كما نحن هنا بصدد بيانه. وفي الكرخي؛ قال الزمخشريُّ: فإن قلت لم قدّم الجبال على الطير؟ قلتُ لأن تسخيرها وتسبيحها أعْجَبُ وأدلُّ على القدرة، وأدخلُ في الإعجاز لأنّها جمادٌ، والطيرُ حيوان ناطق. انتهى. وفي القرطبي: قال وهب: كان داود عليه السلام يمرّ بالجبال مسبّحاً والجبالُ تجاوبه بالتّسبيح، وكذلك الطّير، وقيل: كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبّحَتْ. ولهذا قال: «وسخَّرْنا» أي جعلناها بحيث تُطيعُهُ إذا أمرها بالتّسبيح. اهـ. وعبارة الخطيب في قوله تعالى: «وكُنَّا فاعِلِين» أي من شأننا الفعل لأمثال هذه الأفاعيل، ولكل شيء نريده، فلا يتكبر علينا أمرٌ، وإن كان عندكم عجباً. وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الأمة؛ كان مطرفُ بنُ عبدالله بن الشِّخّير إذا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبّحَتْ مَعَهُ أَبْنِيَتُهُ. أ. هـ. أي أبنية دوره، ويسمع ذلك بأمّ أذنيه، وكذلك نقل عن غير واحد من أبناء هذه الأمة. وقال تعالى في حقّ داود عليه السلام: ﴿إنّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ معه يُسَبّحْنَ بالْعَشيِّ والإشراقِ﴾ [ص: ١٨] أي يُقَدِّسنَ الله تعالى بصوت يتمثّلُ لداود عليه السلام، ويخلُقُ الله فيها الكلام. كذا في تفسير أبي السعود. فسبحن بتسبيحه وقت صلاة العشاء، ووقت صلاة الضحى. أي غدوة وعشية، والإشراق هو أن تشرق الشمس، ويتناهى ضوؤها، وفسّرها ابن عباس بصلاة الضحى، وإذا كانت الجبال تسبّح مع داود عليه السلام، وكذلك الطير، ويسمع تسبيحها، ويفهم ما تقوله معجزة له، وكذلك يفعل الله بالأنبياء مثل موسى عليه السلام حيث فرّ الحجر بثوبه ليكشف أمره إلى بني إسرائيل من أنه ليس فيه علّة كما يقولون، يتبعه ويخاطبه بقوله: دع ثوبي يا حجر دع ثوبي يا حجر، فهذا النبيّ يخاطبُ حجراً جماداً لا يسمع ولا يعقل، بحسب حكمنا عليه نحن بني البشر إلا أن للأنبياء

عليهم الصلاة والسلام أجهزة داخلية غير أجهزة البشر مكنهم بها سماع تسبيح الحجر. ومخاطبة الجماد والشجر، والحيوانات، وسماع أجوبتها، ومحادثتها، وهذا هو الفارق بين النبي وبني البشر بتلك المعجزات فاقوا أبناء جنسهم، وبها تحدّوهم بأنهم مرسلون من الله إليهم، إن قضية تسبيح الحصى في كف المصطفى ﷺ أمر غير مستنكر، وغير مستبعد الوقوع طالما أن الجبال بأسرها كانت تسبّح مع داود عليه السلام إذا سبّح كما هو مذكور في القرآن، ووقفت على نصّه في هذا الأمر العجيب الغريب، فالذي جعل من الحجارة أنّها تهبط من خشية الله كما في قوله تعالى ﴿وإنَّ مِنَ الْحِجَارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فإن قُلت: الحجرُ جمادٌ لا يعقلُ، ولا يفهم فكيفَ يخشى؟ قلت هذا بحسب علمنا الظاهر،ولكنه غير مستحيل عقلاً لأنه تعالى قادرٌ على إفهام الحجر والجمادات فَتَعْقِلُ، وتخشى بإلهامه لها، ومذهب أهل السّنة أنَّ الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات علماً وحكمةً لا يَقفُ عليهما غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشيةٌ يدل عليه قوله: ﴿وإنْ مِنْ شَيءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ كما تقدّم وقال تعالى: ﴿والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قد عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[النور: ٤١] فالذي أخبرنا عن هذا كله هو الله خالق كل شيء وخاضعٌ له كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي ألهم الحصى أن تُسَبِّح في كفّ نبيّه وحبيبه المصطفى ﷺ، كما سبحت في أكُفّ صحابته إكراماً له ﷺ وتطييباً لخاطره، وإظهارَ فضلهم على غيرهم من الصحابة، كيف لا وهم الخلفاء الثلاثة من بعده : أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهم من صفوة الأولياء، وخيرة العلماء من هذه الأُمة، فلا عجب إذا سبح الحصى في أكفهم، وأمّا أنها لم تُسبِّح في أكفّ غيرهم من الصحابة حتى يكون ذلك التّسبيح شاهداً على أفضلية أبي بكر وعمر وعثمان، وأنّ غيرهم ـ عدا عليّ رضي الله عنه ـ لم يبلغُوا درجاتهم فيما نالُوه من الجهد والبلاء، والبذل والعطاء، ومقارعة الأعداء، وقد اتفق المسلمون جميعاً أنّ الصحابة رضي الله عنهم ليسوا في الفضل سواء. * * *

إنَّ معجزة تسبيح الحصى في كفّ المصطفى ﷺ أمرٌ خارق للعادة، ومعجز في نفس الأمر، لأنَّ البشر عاجزون عن القيام بهذا الأمر إلَّا ما يوقعه الله كرامةً لأوليائه،

وقد اتفق أئمة المسلمين على أنَّ ما وقع معجزة لنبيّ من الجائز أن يقع كرامةً لوليٍّ، ووجه الإعجاز في هذه المعجزة أنَّ الله تعالى قد جعل في الجماد صفات المسبّحين من الملائكة والإنس والجنّ، فتكلم الحجر في كفّ المصطفى ﷺ ناطقاً بالتّسبيح، وسُمع له حنين كحنين النّحل، وذلك لأن الحصيات السبع كلهن أخذن بالتّسبيح، كسماع قراءة الصحابة في الليل تسمع لها دويّاً كدويّ النحل، وهذه المعجزة النبويّة المحمّديّة أكبر وأعظم من قلب العصا حيّة لموسى عليه السَّلام، لأنَّ أصل العصا حيّ، وهو الشجرة الناميَة، والحجر ليس بنام بل هو جماد مُتَحَجِّرٌ، وغيرُ قابل للحياةِ إلَّا ما يُوقعهُ اللهُ معجزةً لنبيّ من أنبيائه كما هنا في معجزة نبيّنا محمد ﷺ، وهذه المعجزة هنا لم تكن مقرونة بالتّحدي لأنَّ الصحابة الذين كانوا مع النبيّ ﷺ، وحضروا ذلك المجلس هم من خيرة الصحابة، وإنما وقعت تأكيداً لصدق رسالته ﷺ، وتنويهاً بفضل الصحابة، الذين سَمِعُوا ذلك التّسبيح، وما كان لهم أن يسمعوه لولا أن كشف الله الغطاء عن حواسّ سمعهم، ومدارك علومهم، وعقولهم، فنالُوا به درجاتِ أهل الفضل من الأولياء والصّالحين، وأنعم بهم من رجال شاهدُوا بأمّ أعينهم مشارق أنوار وجه المصطفى ﷺ نبيّ الرحمة، والهدى، وسمعوا القرآن ينزل على النبيّ ﷺ غضّاً طريّاً، فكانوا أهلاً لسماع تسبيح الحصى في كفّ المصطفى ﷺ، وكانوا كما قال فيهم ﷺ **«خَيْرُ النّاسِ قَرْني، ثُمَّ الَّذِين يلُونَهُمْ، ثمَّ الَّذِين يلونهم»** رواه الشيخان. ويقصد به ﷺ في هذا الحديث أهل العلم والرئاسة، والفضل من كل قرن من هذه القرون الثلاثة لأنَّ الله تعالى خصّهم لإقامة دينه، وإعلاء كلمته، وخصَّهم برؤية نبيّه ﷺ، ومشاهدته، ونزول القرآن عليه غَضّاً طرّياً، وبحفظهم آي القرآن الكريم، وحفظ أحاديث نبيّهم عليه الصلاة والسلام في صدورهم؛ فجزاهم اللَّهُ عن أمّةِ نبيّه خيراً لقد أخلصُوا لله تعالى في الدّعوة، وذبُّوا عن دينه بالحجّة. قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّياً فليتأسَّ بأصْحابِ محمّد ﷺ، فإنّهم كانُوا أبرّ هٰذِهِ الأمّـةِ قلُوباً وأعمقَهَا علماً وأقلَّهَا تكلُّفاً، وأقومها هدياً، وأحْسَنُهَا حالاً: اختارهم اللهُ تعالى لصحبة نبيّه ﷺ، وإقَامَةِ دينِهِ، فَاعْرِفُوا فَضْلَهُمْ، واتَّبِعُوهُمْ في آثارِهِمْ، فإنَّهُمْ كانُوا على الهُدى المُسْتَقِيْمِ»**[1]. ومن

---

(١) انظر الدليل الصادق جـ ١ ص ١٦ تأليف عبد العزيز بن عبد الرحمن جاب الله طبع بمطبعة الأداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٦هـ.

فضائل أبي بكر رضي الله عنه قوله ﷺ فيه: «**لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ عن أبي بكْرٍ ما ازْدَادَ يقيناً**» وقال: «**ما فَضَلَكُمْ أَبو بَكْرٍ بِكَثِيرِ صَلاَةٍ، ولاَ صِيَامٍ، وإنّما فَضَلَكُمْ بشيءٍ وَقَرَ في قَلْبِهِ**» وروي أن النبيَّ ﷺ سأل جبريلَ عليه السلام عن فضائل عمر رضي الله عنه فقال: «**لَوْ لَبِثَ فِيْكُمْ ما لَبِثَ نُوحٌ في قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إلاّ خَمْسِينَ عاماً ما وفيت بفضائل عُمر، وإنَّهُ لَحَسَنَةٌ من حَسَنَاتِ أبي بكْرٍ**» وقال عليه الصلاة والسلام في عثمان: «**إنَّـهُ لَتَسْتَحِي مِنْهُ ملائكةُ السَّماءِ**» وروي أنه لم يكن يرفع رأسَهُ حَيَاءً مِنَ الله تعالى، وذلك ثمرة المراقبة التي هي ثمرة كمال المعرفة، ورسوخ اليقين حتَّى كأنّه يُعاينه كما قال تعالى ﴿إنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر آية: ٢٨] فمن كان هذا حاله، وهذه أوصافه، وهذه خشيتُهُ من الله تعالى جديرٌ بأن يُسبّح الحصى في كفه لإظهار كرامته وفضله، وبالله التوفيق.

معجزة إشارته ﷺ إلى الأصنام فتخرُّ لقفاها

أخرج البخاريُّ في كتاب المغازي عن عبدالله رضي[1] الله عنه قال: «**دَخَلَ النبيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وثلاثمائة نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بعُودٍ في يَدِهِ ويقولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، جَاءَ الْحَقّ ومَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**» قال الحافظُ في الفتح: وفي حديث ابن عمر عند الفاكهي، وصححه ابن حبان «**فَيَسْقُطُ الصَّنَمُ وَلاَ يَمَسُّهُ**» وللفاكهي، والطبراني من حديث ابن عباس: «**فَلَمْ يَبْقَ وَثَنٌ اسْتَقْبَلَهُ إلاّ سَقَطَ عَلَىٰ قَفَاهُ**»[2].

وقال أحمد بن زيني الدَّحلان في سيرته[1]: ومن معجزاته ﷺ وقوع الأصنام لقفاها بإشارة منه ﷺ: روى البخاري ومسلم والبزّار والطبراني، وأبو يعلى عن جابر بن عبدالله، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم قال: «**كَانَ حَوْلَ الْبَيْتِ ستون وثلاثمائة صنم مُثبَّتة الأرجل بالرُّصاص في الحجارة، فلمّا دَخَلَ رسُولُ الله ﷺ المسجدَ عَامَ الفتح جَعَلَ يُشيرُ في قَضِيبٍ في يَدِهِ إليْها، ولا يمسّها، ويقُولُ: جَاءَ الحقُّ، وَزَهَقَ**

---

(١) فتح الباري جـ ٨ ص ١٥ رقم الحديث (٤٢٨٧) باب (٤٧)

(٢) جـ ٨ ص ١٧.

(٣) جـ ٣ ص ١٢٦.

الْبَاطِلُ، فَمَا أَشَارَ إِلى وَجْهِ صَنَمٍ إِلاَّ وقَعَ لِقَفَاهُ، وَلاَ لِقَفَاهُ إِلاَّ وَقَعَ لِوَجْهِهِ حتى ما بَقِي مِنْهَا صَنَمٌ» وقد سمعت نصّ البخاري وفي كتاب الوفا بأحوال المصطفى[1]: «عن ابن عباس قال: **دَخَلَ رسُولُ الله ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مكّة، وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثلاثُ مائة وستّون صَنَماً،** وفي يد رسول الله ﷺ **قضيبٌ فَجَعَلَ يُشِيْرُ إِلَيْهَا ويقُولُ: «جَاءَ الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهُوقاً، جاء الحقُّ وما يبدئُ الباطلُ وما يعيدُ؛ فجعلت تستلقي مِنْ غيرِ أنْ يَمَسَّها»** وذكر قبله حديثيْ البخاري ومسلم، وفي الجلال في تفسير قوله تعالى: «﴿إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقاً﴾ مضمحلاً زائلاً وقد دخلها ﷺ، **وحَوْلَ الْبيت ثلثمائة وستّون صنماً، فَجَعَلَ يطْعَنُهَا بِعُودٍ في يده، ويقول ذلك حتّى سقطتْ»** رواه الشيخان. وقوله: سقطت: أي سقط كُلٌّ منها مع أنّها كانت مثبتة بالحديد والرُّصاص، وفي البيضاوي: وبقي منها صَنَمُ خزاعة فوق الكعبة. وكان من نحاسٍ أصفر، فقال النبي ﷺ: «**يا عليُّ! ارم به**»، فصعد فرمى به فكسرهُ. أ. هـ.

وفي البداية والنهاية[2] وقال ابن هشام: حدَّثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس أنه قال: دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ مَكّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ على راحلته، فطاف عليْها، وحولَ الكعبة أصنام مشدُودة بالرصاص، فجعل النبيُّ ﷺ يشيرُ بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: «**جَاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**» فما أَشَارَ إلى صَنَمٍ مِنْهَا في وَجْهِهِ إلاَّ وَقَعَ لِقَفَاهُ، وَلاَ أَشَارَ إلى قَفَاهُ إلاَّ وَقَعَ لِوَجْهِهِ، حتّى ما بقيَ مِنْهَا صَنَمٌ إلاَّ وقَعَ. فقال تميم بن أسد الخزاعي:

وَفِي الأَصْنَامِ مُعْتَبَرٌ وَعَلَمٌ ... لِمَنْ يَرْجُو الثوابَ أو الْعِقَابَ

وفي الفتح قال الحافظ: وللفاكهي والطبراني من حديث ابن عباس: «**فَلَمْ يَبْقَ وثَنٌ اسْتَقْبَلَهُ إلاَّ سَقَطَ عَلَى قَفَاهُ، مع أنّها كَانَتْ ثابتةً بالأَرْضِ، وقَدْ شَدَّ لَهُمْ إبليسُ أقْدَامَهَا بالرُّصاصِ**» قال: وفعل النبيُّ ﷺ ذلِكَ لإذلال الأصنام وعابديها، ولإظهار أنّها لا تنفعُ ولا تضرُّ، ولا تدفعُ عن نفسها شيئاً[3] أ. هـ. في اللسان في مادة صنم.

---

(١) للجوزي جـ ١ ص ٣٠٥.
(٢) لابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٢.
(٣) فتح الباري جـ ٨ ص ١٧.

الصّنم: معروف واحدُ الأصنام، يُقال: إنّه معرَّب شَمَنْ، وهو الوَثَنُ، قال ابن سيده: وهو يُنْحَتُ مِنْ خَشَبٍ ويُصَاغُ من فِضَّةٍ ونُحاسٍ، والجمعُ أصنام، وقد تكرّر في الحديث ذِكْرُ الصَّنمِ والأصنام، وهو ما اتُّخِذَ إلهاً من دون الله. وقيل: هو ما كان له جسمٌ، أو صورة فإن لم يكن لَهُ جسمٌ، أو صورة فهُو وثنٌ... وقال ابن عرفة: ما اتّخذوه من آلهةٍ فكان غيرَ صُورةٍ فهو وثنٌ، فإذا كان له صورة فهو صَنَمٌ. أ. هـ.**

وبما تقدّم أسْتطيعُ القوْلَ بأنّ سُقُوط الأصْنَامِ والأوثان المشدودة بالرصاص، وبالأرض على وجهها من مجرّد إشارة النبيّ ﷺ إليها أمرٌ معجزٌ، وخارق للعادة إذْ لا يتأتى هذا الأمر إلا إذا حدث بالإرادة الربّانيّة، والقدرة الإلهيّة، إنه أمرٌ فاق تصوّر العقول البشريّة لأنه لا قدرة، ولا طاقة للبشرية جمعاء على فعل ذلك، ولّما أحدث الله جلّ جلاله هذا الأمر على يد نبيّه محمد ﷺ علمنا أن سقوطها على وجوهها، أو قفاها من مجرّد إشارته ﷺ إليها من المعجزات النبويّة المحمدّية الكثيرة التي أظهرها الله على يديْه ﷺ إكباراً لشأنه، وبياناً لفضله، وتصديقاً وتأكيداً لنبوّته، وإذلالاً لعابديها، وإرغاماً لشياطين الإنس والجنّ. وهذه المعجزة بعد أن قامت دلائلها من السُّنة النبويّة المطهرة، ومعاينة الأصحاب لها فهي من أمهات معجزاته ﷺ. إنّ انتكاس الأصنام المعبودة من دون الله، وخرورها على وجوهها من غير رافع لها من أمكنتها قد وقع أيضاً ليلة مولده ﷺ كما أخبرنا به أصحاب السّير مثل خمود نار فارس عند ميلاده ﷺ. وكانوا يعبدُونها، وكان لها ألف عام لم تخمد، وما سُمع من هواتف الجنّ الصارخة بنعوته، وانتكاس الأصنام المعبودة؛ وخرورها لوجهها... إلخ. ما ذكروه من معجزات، أو إرهاصات في ليلة ميلاده ﷺ(١).

معجزتُه ﷺ في كَلام الشَّجَرة لَهُ ﷺ وإيمانها به، وسجُودَ الْعِذْقِ لَهُ

أحاديث كلام الشجر له ﷺ كثيرة شهيرة، رواها أهلُ السّنن عن كثير من الصحابة منهم: عمرُ بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، وأسامةُ بن زيْد، وأنسُ بن مالك، ويعلى بن مرّة، وغيرهم، ورواها عنهم أضعافهم من التّابعين. قال القاضي

(١) انظر السيرة النبويّة للدّحلان جـ ٣ ص ٩١ على سبيل المثال.

عياض في الشّفا بتعريف حقوق المصطفى[1]: فصارت في انتشارها من القوّة حيث هي. أي صارت في مرتبة قوِّيةٍ لَا يَشُكُّ فيها أَحَدُ مِنَ العقلاء. يعني أنّها نقلت عن كثير من الصحابة والتّابعين حتّى بلغت التّواترالمعنويّ، وصارت في مرتبة قويّة لا يشكّ فيها أحد من العقلاء *

أخرج الدَّارميُّ عن ابن عمر رضي اللَّهُ عنهما قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَدَنَا مِنْهُ أعْرابِيٌّ. فقال له: يا أعْرابي! أينَ تُريدُ؟ قال: إلى أهْلِي. قال: هل لكَ إلَى أهْلِ خيْرٍ مِنْ أَهْلِكَ؟ قال: ومَا هُوَ؟ قال: تشْهَدُ أنْ لَا إله إلّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورسُولُهُ. قال: من يَشْهَدُ لَكَ عَلَى مَا تقُولُ؟ قَالَ: هٰذِهِ الشَّجَرَةُ السَّمُرَةُ - وفي سنن الدارمي[2] هذه السَّلَمة - وَهِيَ بِشَاطِيء الْوَادِي. فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الأرْضَ حتّى قَامَتْ بيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثاً، فَشَهِدَتِ الشَّهَادَتَيْنِ، ثُمَّ أمَرَهَا فَرَجَعَتْ إلى مكانها**»[3]. تخُدُّ الأرضَ: تحفرها وتشقُّها *

وروى الدّحلان في سيرته (جـ٣ ص١٢١) روى البيهقيُّ والبزَّارُ والدَّارميُّ عن ابن عمر رضي اللَّهُ عنهما قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَدَنَا مِنْهُ أعْرَابِيٌّ، فَقَال له النَّبِيُّ ﷺ: أيْنَ تُرِيدُ يا أعرابي؟ قال: أَهْلِي. قال: هل لك إلى خَيْرٍ؟ قال: ومَا هُوَ؟ قال: تَشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيك لَهُ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورسُولُه. قال: مَنْ يَشْهَدُ لك على ما تَقُولُ؟ قال: هذه السَّمرة، وهي بشاطىء الْوَادِي، فأقْبلَتْ تَخُدُّ الأرْضَ، أي تشقّها بعرُوقها حتّى وقَفتْ بيْنَ يَدَيْهِ ﷺ، فَشَهِدَتْ لَهُ بأنّه رسُولُ اللَّهِ حقّاً، ثُمَّ رَجَعَتْ إلَى مَكَانِهَا، ورجع الأعرابيُّ إلى**

---

(١) جـ١ ص٤٢٤ طبع دار الكتاب العربي. والقاضي عياض هو أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي ٤٧٦هـ ـ ٥٤٤م.

(٢) جـ١ ص ١٠.

(٣) سنن الدارمي جـ١ ص ٩ ـ ١٠. المُقدِّمة ـ باب ما أكرم الله به نبيّه من إيمان الشجرة به والبهائم والجنّ. وانظر الشفا جـ١٠ ص ١٩٥ ـ ١٩٦، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية جـ٤ ص ١٦ كتاب المناقب شهادة الشجرة بنبوّته وطاعتها الحديث رقم (٣٨٣٦) وعلق محقق الكتاب في الحاشية ٤ قال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند صحيح والبزار والطبرانيّ وابن حبان في صحيحه. وأقر الهيثمي رجاله.

قوْمِهِ، وقال يا رسول اللّه! إن يتّبعُوني آتِكَ بِهِمْ، وإلاَّ رَجَعْتُ إلَيْكَ، وكنتُ مَعَكَ» وروى البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي اللَّهُ عنه قال: «آذنتُ. أيْ أعْلَمْتُ النَّبيَّ ﷺ بالجنِّ لَيْلَةَ استمعُوا لَهُ شَجَرَةً، وإن الجنَّ قَالُوا له: من يَشْهَدُ لَكَ. أي بأنّكَ رسُولُ اللَّه؟ فقال: هٰذِهِ الشَّجَرَةُ، ثُمَّ دَعَاهَا للشّهَادَةِ، فَجَاءَتْ تَجُرُّ عُرُوقَهَا لَهَا قَعَاقِعُ» وروى البخاريُّ في تاريخه، والبيهقيُّ والدّارميُّ بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء أعْرابيٌّ إلى النَّبِيِّ ﷺ. فقال: بمَ أعْرِفُ أنَّكَ رسُولُ اللَّهِ؟ فقال: إنْ دَعَوْتُ هذا الْعِذْقَ مِنْ هٰذِهِ النّخلَةِ اتُؤمِنُ بِي؟ قال: نَعَمْ، فَدَعَاهُ فَجَعَلَ يَنْقُزُ. أي يثب حتّى أتَاهُ. فَقَالَ: ارْجِعْ، فَعَادَ إلى مَكَانِهِ، فأسْلَمَ الأعْرَابيُّ» وفي رواية: «فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النّخْلَةِ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى سَقَطَ عَلَى الأرْضِ، فأقْبَلَ وَهُو يَسْجُدُ، ويَرْفَعُ حتَّى انْتَهىٰ إلَى النَّبِيّ ﷺ، ثمَّ قال له: إرْجِعْ فَعَادَ، فأسْلَمَ الأعْرَابِيُّ» وفي رواية «فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتّى سَقَطَ عَلَى الأرْضِ، فأقْبَلَ وَهُوَ يَسْجُدُ ويَرْفَعُ حتْى انْتَهىٰ إلى النّبِيّ ﷺ، ثمّ قال لَهِ إرْجِعْ، فَعَادَ فأسْلَمَ الأعْرابِيُّ، وقال: أشهدُ أنّكَ رسُولُ اللَّهِ» العذقُ: العرجون بما فيه من الشّماريخ. وإذا كان النبات قد أطاع المصطفى ﷺ في دعوته له، وهو غير عاقل، أفلا يجدرُ بكل عاقل أن يُطيعه، ويعمل بشريعته، ورحم اللَّهُ البوصيري حيث يقولُ:

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأشْجَارُ سَاجِدَةً ∴ تَمْشِي إلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلاَ قَدَمِ
كأنَّما سطَّرَتْ سطراً لِمَا كَتَبَتْ ∴ فروعُها مِنْ بَدِيعِ الخطِّ في الْقَلَمِ

وروى الترمذيُّ والدّارميُّ والحاكمُ وصحّحهُ عن عليّ بن أبي طالب رضيَ اللَّهُ عَنْهُ وكرَّمَ وجْهَهُ قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النّبيّ ﷺ بِمَكّةَ، فخرجْنَا في بَعْضِ نواحِيهَا، فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ إلاَّ قال: السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ» (الدَّحْلانيّة جـ٣ ص١٢٥) قال العلماء: وإنّما كانَ هذا في بَدْءِ نبوّتِهِ تطميناً لقلبه، وتبشيراً لَهُ بانقياد الخلق له بعد ذلك، وإجابتهم لدعوته، وهذا أمْرٌ يُقِرُّ به الحجرُ، فكيف ينكُرُهُ البشر؟!!

وأخرج البيهقيُّ في دلائل النبوّة[1] من طريق عبد الملك بن عبيد الله عن ابن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة الثقفي، وكان واعية - أي حافظاً - عن بعض أهل العلم: «أَنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ أرادَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كرامتَهُ، وابْتَدأ لَا يمرُّ بحجَرٍ، ولاَ شَجَرٍ إلاَّ سَلَّمَ عَلَيْهِ، وسَمِعَ مِنْهُ، فَيلتفتُ رسولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ولا يَرىٰ إلاَّ الشَّجَرَ، ومَا حوْلَهُ مِنَ الْحِجَارَةِ، وهي تُحيّيهِ بتَحيَّةِ النُّبُوَّةِ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يا رسُولَ اللَّهِ» *

وفي مسند الإمام أحمد[2] عن ابن عبّاس قال: «أَتَى النبيَّ ﷺ رَجُلٌ منْ بَنِي عامر، فقال: يا رسُولُ اللَّهِ! أَرِنِي الْخَاتَمَ الَّذِي بَيْنَ كَتِفَيْكَ؟ فإنّي مِنْ أطَبِّ النَّاسِ، فقال له رسولُ اللَّهِ ﷺ: ألاَ أُرِيكَ آيَةً؟ قال: بلى، قال: فَنَظَرَ إلى نَخْلَةٍ، فقال: ادْعُ ذلِكَ الْعِذْقَ. قال: فَدَعَاهُ فَجَاءَ يَنْقُزُ حتَّى قَامَ بيْنَ يديْه، فقال له رسُولُ اللَّهَ ﷺ: ارْجِع فَرَجَعَ إلى مَكَانِهِ، فقال العامِريُّ: يا آل بَنِي عامر! ما رَأَيْتُ كاليوْمِ رَجُلاً أسْحَرَ» إسناده صحيح. ورواه ابن سعد[3] مختصراً من طريق شريك عن سماك عن أبي ظبيان، وفي آخره «فآمَنَ بِهِ وأسْلَمَ» يعني الرجل السائل، ورواه أبو نُعيم في الدلائل[4] من طريق الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس مطوّلاً، وفي آخره: «فقال العامريُّ: واللّهِ لا أكذّبُكَ يقولُ أبداً، ثم قال: يا بني صعصعة! واللَّهِ لا أكذِّبُهُ بشيءٍ يقُول أبداً» وهو في مجمع الزوائد[5] بنحو رواية أبي نعيم، ونَسَبَهُ لأبي يعلى وصحّحه.

قُلتُ: إنّ دَعْوَةَ شجرة، وإجابتها لتلك الدَّعوة، وَسَعْيُها حتّى تقف بيْن يدي

---

(١) جـ٢ ص١٤٦، وهو في سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣، وطبقات ابن سعد جـ١ص ١٥٧ وتاريخ الإسلام للذهبي جـ٢ ص ٧١، وقد أخرج مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل حديث (٢) ص ١٧٨٢ من حديث جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرف حجراً بمكة كانَ يسّلمُ عليَّ قبل أن أبعث إنّي لأعرفه الآن» وأخرج هذا الحديث أيضاً الترمذي في المناقب جـ٥ ص ٥٩٣، والدارمي في المقدمة والإمام أحمد في مسنده حـ ٥ ص ٨٩.

(٢) جـ٣ ص ٢٩٣.

(٣) جـ١ ص١٢١.

(٤) ص ١٣٩.

(٥) جـ٩ ص ١٠.

الرسول ﷺ، وتكلّمها ونطقها بالشهادتين: أشهدُ أنْ لا إلـه إلاّ اللّهُ، وأنْ محمداً رسولُ اللّهِ ﷺ حَدَثٌ عظيمٌ، وأمرٌ خارق للعادة، فلولا ثبوتُ ذلك ثبوتاً قطعيّاً متواتراً كما علمت لما أمكن للمرء أن يُصدّقَهُ بسُهولة، ولكن قد يسهلُ الأمرُ إذا قُورن نطق الشجرة بالشهادتَيْن بالحجر الذي كان يُسْلم على النبيّ ﷺ، لأنْ تصديق نطق الشجرة أقرب للعقل من نطق الحجر، ذلك لأن الشجر نامٍ، ونموُّه يدل على وجود الحياة النباتيّة فيه، وعلى الأخص أن تركيب الخلايا النّباتيّة كتركيب بعض الخلايا الإنسانيّة، فكانت أقرب للإحساس، والسّماع والإجابة من الجماد عقلاً، وبما أنّه لم يقع مثل هذا لأحدٍ من الأنبياء فيما أعلم فيكون هذا الأمر ممّا اختصّ به نبيّنا محمد ﷺ، وهذه المعجزة بالغة الأهميّة بالنسبة للمؤمنين بها، لأنها تزيدهم إيماناً بربّهم، وأنّ كُلّ شيء في هذا الوجود يُوحِّده ويُسبّحه، ويعلمُ بالصّالح من الطّالح إذا مرَّ عليه، وأنْ محمداً ﷺ مرسلٌ من عند ربّه، وآية صدقه تسليمُ الحجر عليه، واعتراف الشجر برسالته، والإيمان به، والنطق بالشهادتين، لكأنّ الشجرَ والحجرَ يعلم أنّ من شرائط الإيمان في الإسلام النطق بشهادة أن لا إله إلّا اللّه وأن محمداً رسولُ اللّه، ومن هنا نعلم سرّ سقوط الأصنام على وجوهها بإشارة منه ﷺ، إنّ دعوة عذق من النخلة، ونزوله منها، وإقباله على النبيّ ﷺ ينقزُ ويسجُدُ لأمرٌ يُصدّقُهُ القرآن في قوله تعالى: ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ [الرّحمن: ٦] الشجر الذي له ساق «**يَسْجُدانِ**» سجوداً يليق بهما من الانقياد لأمر اللّه تعالى فيما خُلِقَا له، ولم يكن سجود العذقِ له ﷺ إلاّ بأمر اللّه تأييداً لنبيّه المصطفى ﷺ، وتأكيداً لصدق رسالته، فإذا كان النبات يُطيعُه، والحجرُ يُحبّه، ويُجلُّه ويحترمه ويعظّمُه، فما بالك بمن له عقلٌ ووعيٌ وتدّبرٌ وتفكّرٌ، ولسانٌ ناطقٌ، وقلبٌ نابضٌ وشعورٌ وإحساسٌ لا يؤمن به، ولا يطيعه، بل يُكذّبُ برسالته، ويصفه بالجنون والسحر والكذب؟!! إنّه لأمرٌ غريبٌ حقّاً لا يكاد يُصدّق لولا أنّا سمعنا عن الكافرين الشيء الكثير في معاداة الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصّالحين، وإيصال الأذى إليهم ما وجدوا لذلك سبيلاً * ولعلّ الكافرين والملحدين والمكذّبين يقولون كعادتهم في مثل هذه المعجزة وغيرها: إنها سِحْرٌ. فيقال لهم: إنّ السِّحْرَ خيال وشعبذة لا حقيقة له، إنه ألعاب سحرّية كما تقدّم في بيان معجزة عصا موسى عليه السلام. تحدّث بعض

النّاس عن السحر، وانبهرُوا به من غرائبه، فأنزلوه منزلة اليقين، ونظمُوه في سلك الحقائق، وما هـو كذلـك، فهو بعيـد كل البعـد عن اليقين والحقيقية بُعْـدُ ما بين السماء والأرض، والحقيقة التي لا جدال فيها أنْ ما يُسمّى بالسّحر، أو السّيما إنّما هو مغلّفٌ ببعض الأسرار، ومرتكز على خفةٍ يدويّة تغشي عيون الناظرين، فيلتبسُ الأمرُ عليهم. فيحسبُونَ أنَّ الحقيقة هي ما ظهرت، ويخلطون الشّكَّ بـاليقين، إننا نعيش اليوم في القرن العشرين: عصـر العلوم والاختراعات، وأصبحت آفاق العلوم واسعة، وكشفت لنا كل غامض، فهناك في البلاد الأوروبيّة معاهد كبرى ومحلّات تجاريّة عديدة يمكن الحصولُ منها على معلومات وآلات، وأدوات ألعاب الخفّة. وباستطاعة كُلّ إنسان بعد تعلمها، والتمرن عليهـا أن يُنصّبَ نفْسَهُ سـاحراً كبيـراً، وبالمثال يتّضح المقال: (رأسٌ مقطوع يتكلّم) كثيراً ما يشاهدُ النَّاسُ هـذه اللعبة: مائدة عليها طبق، وفوقه رأس مقطوع، وحوله قطرات من الدم، وبيانه إنَّ المـائدة مؤلفة من ثلاث قوائم فقط، بالرّغم من أنّها تظهر للعيان أنها ذات أربع، وقد ثُبّتت مرآة بين كل قائمتين لتعكس الصّورة التي حولها فيظنُّ المتفرج أنّه يُشاهـد الأشياء الموضوعة تحت المائدة، أما خلف المِرآة فيجلسُ الشّخصُ على كرسيّ، ورأسُـه ينفذُ من فتْحةٍ صُنعتْ خصّيصاً في المائدة، ومحاطة بما يشبه الطبق، فيظنّ المتفرّجُ أنّ الرأسَ مقطوع، وموضوعٌ ضمن طبق على المائدة، ولا يخطرُ ببالٍ أن الشخص صـاحب الرأس المقـطوع مختلف ضمن الطاولـة وراء المِرآة. ونكتفي الآن بهـذا المثال لكي نفرّق ما بين الألعاب السحرّية، والمعجزات النبوّية، إنّ تسليم الحجر، بقوله: السلامُ عليك يا رَسُولَ الله! لم يكن رسولُ اللَّهِ ﷺ بـاستطاعتـه أن يخفي رجلاً في داخله ليسلم عليه. وقل مثل هذا في إقبال الشجرة عليه تسْحَبُ خلفهـا عُروقَها، وهي تكتب لا إله إلاّ اللّه محمد رسولُ اللّه كما في بعض الروايات، أو كما هنا تنطق بالشهـادتين، وأين ذلك الـرجل الـذي كان يتكلم وهـو في عروقهـا وساقها وغصونها وأوراقها؟! لم يكن بحسبان الصحابة مثل هذه التّصـورات، حقّاً إنها معجزة كبرى، وآية عظمي، وبرهان ساطع ودليل قاطع على صدق نبوّة سيدنا محمد ﷺ. قال تعالى في حقّ سحرة فرعون، وفي حبالهم وعصيهم: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أنّها تَسْعَىٰ﴾ [طـه: ٦٦] أي يخيل لمـوسى عليه السـلام وللناس أنّهـا

حيّات تسعى، وذلك أن السحرة كانُوا طلوها بالزئبق، فلمّا ضربت الشّمسُ عليها اضطربت، واهتزت فخيّل إليه أنّها تتحرّك. ذكره أبو السعود في تفسير هذه الآية. قال ابن عقيل: لو كان السّحرُ قلباً للأعيان لساوى الإعجاز، وتعذّر علينا العلم بصدق الصّادق، لأنّ اللَّهَ سبحانه لم يجعل لنا طريقاً إلى العلم إلا كون المعجز دالًّا على الصّدْق لكونه معجزاً عنه، فمتى قُلنا: إنّ الساحرَ يقلبُ الأعيانَ كما نقولُ في حقّ النبيّ ﷺ لم تبق مزيّةٌ، وانسدَّ الطريق إلى حصول التّحقيق. قال: فإن قال قائلٌ: فأيُّ ثقة تبقى لنا بالمدركات مع قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكنْ شُبِّه لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وقد أخبر عزّ وجل أن المقتول غيره، فالجواب أن القادر سلب حينئذ المدارك حسب الأصلح على ما اقتضت الحكمة صيانته، وتعجيز الكفار عمّا عزمُوا عليه، ولو عَدمت الثّقة بالمدارك جاز عدم الثقة بحلاوة العسل لما يتطرق من الفرض من المطاعم والأمزجة فيدرك في حال مُرّاً، فإن قال قائل: فما فائدة وقوع ما يجانس المعجزة من السحر والكهانة وغير ذلك. فالجواب: إنّ المراد التكليف لتخليص المعجزة من الشعبذة ليحظى الفارق بثواب الاجتهاد. وما يزال السّحرة يطعنُ بعضهم في بعض، والرُّسلُ متساعدون(١).

قلت: إن الساحر مكشوف الحال سيّء الأعمال، بذيء الأخلاق ختّال محتال، ماكر وذليل صاغر يخشى دائماً أن تكشف شعبذته، وأكاذيبه وألاعيبه، فما يقوم به من أعمال سحرية معروفة ومدروسة يتناقلها الأبناء عن الآباء، ولا يُطلعون أحداً عليها من البشر، لأنها سرُّ احتيالهم. في كسب معايشهم، وتحسين أحوالهم الماديّة، والأنبياء خلاف ذلك كله، فمن صفاتهم الصدق، والأمانة والدعوة والإخلاص، والصبر والإحسان والرأفة والرحمة والغفران، عُبّادٌ بالليل وبالنهار، مجاهدون في سبيل اللَّهِ لإعلاء كلمته لا يخافون في اللَّه لومة لائم، فهل رُسُلُ اللَّه إلى المخلوقات، وأيدهم بالملائكة، وأظهر على أيديهم المعجزات التي يتحدّون بها البشر أن يأتُوا بمثلها، وكان اللَّهُ في عونهم يتولّاهم برعايته وحفظه وأمانته، والسّحرةُ أعوان الشياطين، ومردةُ الإنس الباغين، الذين يسلبون أموال النّاس

(١) ذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص ٣٠٠.

بحيلهم، ولم يخافُوا اللّه في حاضرهم ولا مستقبلهم، فهم كفرة بنصّ القرآن، ومهدورو الدّماء بنصّ السنّة النّبويّة: اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. لِمَا لَهُمْ من أثرٍ سيىء على واقع الحياة الإنسانيّة، فيُشغلون ضعاف العقول بأنهم مسحورون لأيّ عارض ينزل بهم، وفكاكهم من السّحر كميّة من الأموال قد تكون باهظةً إلى حدّ أنها لا تتوفّر لديهم غالباً، ويشغلونهم بالوساوس الشيطانيّة أنه لا بُدّ لهم من فكاك سحرهم، بدفع تلك الأموال وإلّا سيسوء حالهم، ولربما أدّى بهم السّحرُ إلى الجنون، أو الموت غالباً، هكذا يوسوسون لهم، وبها يسلبون أموالهم، والحال أنّه لم يكن هناك سحرٌ ولا من يحزنُون، فينبغي الحذر من الوقوع في شباكهم، ويجبُ على كل مسلم محاربتهم، والوقُوف في وجوههم أينما حلُّوا وارتحلُوا. بُلّغ أميرُ المؤمنين عمرُ رضي اللّهُ عنه بأن سَاحِراً يبطحُ رجلاً في الأرض، فيقطع رأسه فيموت الرجل، ثم يُعيد رأسه إليه فيحيىٰ ذلك الرجل فقال: أحضروه، فحضر الرجل، فقال له عمر رضي اللّهُ عنه: أأنتَ تستطيع فعل ذلك؟ فقال: نعم. فقال عمر رضي اللّهُ عنه: اقطعُوا رأسَه وليُحيي نفْسَهُ، فإنّه لا يُحيي ولا يميتُ إلاّ اللّهُ وحده. وقد تقدم معنا لعبة الساحر الذي يقطع الفتاة نصفين وهي في داخل الصندوق الخشبي، حيث يكون فيه ابتداء فتاة أخرى قد جمعت نفسها في طرف منه، وعندما تدخل الثانية تُخرج الأولى رأسها من طرفها والثانية تخرج رجليها من طرفها، والناسُ يحسبُون أنها فَتَاةٌ واحدةٌ، وحينما ينشرُ الصندوق، فتصرخ إحداهما من الألم، والحال أنه يَنْشُرُ الفراغ الذي بينهما ولا يُصابان بأيّ أذىً، وبعد النشر يُعيد الصُّندوقَ كما كان فتخرجُ الفتاةُ سليمةً تركضُ هنا وهُناك، فيعْجبُ المُشاهِدُون من هذا الأمْر العجيب فتَلْتَهِبُ أكفهم من التّصفيق * ومن قريب قدمت إليك لعبة الرأس المقطوع الذي يتكلم فارجع إليه لتقف على لعبته السحرية، راجع بحث هذه المعجزة. وباللّه التوفيق.

مُعجزةُ انْقِيَادِ الشَّجَرةِ لَهُ ﷺ كالْبَعِيرِ الْمَخْطُومِ

في صحيح مسلم، في حديث جابر الطويل، وقصّة أبي اليسر[1]: «سِرنا مَعَ

---

(١) المجلد السادس شرح النووي جـ١٨ ص ١٤٢ رقم الحديث (٣٠١٢).

رَسُولِ اللّهِ ﷺ حتّى نَزَلْنا وَادِياً أفْيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يقْضِي حَاجَتَه، فاتَّبَعْتُهُ بأداوةٍ مِنْ ماءٍ، فَنظَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً يَسْتَتِرُ بِهِ فإذا شجَرتَانِ بِشَاطِىءِ الْوَادِي، فانْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلى إحْداهُمَا، فأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بإذْنِ اللّهِ، فانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ المخشُوشِ. الَّذي يُصَانِعُ قَائِدَهُ حَتّى أتَى الشَّجَرَةَ الأُخْرَىٰ، فأخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أغْصَانِهَا فقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بإذْنِ اللّهِ، فانْقَادَتْ مَعَهُ كَذٰلِكَ حتّى إذا كَانَ بالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا لأَمَ بَيْنَهُمَا: يَعْنِي جَمَعَهُمَا. فَقَالَ: الْتَئمَا عَلَيَّ بإذْنِ اللّهِ فَالْتَأمَتَا، قال جَابرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ. وقال مُحَمَّدُ بنُ عَبَّادٍ: فَيَتَبَعَّدَ، فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ فإذَا أَنَا بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ مُقْبلاً، وَإذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ. . .» الحديث بطوله. قوله: «نَزَلنا وادياً أفْيَحَ» هو بالفاء. أي واسعاً، وشاطىء الوادي جانِبُهُ. «فانقادتْ مَعَهُ كالْبَعِيرِ المخشُوش» هو بالخاء والشين المعجمتين، وهو الذي يُجْعَلُ في أنفه خِشاش. بكسر الخاء، وهو عُودٌ يُجعل في أنْفِ البعير إذا كان صعباً، ويُشدُّ فيه حبلٌ ليُذلَّ وينقاد، وقد يتمانع لصعُوبته، فإذا اشتدَّ عليه وآلمه انقاد شيئاً. ولهذا قال: يُصانعُ قائدهُ. قوله: «حتّى إذا كان بالمنصف ممّا بيْنَهُما لأم بيْنَهُما» أما المَنْصَف فبفتح الميم والصّاد، وهو نصف المسافة. وقوله: «لأَمَ» بهمزة مقصورة، وممدودة، وكلاها صحيح. أي جمع بينهما، ووقع في بعض النّسخ الأم بالألف من غير همزة. قال القاضي وغيره: هو تصحيف. قوله: «فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ» هو بضمّ الهمزة، وإسكان الحاء، وكسر الضّاد المعجمة. أي أعدو وأسعى سعياً شديداً «فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ» اللفتةُ النظرة إلى جانب، وهي بفتح اللام[1] وفي الوفا بأحوال المصطفى[2] عن يعلى بن مُرّة الثقفي قال: «بَيْنَما نحنُ نسيرُ مع رسُولِ اللّه ﷺ فَنزَلْنا مَنْزِلاً، فَنَامَ النبيُّ ﷺ فَجَاءَتْ شَجَرَةٌ تَشُقُّ الأَرْضَ حَتَّى غَشِيَتْهُ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلى مَكَانِهَا، فلمّا اسْتَيْقَظَ ذَكَرْتُ ذٰلِكَ لَهُ، فقال: هيَ شَجَرَةٌ اسْتَأذَنَتْ رَبَّهَا عَزَّ وَجَلَّ في أن تُسَلِّمَ عَلَيَّ فَأَذِنَ

(١) هذا التفسير للكلمات من شرح الإمام النووي. والغريب أنه رضي الله عنه لم يتكلم عن هذه المعجزة العظيمة، ولم يبيِّن أوجه الإعجاز فيها والحديث في الشفا جـ١ ص ١٩٦، ودلائل النبوة للإصبهاني ١٣٩.

(٢) للجوزي جـ١ ص ٢٩٦ وما بعدها.

لَهَا»(١) وعن يعلى بن مُرّة قال: «خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إلَى الْجَبَّانَةِ حتّى أبْرَزْنَا. قَالَ: ويْحكَ انْظُرْ هَلَ تَـرَى مِنْ شَيْء يُوارِيني؟ قلتُ: مـا أَرَىٰ شَيْئاً يُواريكَ إلاَّ شجرةً مَا أراهَا تُوارِيكَ، قال فما قُرْبَهَا؟ قلتُ: شجرةٌ مِثْلُهَا، أو قريباً منها، قال: فاذْهَبْ إليْهما فقُلْ: إنّ رسُولَ اللّه ﷺ يأمُرُكُمـا أنْ تَجتمعا بـإذْنِ اللّهِ تعالى، قال: فاجْتَمَعَتَا، فَبرَزَ لِحَاجَتِهِ، ثُمَّ رَجَعَ فقال: اذْهَبْ إلَيهِمَا: فَقُلْ لَهُما: إنَّ رسُولَ اللّهِ ﷺ يأمُرُكُمَا أنْ تَرْجعَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا إلى مَكَانِها، فَرَجَعَتْ»(٢) وقـال ابن كثير في البداية والنهاية(٣) قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية؛ ثنا الأعمش عن أبي سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن أنس قال: «جَاءَ جبريلُ إلى رسُولِ اللّه ﷺ ذاتَ يَوْمٍ، وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينٌ قَدْ خُضّبَ بالدِّمَاءِ مِنْ ضَرْبَةِ بَعْضِ أَهْلِ مَكّةَ، قال: فقال لَهُ: مَالَكَ؟ فقال: فَعَلَ بِي هؤلاءِ وفَعَلُوا، قال: فقال لَهُ جبْريـلُ: أتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيةً؟ قال: فقال: نعم، قال: فَنظَرَ إلَى شَجرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي فقـال: ادْعُ تِلْكَ الشّجَرَةِ، فَدَعَاهَا. قال: فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّى قَـامَتْ بَيْنَ يَديْـهِ، فقال: مُـرْهَا فَلْترجع، فأمرها فَرَجَعَتْ إلى مكانِهَا، فقال رسُولُ اللّه ﷺ: حَسْبِي» قـال الحافظ ابن كثيـر: وهذا إسنـاد على شرط مسلم، ولم يـروه إلّا ابن ماجـة عن محمد بن طريـف عن أبي معاوية.

قلت: إنّ انْقِيـادَ الشّجرةِ للنّبِيّ ﷺ كـالبعيـر المخـطوم من أنفـه، وكـذلـك انقياده ﷺ للشجرة الثانية، والتئـام بعضهما إلى بعض، ثم افتـراقهما، وعـودةُ كُلِّ شجرةٍ إلى مكانها، وقيامها فيه أمـرٌ بالغ في الإعجاز النبـويّ المحمديّ، ومـا كانَ للشجرة أن تأتيَ إليه ﷺ إلاَّ بدعْوتِهِ لها، وبإذن من الله تعالى الذي يَقْلِبُ حقـائق الأشْياء مُعجزاتٍ للأنبياءِ، وبهذه المعجـزة نصل إلى دَرَجَةِ اليقين بـأنَّ اللّهَ تعالى قـادرٌ على أن يُسمعَ مَـا ليْسَ من شأنـه الاستماع، وأن يُمشي مـا ليس من شـأنـه الانتقال من مكان إلى مكان بدون أرجل ولا أقدام، وأن يُنطقَ الشَّجرَ والْحَجَرَ بُدُون لهاةٍ ولا لِسَانٍ ليتَّعظَ النّاسُ بها، وليعلموا أنها لا تَحْدُثُ إلَّا بأمرٍ من اللّه تعالى على

(١) ورواه البغوي في شرح السنة والطبراني وأحمد والبيهقي.
(٢) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٢٩٧، وهو في البداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ١٢٣.
(٣) جـ٦ ص ٢٩٧.

يَدِ نبيّ من أنبيائه تأكيداً لصدق رسالته، وتأييداً لِدَعْوتِهِ، وتفريجاً لهمومه وأحزانه، وكيداً لأعدائه، قال البيهقيُّ: أنا الحاكمُ، وأبو سعيد بن عمرو، قالا: ثنا الأصمُّ، ثنا أحمدُ بن عبد الجبار عن يونس بن بكير، عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: «**خرج رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى بَعْضِ شِعَابِ مكة، وقد دخله مِنَ الْغَمِّ ما شَاءَ اللَّهُ من تكذيب قوْمه إيَّاهُ، فقال: يا ربِّ أرني ما أطمئنُّ إلَيْهِ، ويُذهبُ عنّي هذا الغمّ، فأوحى اللَّهُ إليه: ادْعُ إلَيْكَ أيَّ أغْصَانِ هٰذِهِ الشّجرَةَ شِئْتَ، قال: فَدَعَا غُصْناً فانْتُزِعَ مِنْ مكانِهِ، ثم خدّ في الأرض حتّى جاءَ رسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارْجِعْ إلى مكانِكَ، فَرَجَعَ فَحمِدَ اللَّهَ رسُولُ اللَّهِ، وطابَتْ نَفْسُهُ، وكَانَ قد قال المشركون: أفضلتَ أباكَ وأجْدَادكَ يا مُحَمَّدُ فأنزل اللَّهُ: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تأمُرُوني أعْبُدُ أيُّها الْجَاهِلُون»** الآيات. قال البيهقيُّ: وهذا مرسلٌ يشهدُ لَهُ ما قبله[1]. قلتُ: والحديث المرسل في اصطلاح المحدّثين هو الحديث الذي رواه التابعيُّ عن رسُولِ اللَّه ﷺ، وأسقط من إسناده الصحابي كما هنا في هذا الحديث حيث أسقط الحسنُ البصريُّ الصّحابيَّ. الذي بينه وبين الرسُول ﷺ، ولم يذكره. وقد اختلف الأئمة المحدّثون في جواز الاحتجاج به، فأجازه بعضهم بشروط معيَّنة، وعن أشخاص معيّنين، واعتبرها البعض الآخر مُعلَّلَةً ضعيفةً لا يحتجُّ بها، ورواية الحسن البصري المرسلة قويّة ويحتجُّ بها كما هو منصوص عليه في موضعه واللَّهُ أعلم.

مُعجزَةُ كَلامِ الذِّئْبِ لَهُ ﷺ وإقرارِه لَهُ بالرِّسالةِ

في السّيرة النبويّة لأحمد بن زيني الدُّحْلان[2]: روى الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ جيّد، والترمذيُّ والحاكم بإسنادٍ صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّهُ عنه قال: «**عَدا الذّئبُ عَلَى شَاةٍ، فَأَخَذَهَا، فطلبَهُ الراعي، فانتزَعَها مِنْهُ، فأقْعَىٰ الذّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ يُكلّمنِي بِكلامِ الإنْسِ، فقال الذّئبُ: ألا أُخْبِرُكَ بأعْجَبَ منْ ذٰلِكَ! محمَّدٌ بيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ**» وفي لفظٍ: «**يَدْعُو النَّاسَ إلَى الْهُدَىٰ، وإلى الْحقِّ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَهُ**» قال أبو سعيد: «**فأقبلَ الرّاعي يَسُوقُ غَنَمَهُ حتَّى دَخَلَ**

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ١٢٤.
(٢) جـ٣ ص ١٣٥

الْمَدِينَةَ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فأخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنُودِيَ بالصَّلاةِ جامِعَةً، ثمّ خرجَ فقال للأعرابي: أَخْبِرْهُمْ. أي بما شاهدْتَهُ» وروى قصَّةَ كلام الذئب أيضاً أحمدُ عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه والبيهقيُّ عن ابن عمر رضي اللَّهَ عنهما، وأبو نعيم عن أنس رضي عنه، وروى سعيدُ بن منصُور عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال: «جَاءَ الذِّئْبُ فأقْعَى بَيْنَ يدي النبيِّ ﷺ، وجَعَلَ يُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ. أي يحركه. فقال ﷺ: هٰذا وَافِدُ الذّئابِ جاءَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا لَهُ مِنْ أمْوالِكُمْ شيْئاً، قَالُوا: واللَّهِ لَا نَفْعَلُ!، وأخَذَ رَجُلٌ منَ الْقَوْمِ حجَراً، ورَمَاهُ بِهِ، فأدْبَرَ الذِّئْبُ، ولَهُ عُواء، فقال ﷺ: الذِّئْبُ ومَا الذِّئْبُ»؟ وهذا الاستفهامُ تفخيماً لأمره!! إنّ لهذا الأمر شأناً عظيماً، من إيمان الذّئاب من الحيوانات به ﷺ، وتكذيبُ بني الإنسان له!!، ومنع الذئب حقّه!!

وقال ابن كثير في البداية والنّهاية[1]: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيدُ، ثنا القاسم بن الفضل الحداني عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: «عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ فَأَخَذَهَا، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فانْتَزَعَهَا مِنْهُ، فأقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ، فقال: ألَا تَتَّقِي اللَّهَ؟ تنْزِعُ منّي رِزْقاً سَاقَهُ اللَّهُ إليَّ؟ فقال: يا عَجبِي! ذِئْبٌ يُكلّمُنِي كلَامَ الإِنْسِ! فقال الذِّئْبُ: ألَا أُخبرُكَ بأعْجَبَ مِنْ ذلِكَ؟ محمَّدٌ ﷺ بيَثْرِبَ يُخبرُ النَّاسَ بأنْبَاءِ مَا قدْ سَبَقَ. قال: فأقْبَلَ الرّاعي يَسُوقُ غَنَمَهُ حتَّى دَخَلَ المدينَةَ، فزَواهَا إلى زاوِيَةٍ من زَوَايَاهَا، ثُمَّ أَتَى رسُولَ اللَّهِ ﷺ فأخْبَرَهُ، فأَمَرَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنُودِيَ الصَّلَاةُ جامعةٌ، ثمّ خَرَجَ فقال للرّاعي: أخبرهُمْ، فأَخْبَرَهُمْ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: صَدَقَ والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُكلِّمَ السِّباعُ الإِنْسَ. ويُكلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطه، وشِرَاكُ نَعْلِهِ، ويُخَبِرُهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أهْلَهُ بَعْدَهُ» قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسنادٌ على شرط الصّحيح، وقد صحّحه البيهقيُّ، ولم يروه إلَّا التّرمذيّ من قوْله: «والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يكلِّمَ السِّباعُ الإِنْسَ» إلى آخره، عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن القاسم بن الفضل. ثم قال: وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ لا نعرفه إلا من حديث القاسم، وهو ثقةٌ مأمونٌ عند أهل الحديث،

---

(١) جـ٦ ص ١٤٣

وثقه يحيى وابنُ مهدي . . . وقد روى ابن كثير عدَّة روايات عن كلام الذئب. وقال أخيراً: وقد تكلّم القاضي عياض على حديث الذئب، فذكر عن أبي هـريرة، وأبي سعيد، وعن أهبان بن أوس، وأنّه كان يُقال لَهُ: مُكلّم الذئب. قال: وقد روى ابن وهب أنّه جرى مثل هذا لأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أميّة. مع ذئب وجداهُ أَخَذَ صبيّاً، فَدَخَلَ الصَّبِيُّ الحرمَ، فانصَرَفَ الذّئْبُ، فعجبَا مِنْ ذٰلِكَ، فقال الذّئْبُ: أَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بالمدينَةِ يَدْعُوكُمْ إلى الجنَّةِ، وتَدْعُونَهُ إلى النّارِ، فقال أبو سُفيان: واللّاتِ والْعُزَّى لأن ذكرتُ هذا بمكّة ليتْركنّها أهْلُوهـا»[1] وأحاديث روايات الذئب، وكلامه كثيرة جدّاً ومتنوّعة في صيغها، مشهورة في إسنادها، كما أوقفتك عليها.

قلتُ: إنّ في كلام الذّئْب، والتَّنبيهِ بهِ علَى رسالة المصطفى ﷺ، بأنّه يدعو النّاسَ إلى اللَّهِ تعالى لأمراً عظيماً، ومعجزةً كبرى على صدق الرسالة المحمّديّة بأنّه رسُولُ اللَّهِ حقّاً؛ لا ينـطقُ من عنَد نَفْسـه؛ بل هـو وحيٌ يوحى بـه من عند ربّـه، لأنّه ﷺ لا علْمَ لَهُ بأحداثِ الأوّلين، ولا علم له بأنباء المرسلين السـابقين، فكَوْنُ الذّئبِ يعلَمُ أنه ﷺ رسُولٌ من عند اللّه، وأنّه يُخبر النّـاسَ بأنبـاءِ الأمم الماضيـة، فهـذا يعني أنّ اللَّهَ تعالى هـو الذي أجـرى هذا الكـلام على لسانـه لإقام الـدليل الصَّادق على صدق رسالة نبيّه محمّد ﷺ، وآية ذلك شهادة الذئب لَـهُ بالـرسالـة، وشهادتُه بأنّه يخبرُ النّاسَ بأنباء من سبق. وهو حيوان في عرف البشر أنه لا ينطقُ ولا يتكلم، وما كان اللَّهُ لينُطقه لولا هذا الغرض، وبما أنّه نطق وشهد بالّذي قد علمته فتكون قد قامت المعجزةُ، وتمّ أمرُ اللّه في هذا الحـدثُ الخارق لقوانين الطبيعة، وكلنا يعلم أن للذئب، وبقية الحيوانات ألسنةً، وحناجـر بَلْعُوميّـةً، فيمكنها النـطق والكلام لولا أنّ اللَّهَ ألجمها عن الكلام لأسرار خفيت علينا، وإذا شاء اللَّهُ إطلاقها أطلقها، كما ثبت في كلام البقرة، الذي حدَّث به النبيُّ ﷺ أصْحَابَـهُ: بينما كـان رجلٌ يحملُ على بقرة، فالتفتتْ إليه وقالت: لم أُخلق لهذا. فكان أوّلُ المصدّقين بهذا الحديث أبو بكر وعمر رضي اللَّهُ عنهما ذكر الحاكم في مستدركه: «بَيْنَما رَجُلٌ

---

(١) جـ٦ ص ١٤٦ من البداية والنهاية لابن كثير

يَسُوقُ بَقَرَةً إذْ تكلّمتْ، فَقَالُوا: سُبحانَ اللَّهِ! بَقَرَةٌ تتكلّم. قال: آمَنْتُ بِذلِكَ أَنَا وأبُو بكر وَعُمَر»(١) وفي آخر كتاب المجالسة لأحمد بن مروان المالكي الدينوري بإسناده إلى عكرمة عن ابن عبّاسٍ رضي اللَّهُ عنهما قال: «مرّ عيسى عليه السَّلامُ ببقرةٍ قدِ اعترضَ ولدُها في بطنها، فقالتْ: يا كلمةَ اللَّه! ادْعُ اللَّهَ أن يُخلّصَني. فقال: يا خَالِقَ النَّفْسَ من النَّفْسِ، ويا مُخْرِجَ النَّفْسَ مِنَ النّفْسِ خلِّصْهَا. فألْقَتْ مَا في بَطْنِها» قال: فإذا عَسُرَ على المرأةِ ولدُها فليكتب لها هذا. قال ابنُ عبد البر وغيره: كَلَّمَ الذّئْبُ مِنَ الصّحابة ثلاثةً: رَافعَ بنَ عميرة، وسلمةَ بنَ الأكوَع، وأهْبَانَ بْنَ أوسٍ الأسلميّ رضي اللَّه تعالى عنهم، قال: ولذلك تقُولُ العربُ: هُو كذئب أهبان يتعجّبُون مِنْهُ، وذٰلكَ أنَّ أهبان بنَ أوس المذكور كان في غَنَم لَهُ، فشدَّ الذئبُ عَلَى شَاةٍ مِنْهَا، فصَاحَ بهِ أُهْبَانُ، فأقْعَى الذّئبُ، وقال: أتَنْزِعُ منّي رزْقاً رَزَقَنيهِ اللَّهُ تعالى!! فقال أُهْبانُ: مَا سَمِعْتُ ولا رأيْتُ أعْجَبَ من هذا ذئْبٌ يتكلّم! فقال الذّئبُ: أتَعْجَبُ مِنْ هٰذَا، ورسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ هٰذِهِ النّخلاتِ، وأوْمأَ بِيَدِهِ إلى المدِينَةِ، يُحَدِّثُ بِمَا كَانَ، وَبِما يكُونُ، ويَدْعُو النَّاسَ إلَى اللَّهِ، وَإلَى عِبادتِهِ، وهُمْ لا يُجيبُونَهُ. قال أُهْبانُ بنُ أوْسٍ: فَجِئْتُ النبيَّ ﷺ، وأخْبَرْتُه بالقِصَّةِ، وَأَسْلَمْتُ، فقال لي: حدِّثْ بِهِ النَّاسَ. قال عبدُ اللَّهِ بنُ أبي داود السّجستاني. الحافظ: فيقال لأُهبان مُكلّمُ الذئب، ولأولاده أولاد مكلّم الذئب، ومحمد بن الأشعث الخزاعي من ولده، واتّفق مثلُ ذلك لرافع بن عميرة، وسلمة بن الأكوع. انتهى. وقال البخاريُّ: أنبأنا شعيب عن الزّهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنّ أبا هريرة رضي اللَّهُ عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:بيْنَما راعٍ في غَنَمِهِ إذْ عدا عليْهِ الذّئْبُ، فأخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فالْتَفَتَ إلَيْهِ الذّئْبُ، وقال: من لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، لا راعيَ لَهَا غيْري، وبيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عليْهَا، فالْتَفَتَتْ إلَيْهِ، وكلّمتْهُ، فقالتْ: إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، ولكنّي خُلقْتُ للحرث فقال النّاسُ: سُبحَانَ اللَّهِ! ذئْبٌ يتكلّمُ، وبقرةٌ تتكلّمُ!! فقال النبيُّ ﷺ: آمَنْتُ بِذلِكَ أنا وأبو بكرٍ وعُمَرُ»(٢) وفي هذه الأحاديث دلالة عَلَى ظهُور بعض الآيات الدّالة على قُرب قيام

---

(١) انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري جـ١ ص ١٣٥.
(٢) ذكره الدميري في حياة الحيوان جـ١ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

السَّاعة من كلام الجماد من شجر وحجر وحيوان، ويدلُّ عليه ما أخرجه البخاريُّ بقوله: حدَّثنا الحكَمُ بنُ نافعٍ، أخبرنا شُعيْبٌ عَنِ الزُّهْري، قال: أخْبَرَني سَالِمُ بنُ عبْدِ اللَّهِ أنّ عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَر رضي اللَّهُ عنهما قال: «**سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ: تُقاتِلُكُمُ الْيَهُودُ، فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، حتَّى يقُولَ الْحَجَرُ: يا مُسْلِمُ! هٰذا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فاقْتُلْهُ**»(١) وظاهره أن الحجر ينطق في ذلك اليوم حقيقة إكراماً لهذه الأُمّة، وبياناً لفضلها على سائر الأمم، وهذا لا يكون إلا في آخر الزمان لما في رواية أحمد من طريق أخرى عن سالم عن أبيه «**ينزلُ الدَّجَّالُ هٰذِهِ السَّبخة - أي خارج المدينة - ثُمَّ يُسَلِّطُ اللَّهُ عليه الْمُسلِمينَ فَيَقْتُلُونَ شِيعتَهُ، حَتَّى أنَّ الْيَهُودِيَّ ليختبِىءُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، والْحَجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ والشَّجَرُ لِلْمُسْلِم: هٰذا يَهُودِيٌّ فَاقْتُلْهُ**» قُلتُ: وهذا يعني أنّ الشّجرَ والحجرَ، أنصارٌ للمسلمين، وأعداءٌ لليهود المجرمين، لأنّ نُطقَ الشجر والحجر في ذلك اليوم بأمر اللَّه، وبنطقهما يُرشدان المُسلمَ إلى مكان أعداء اللَّه، فيقتُلُهُمُ المُسلمونَ شرَّ قتلة، ويريحون أهل الأرض من فسادهم وطغيانهم، وهو واقعٌ - إنْ شاء اللَّه - ولكنّه في وقت نزول عيسى عليه السلام من السماء كما وقع صريحاً في حديث أبي أُمامة في قصّة خروج الدَّجال، ونزول عيسى وفيه «**وراءُ الدَّجالِ سَبْعُونَ ألفَ يَهُودِيّ كُلّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحلَّى، فَيُدْرِكُهُ عيسىٰ عنْدَ بابِ لُدّ، فيقْتُلَهُ، وينهزم الْيَهُودُ، فَلاَ يَبْقَىٰ شَيْءٍ مِمَّا يَتَوارى بِهِ يَهُودِيٌّ إلَّا أنْطَقَ اللَّهُ ذلك الشيءَ فقال: يا عبدَ اللَّه! - للمسلم - هٰذا يَهُودِيٌّ فتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إلَّا الغرقدَ فإنَّها مِنْ شجرِهِم**» أخرجه ابن ماجة مطوّلاً، وأصلُه عند أبي داود، ونحوه في حديث سمرة عند أحمد بإسناد حسن، وأخرجه ابن مندة في كتاب الإيمان من حديث حذيفة بإسناد صحيح(٢) واللَّهُ أعلم.

مُعْجِزَةُ مُخَاطَبَةِ الظَّبْيَةِ لَهُ ﷺ وَإِيمَانِهَا بِرِسَالَتِهِ

في البداية والنهاية لابن كثير(٣) أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه اللَّه

---

(١) فتح الباري جـ٦ كتاب المناقب ص ٦٠٤ - ٦٠٥ رقم الحديث (٣٥٩٣).
(٢) ذكره الحافظ في الفتح جـ٦ ص ٦١٠.
(٣) جـ٦ ص ١٤٧.

في كتابه دلائل النُّبوّة بسَنده عن أنس بن مالك قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية، فشدُّوها على عمود فسطاط، فقالت: يا رسول اللَّه! إنّي أُخِذْتُ وَلِيَ خِشْفَان، فاسْتَأْذِنْ لي أَرْضِعُهُمَا، وأَعُودُ إِلَيْهِمْ، فقال: أين صَاحِبَ هٰذِهِ؟ فقال القوْمُ: نَحْنُ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: خَلُّوا عَنْهَا حتّى تأتي خِشْفَيْهَا ترضِعُهُما، وَتَرْجِعُ إِلَيْكُمْ، فَقَالُوا: مَنْ لَنَا بِذَلِكَ؟ قال: أنا، فأطْلَقُوهَا فَذَهَبَتْ، فَأَرْضَعَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ فَأَوْثَقُوهَا، فَمَرَّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: أَيْنَ أَصْحَابُ هٰذِهِ؟ فَقَالُوا: هُوَذَا نَحْنُ يا رَسُولَ اللَّه! فَقَال: تبيعُونَهَا؟ فقالُوا: هي لَكَ يا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: خَلُّوا عَنْهَا، فأطْلَقُوهَا فَذَهَبَتْ».

وأَخرج أبو نعيم بسنده عن أُمّ سَلَمَةَ: زَوْجِ النبيِّ ﷺ قالت: «بَيْنَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ في حُجْرٍ من الأَرْض إِذَا هَاتِفُ يَهْتِفُ: يا رَسُولَ اللَّهِ! يا رَسُولَ اللَّهِ! قال: فالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ أَحَداً، قال: فَمَشَيْتُ غَيْرَ بَعِيْدٍ فَإِذَا الهاتِفُ يهتف: يا رَسُولَ اللَّهِ! يا رِسُولَ اللَّهِ! فَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ أَحَداً، وَإِذَا الْهاتِفُ يَهْتِفُ بي، فَاتّبَعْتُ الصَّوْتَ. وَهَجَمْتُ عَلَى ظَبْيَةٍ مشدُودَةٍ في وَثَاقٍ، وإِذَا أعْرابيٌّ مُنْجَدِلٌ في شَمْلَةٍ نائِمٌ في الشَّمْسِ. فَقَالَتْ الظَّبيةُ: يا رَسُولَ اللَّه! إنَّ هٰذَا الإعْرَابيَّ صَادَنِي قَبْلُ، وَلِي خِشْفَانِ في هَذا الْجَبَلِ، فإنْ رأيْتَ أَنْ تُطْلِقَنِي حتّى أُرْضِعَهُمَا، ثُمَّ أَعُودُ إلى وثَاقي؟ قال: وتفعلينَ؟ قالت: عَذَّبَنِي اللَّهُ عَذَابَ العشارِ إنْ لم أَفْعَلْ، فأَطْلَقَهَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَضَتْ فَأَرْضَعَتْ الخِشْفَيْنِ وجَاءَتْ، قال: فبيْنَما رسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوثِقُهَا إذ انْتَبَهَ الأعْرَابيُّ، فقال: بِأَبي أنْتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! إنّـي أَصَبْتُهَا قُبيْلًا، فَلَكَ فِيهَا حَاجَةٌ؟ قال: قُلْتُ: نَعَمْ. قال: هيَ لَكَ، فَأَطْلَقَهَا فَخَرَجَتْ تَعْدُو في الصَّحْراءِ فَرحاً، وَهِيَ تَضْرِبُ بِرِجْلَيْهَا في الأَرْضِ، وتقُولُ: أَشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّكَ رسُولُ اللَّهِ»

قال أبو نُعيم: وَقَدْ رواهُ آدم بن أبي إياس، فقال: حدَّثني حُبّي الصَّدُوق، نوح بن الهشيم، عن حبان بن أغلب، عن أبيه، عن هشام بن حبان، ولم يجاوزه به. قال الحافظ ابن كثير: وقد رواهُ أبو محمد عبداللَّه بن حامد الفقيه في كتابه دلائل النّبُوّةِ من حديث إبراهيم بن مهدي عن ابن أغلب بن تميم، عن أبيه عن هشام بن حبان عن الحسن بن ضبة بن أبي سلمة به *

وأخرج الحافظ أبو بكر البيهقيُّ بسنده عن أبي سعيد قال: «مَرَّ النبيُّ ﷺ بِظَبْيَةٍ مَرْبُوطَةٍ إلى خِباء، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ! خَلِّنِي حتَّى أَذْهَبَ فَأُرْضِعَ خِشْفيّ، ثمّ أرْجِعَ فَتَرْبِطَني، فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: صَيْدُ قَوْمٍ، وَرَبيطَةُ قَوْمٍ! قال: فَأَخَذَ عَلَيْهَا فَحَلَفَتْ لَهُ، قال: فَحَلَّهَا، فَمَا مَكَثَتْ إلاَّ قليلاً حَتَّى جَاءَتْ وَقَدْ نَفَضَتْ مَا في ضَرْعِهَا، فَرَبَطَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَى خباء أصْحَابِهَا، فاسْتَوْهَبَهَا مِنْهُمْ فَوَهَبُوهَا لَهُ فَحَلَّهَا، ثُمَّ قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ ما تَعْلَمُونَ، ما أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً أَبَداً» قال البيهقيُّ: ورُوي من وَجْهٍ آخر ضعيف[1] اهـ.

قلتُ: إنّ كثرة طرق كلام الظبية كثيرة يُقوِّي بعضُهَا بعضاً، وتُثبتُ بأنّ للقصّة ـ كما قال السيوطي ـ أصْلاً. وعليه فإن الحافظَ ابن كثير لم يضعّفْ حديثاً ممَّا سُقْتُهُ لك من بدايته ونهايته[2].

ومما عُرف عنهُ أنّه لا يسكُتُ عن الحديث الضّعيف، بل ينبّه عليه، ودليل سكوتِهِ قرينة على صحّة ما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه دلائل النبّوة، وما ذكره الحافظ أبو بكر البيهقي، ومن عادتهما التنبيه دائماً على الحديث المنكر، أو الضعيف، فنخلصُ إلى قول السّيوطي: للحديث طرق كثيرة تشهدُ بأنَّ للقصّة أصلاً *

قلتُ: إنَّ مَعْرِفَةَ الظَّبية لرسول اللَّه ﷺ حين مرَّ بها، وهي أسيرةٌ، ومشدُودة إلى العمد، واستشفاعها به عند الإعرابي الذي صادها لتذهبَ تُرضع خِشْفَيْهَا ثم تعود إليه لأمْرٌ لا يُسْتَبْعَدُ عقلاً بعد ثبوت معرفة الشَّجرِ والحجر والحيوان له ﷺ، وسلامها عليه، وإيمانها برسالته، وقد ثبت في المعجزة المتقدّمة كلام الذئب، وحَثُّه للنّاس على الإيمان به ﷺ، وأنّه أخبرهم بكلام فصيح بأنّه ﷺ بالمدينة، وأنّه

---

(١) البداية والنهاية جـ٦ ص ١٤٨، وهو في الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ١ ص ٢٠٧، وفي دلائل النبوة للأصبهاني ١٣٣، وقد ذكره السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى جـ٢ ص٦٠، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم عن أم سلمة، وقال السيوطي: في إسناده أغلب بن تميم ضعيف لكن للحديث طرق كثيرة تشهدُ بأنّ للقصّة أصلاً.

(٢) جـ٦ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

يخبر الناسَ بأنباء الأمم السابقة، وإذا كان الأمرُ كذلك فيُصْبحُ من المعقُول والمنقول جواز مخاطبة الظبية له ﷺ باسم الرسالة إيماناً منها به ﷺ، وأنّه يقدر على حلّ قيدها، وكَفَالتها ريثما تُرضع خِشْفَيْهَا ثمّ ترجعُ إليه، وقد أراد المصطفى ﷺ أنْ يَسْتَوثِقَ من رُجُوعها، فحلفت باللّه أنها إذا لم ترجع فليعذبها اللّه عذاب العِشار. أي الظباء الحديثات العهد بالولادة، وهو سرٌّ لم يُكشف عن معنى العِشار بالضبط. لقد مدَّ رسولُ اللّهِ ﷺ يده المباركة إليها، وحلّها من قيدها، وانطلقت تعدو حتى أتت خشفيْها، فأرضعتْهُما، ثم عادت أدراجها إلى رسُول اللّه ﷺ، وهو قائمٌ ينتظرها، وعندما أعادها إلى رباطها احسّ صائدُها، ونظر وإذا برسول اللّه ﷺ عند الظبية يُحكم رَبْطَهَا، وَهنا يَسْأَل الأعَرابيّ رسول اللّه ﷺ: أَلَكَ بِهَا حَاجَةٌ يا رَسُولَ اللّهِ! قال: نعم. أنْ تُطْلقَ سَرَاحَهَا، وتمَّ الأمرُ، وولت الظبيَةُ تضربُ برجليها الأرضَ فرحاً، وهي تقول: لا إله إلاَّ اللّهُ مُحَمّدٌ رسولُ اللّه. وهذا يعني أنّ البهائم تعرف اللّهَ، وتُومنُ بِهِ، وتخافُ عَذَابَهُ، وأنَّهَا مما تُحَاسبُ يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] «الوحوش» هي دوابّ البرّ «حُشِرَتْ» أي جمعت يوم القيامة ليقتصّ لبعضها من بعض، في أبي السعود؛ قال قتادة: يُحْشَرُ كل شيء للقصاص، فإذا اقتصّ منها رُدّت تُراباً، فلا يَبْقىٰ منها إلاَّ ما فيه سُرورٌ لبني آدم، وإعجاب بصورته كالطّاوس ونحوه *

ومن قصيدة لصالح الشافعي:

وجاء امرؤ قد صاد يوماً غزالةَ ∴ لَهَا وَلَدٌ خِشْفٌ تَخَلَّفَ بالكدا
فَنَادَتْ رسُولَ اللّهِ والقومُ حُضّرٌ ∴ فأطْلَقَهَا والقومُ قَدْ سَمِعُوا النّدا
وَحَنّ إليْهِ الجِذْعُ شوقاً ورقّةً ∴ ورجّع صوتاً كالعِشَارِ مردّداً
فَبَادَرَهُ ضَمّاً فقرَّ لِوَقْتِهِ ∴ لِكُلِّ امرئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تعوَّدا

وسلام الشجر والحجر عليه ﷺ، وإيمان الذئب والظبية به ﷺ لم يثبت لواحد من الأنبياء إلاَّ له ﷺ، لأنه إمامُهم، ونبيُّهم وخاتمهم وشفيعهم يوم لا شفيع إلاَّ هو، فلا عجب إذا أقرّت جميع الكائنات بما فيها وما عليها برسالته ﷺ لأنه الرحمة العظمى لمخلوقات السّمٰوات والأرض، ومن أجل هذا علمتِ الظبيةُ بأنَّه ﷺ

سيشملها برحمته، ويُطلقُ سراحها، وتعيش آمنةً مطمئنـةً بجوار صغـارها، وبلغت بحمد اللّه ذلك المبلغ بما نالها من بركته ورحمته ﷺ، وإذا كانت الحيوانات تعرف منزلة النبيِّ محمّد ﷺ بأنّه مرسلٌ من عند اللّه حقّاً وصدقاً فما بـالك بمن عـاداهُ وآذاهُ، وكفر به، وحـرَّض النّاسَ على قتله من أبنـاء البشر! حقّـاً إنَّهُ لأمْـرٌ عجيبٌ ومريبٌ بعد أن شاهدُوا بأمّ أعينهم أُمّهات معجزاته ﷺ مثل معجزة انشقاق القمر، ونطق الشجر والحجر والحيوانات بنبّوته، والإشادة برسالته!! ومن هنا نُدرك سرَّ قوله تعـالى لنبيِّـه ﷺ: ﴿إِنَّـكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ﴾ [القصص: ٥٦] أي إنّك يا محمّد لا تستطيعُ أن تهدي الناسَ بدعوتك إلى الإسلام، وإنما عليك البلاغ فقط. ذلك أن اللّه تعالى يقذف في القلب نورَ الهداية فينشرح الصدْرُ للإيمان ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بمن قُدِّرَ لهُ الهدى، في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» نزلت في رسُول اللَّهِ ﷺ حَيْثُ راود عَمَّهُ أبا طالب على الإسلام، وذٰلِكَ أنّ النبي ﷺ قال لأبي طالب عند الموت: يا عمّ قُلْ لا إله إلاّ اللّه أشْهَدُ لكَ بها يَوْمَ القيامَةِ، قالَ: لولا أن تعيرني قريش يقُولـون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك. ثم أنشد:

ولـقــدْ عَـلِمَـتُ بـأنَّ دينَ مُـحـمَّـدٍ ∴ مِــنْ خـيْـرِ أدْيـانِ الْـبـريَّـةِ دِيـنَـا
لَــوْلَا المــلامَـةُ؛ أَوْ حَـذَارِ مَسَـبَّـةٍ ∴ لَـوَجَـدْتَنِي سَـمْـحَـاً بِــذَاكَ مُـبينـاً

ولكن على ملّة الأشياخ: عبد المطلب، وعبد منـاف، ثم مات، فـأنزل اللّهُ هذه الآيةَ ﴿وقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَـا﴾ [القصص: ٥٧] يعني مكة: نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنَّه قال للنبيّ ﷺ: إنَّا لنعلَمُ أنَّ الذي تقولُ حقٌّ، ولكن إن اتّبعْناك على دينك خفنا أن تخرجنا العربُ من أرض مكة قال اللّهُ تعـالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمكّنْ لَهُمْ حَرَمـاً آمِناً﴾ وذلـك أن العرب كـانت في الجاهليـة يغير بعضهم على بعض، ويقتُـلُ بعضهم بعضاً، وأهـل مكة آمنُون حيث كانُوا، لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباءُ، والذئابُ والحمامُ من الحدأة.(١) أي من لجأ من الحيوانات إلى الحرم من مطاردة الجوارح

(١) الخازن جـ٣ ص ٤٠٩ في تفسير الآية.

له عصمها اللَّهُ منها، وهذا سرٌّ عظيم من أسرار اللَّه في هذه المخلوقات، حمامة يُطاردها صقرٌ فما أن تدنو من الحرم إلا ويتركها الصقر، ويرجع صفر اليديْن، لكأنه يعلم هو وأمثاله من الجوارح حكْمَ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذا دليل بيّن على أنّ الجوارح والكلاب لا تهيّج الظّبَاءَ ولا الطير ولا تصطادها في الحرم، فهو آية من آيات اللَّه المذكورة في قوله تعالى: ﴿فيه﴾ أي الحرم ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي فيه دلالات واضحات على حرمته، ومزيد فضله، وهي ﴿مَقَامُ إبْراهيم﴾ يعني الحجر الذي كانَ يقوم عليه عنْدَ بناء البيْت، وكان فيه أثر قدمي إبراهيم كما هو موجود في مكّة حرسها اللَّه حتَّى يومنا هذا. ومنها ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ والحمدُ لله على دين الإسلام، الذي أكرمنا اللَّهُ به، وهدانا إليه، وما كنّا لنهتديَ لولا أن هدانا اللَّه.

مُعْجِزَةُ سُجُودِ الْجَمَلِ لَهُ ﷺ وشكْوَاهُ إليْه

في السيرة النبويّة الدّحْلانيّة[1]: روى الإمام أحمدُ، والنّسائيُّ بإسنادٍ جيِّد عن أَنَس بن مَالِكٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ فِي أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنّونَ. أيْ يسقُون عليه، وأنّه اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ. أي الانتفاع به. فَجَاؤوا إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: إنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْني عَلَيْهِ، وأنَّهُ اسْتَصْعَبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطَشَ النَّخْلُ والزَّرْعُ، فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَدَخَلَ الْحَائِطَ. أي البُسْتَانَ، والجملُ في نَاحِيَةٍ، فَمَشَىٰ رسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوَهُ، فقالتِ الأَنْصَارُ: يا رسُولَ اللَّه! قَدْ صَارَ مِثْلَ الكلْبِ الكَلِبِ. أي العقُور، وإنَّا نَخَافُ صَوْلَتَهُ، فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ، فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ حتَّى خَرَّ سَاجِداً بيْن يَدَيهِ. أي واضعاً مشفره باركاً بيْن يديه. فأخذ رسولُ اللَّه ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أذَلّ مَا كَانَ قطّ حتّى أَدْخَلَهُ في العمل، فقال له أصْحَابُهُ: يا رَسُولَ اللَّه! هٰذِهِ بَهِيمَةٌ لا تَعْقِلُ، تَسْجُدُ لكَ، ونحن نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بالسُّجُودِ لَكَ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَوْ

---

(١) جـ٣ ص ١٣٣.

صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ المرأةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا من عِظَمِ حقّها عَلَيْهَا» ورواته ثقاتٌ مشهُورُون * وأخرجه الإمام أحمد في مُسنده[1] بسنده المتّصل عن عبداللّه بن جعفر بلفظ قال: «أَرْدَفَنِي رسُولُ اللّهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فأسرَّ إليَّ حديثاً لَا أُخْبِرُ بِهِ أحداً أبَداً، وكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَحَبَّ ما اسْتَتَرَ بِهِ في حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حائشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْماً حائِطاً مِنْ حيطانِ الأنْصارِ، فإذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، قال بَهْزُ وعَفَّانُ، فلمَّا رأى النَّبيَّ ﷺ حَنَّ، وَذَرَفَتْ عَيْناهُ، فَمَسَحَ رسُولُ اللّهِ ﷺ سَرَاتَهُ وذِفْرَاهُ فَسَكَنَ، فقال: مَنْ صاحِبُ الْجَمَلِ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأنْصَارِ، فقال: هُو لي يا رسُولَ اللّهِ، فقال: أمَا تَتَّقِي اللّه في هٰذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَهَا اللّهُ، إنَّهُ شَكَا إليَّ أنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ» وإسناده صحيح. مهدي بن ميمون الازدي البصري ثقةٌ. محمّدُ بن أبي يعقوب: هو محمد بن عبداللّه بن أبي يعقوب التّميمي الضّبّي البصري يُنْسبُ إلى جده، وهو ثقةٌ، والحديث روى مسلم بَعْضَهُ[2].

الهَدَفُ: بفتحتين قال الخطاب في المعالم:[3]: كل ما كان له شخص مرتفعٌ من بناء وغيره، وقد اسْتُهْدِفَ ذلك الشيءِ إذا قام وانتصب لك. حائش:نخل. قال الخطابيُّ: الحائش جماعة النّخل الصّغار لا واحد لهُ من لفظه * وقال ابن الأثير: الحائش: النّخلُ الملتف المجتمع كأنّه لالتفافه يحوش بعضه إلى بعض * سرَاتِهِ: بفتح السين وتخفيف الراء، وسراةُ كُلّ شيء: ظهره وأعلاه. ذِفْرَاهُ: بكسر الذال، وسكون الفاء. قال الخطابي: والذفر من البعير مؤخّر رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه. تُدْئِبُهُ: تكدّهُ وتُتْعِبُهُ من الدأب. ورواه أحمد من طريق آخر عن وهب بن جرير.

---

(١) جـ٣ ص ١٨٨.

(٢) جـ١ ص ١٠٥ و٢ ص٢٤٣. وكذلك ابن ماجة جـ١ص ٧٣، ورواه أبو داود مطوّلاً جـ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ كلهم من طريق مهدي بن ميمون.

(٣) جـ٢ ص ٢٤٨، وانظر الحديث في دلائل النبوّة للأصبهاني ص ١٣٥ ـ ١٣٦، والخصائص الكبرى جـ٢ ص ٥٧، والشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ١ ص٢٠٦.

وفي البداية والنهاية:[1] لابن كثير: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد وعفّان قالا: حدثنا حمّاد ـ هو ابن سلمة ـ عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيّب عن عائشة «**أن رسُولَ اللّه ﷺ كَانَ في نَفرٍ مِنَ المُهاجرين والأنصار، فجاءَ بعيرُ فَسَجَدَ لَهُ، فقال أصْحَابه: يا رسُولَ اللَّهِ تَسْجُدُ لكَ الْبَهَائِمُ والشّجَرُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أنْ نَسْجُدَ لَكَ، فقال: اعبُدُوا رَبَّكُمْ، وأكْرِمُوا أَخَاكُمْ، وَلَوْ كُنْتُ آمراً أَحَداً أنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المرأةَ أنْ تَسجُدَ لِزَوْجِهَا، ولَوْ أمرها أن تَنْقُلَ مِنْ جَبَلٍ أَصْفَرَ إلَىٰ جَبَلٍ أسْوَدَ، ومن جَبَلٍ أَسْوَدَ إلى جَبَلٍ أبْيَضَ كانَ يَنْبَغي لها أن تَفْعَلَهُ**» قال ابن كثير. وهذا الإسنادُ على شرط السنن.

قلتُ: إنَّ معرفة الجمل لرسول اللَّهِ ﷺ، وسُجُودَهُ لَهُ، وشكواهُ إليه،ورؤية الصحابة لذلك، واستغرابهم من هذا الأمر، قائلين حيوان لا عقل له يَسْجُدُ لرسُول اللّه ﷺ، فلماذا لا نسجدُ نحن العقلاء له، وليست الحيوانات أحقّ منّا بهذا السّجود!! ولكنّ رسُولَ اللّه ﷺ ينهاهم عن السجود له، ويُبيّن لهم أنّه لا يجوزُ لمخلوق أن يَسْجُدَ لمخلوق، ولا يجوز السّجُود إلا للخالق سبحانه وتعالى، وبرهن لهم بقوله: لو كان يجوز سُجُودُ المخلوقِ للمخلوقِ لكانت المرأةُ أحقّ بالسّجود لزوجها لما له عليها من الحقّ: ففي آخر حديث أحمد عن أنس: «**والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ كان ـ الزوج ـ مِنْ قَدَمِهِ إلَىٰ مَفْرق رأسِهِ قرحة تنفجرُ بالْقَيْح، والصَّديدِ، ثمَّ استقبلَتْهُ فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ**» قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد جيّد * إنَّ سجود الجمل معجزةٌ به ﷺ وليس هو سجودُ عبادة، بل هو سجود طاعةٍ وخضوع، وإجلال وتعظيم للمصطفى ﷺ وشكواهُ إليه بأن صاحبَهُ يُتعبُه، ولا يقدِّم له الطعام الذي يسدُّ رمقه مُعجزة أيضاً لرسول الله ﷺ حيث أطلعه اللّهُ على فحوى كلام البعير بأنّه قال كذا وكذا، وأعلم صاحبَه بما يشكو منه بعيره، وأنه هو ذا سبب استعصائه عليه، وعودةُ البعير إلى طاعته، وانقياده لصاحبه معجزة لرسول اللّه ﷺ، لأن طاعتَه لصاحبه كانت بسبب وساطة الرسول له عنده، وقيام البعير بالعمل على أتَمِّ وجه معجزة لرسول اللّه ﷺ حيث لم يُخلِفِ البعيرُ بما قطعه على نفسه من العمل والطاعة، ونستفيد من هذا الحديث أن الحيواناتِ، وعلى الأخص بهيمة الأنعام، والخيل

(١) جـ٦ ص ١٣٧.

والبغال والحمير، خُلقت خصّيصاً لخدمة الإنسان، وأن اللّه تعالى ذلّل رقابها، وأخضعها لهم على أيّ حال. قال تعالى: ﴿والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *وَالْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٥ ـ ٨] ﴿والأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ الأنعام عبارة عن الأزواج الثمانية، وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. قال صاحب الكشّاف: وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الإبل. وفي الخازن في تفسير الآية: لمّا ذكر اللّهُ تعالى أنّه خلق السّمٰوات والأرض، ثم أتبعَهُ بذكر خلق الانسان، وذكر بعض ما ينتفع به الإنسان في سائر ضروراته، ولمَّا كان أعظم ضروراته الأكل واللبس. اللذين يقُوم بهما بدنه بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك، وهو الأنعام، فقال: ﴿والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فيها دِفْءٌ﴾ قال الواحديُّ: تمَّ الكلام عند قوله ﴿والأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ ثم ابْتَدأ فقال: ﴿لَكُمْ فيهَا دِفْءٌ﴾ ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله ﴿لكُمْ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿فيهَا دِفْءٌ﴾ اهـ خازن. وتكون هذه الجملة حالية، وهذا الاحتمال الثاني هو الذي ينطبق عليه كلام الجلال. وقولُهُ ﴿ فِيهَا دِفْءٌ﴾ في المختار الدفء نتاج الإبل وألبانها، وما ينتفع به . واعلم أنّ منافع النعم منها ضرورية، ومنها غير ضرورية، واللّهُ تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية، فالمنفعة الأولى قوله ﴿لكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ والدفء ما يستدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها المتخذة من صوف الغنم، أو وبر الإبل، أو شعر المعز، قال الأصمعيُّ: ويكون الدفء السّخونة﴿ومَنَافِعُ﴾هي نسلها ودرّها وركوبها، والحمل عليها والحراثة بها، وغير ذلك. وإنَّما عبّر تعالى بلفظ المنفعة، وهو اللفظ الدالّ على الوصف الأعم، لأنّ النسل والدرّ قد ينتفع به في الأكل، وقد يُنتفع به في البيع بالنقود، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضّروريات فعبّر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل.﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني من لحومها، وتقديم الظرف للإيذان بأنّ الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده النّاس في معايشهم، وأمَّا الأكل من غيرها كالدّجاج والبط وصيد البرّ والبحر فيشبه غير المعتاد ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جمالٌ﴾ أي زينة أعين الناس، ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُريحُونَ﴾ تردُّونها من مراعيها إلى مراحها

بالعشيِّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ جمع ثقل، وهو متاع المُسافر، وقيل: أثقالكم أجرامُكُم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ غير بلدكم اردْتُم السفر إليه ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنْفسكُمْ مجردين عن الأثقال لولا الإبل ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ أي إلَّا بكلفة ومشقّة، والشقّ أيضاً نصف الشيء، والمعنى على هذا لم تكونُوا بالغيه إلَّا بنقصان قوّة النّفس، وذهاب نصفها ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم، ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة، ويسّر لكم الأُمور الشّاقة، بركوب الإبل ﴿والخيلَ﴾ عطف على الأنعام أي وخلق لكم الخيلَ ﴿والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليل بمعظم منافعها ﴿وَزِينَةً﴾ عطف على محلّ لتركبوها. وتجريده عن اللام لكونه فعلاً لفاعل الفعل المعلل وهو خلق دون الأوّل، وتأخيره لكون الركوب أهم منه، أو مصدر لفعل محذوف. أي وتزيّنُوا بها زينةً ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي يخلق في الدنيا غير ما عدّد من أصناف النعم لكم، ما لا تعلمون كنهه، وكيفيّة خلقه وتركيبه من الأشياء العجيبة الغريبة مما لم تكن تعلمه العرب من المركبات الآلية من سيّارات وطائرات، ومن كل ما هو معدّ للزينة والركوب، وقد تمت هذه المعجزةُ القرآنيةُ في هذا العصر، فكادت تنقرض الإبلُ والخيلُ والبغالُ والحميرُ وحلّت مكانَها المركبات الآلية، التي تزاحمت بها الأسواق العالمية، وَوُضِعَتْ لها شرطة المرور لتنظيم سيرها في المدن، وعلى الطرقات العامّة، هذا في البرّ عدا الآليات البخاريّة، أو الكهربائية البحريّة، وما تقوم به من الأحمال الثقيلة لتُساهم في الحركة التّجارية شرقاً وغرباً. وجنوباً وشمالاً عدا عن النّقل الجويّ من طائرات تجاريّة حديثة لنقل البضائع والرّكاب إلى جميع أنحاء العالم. إنّ في ذلك لآيةً لقوم يسمعون.

مُعْجِزَةُ سُجودِ الْغَنَمِ وطاعتِها لَهُ ﷺ

في السيرة النبويّة لأحمد بن زيني دُحْلان[1]: روى الإمام أحمد والبزّار عن

---

(١) جـ٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤. وانظر الحديث في دلائل النبوّة للأصبهاني ص ١٣٥، والشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ١ ص ٢٠٥، وشمائل الرسول لابن كثير ص ٢٧٣ والخصائص الكبرى جـ٢ ص ٦٠، والبداية والنهاية جـ٦ ص ١٤٣، وطريق الحديث فيها غريب، وفي إسناده من لا يعرف.

أنس بن مالك رضي اللَّهُ عنه قال: «دَخَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَائِطاً. أي بُسْتَاناً لأنْصاريّ، ومَعَهُ أبُو بكْر وعمر رضي اللَّهُ عنهما ورجلٌ من الأنْصَارِ، وَفِي الْحَائِطِ غَنَمٌ، فَسَجَدَتْ لَهُ. أي تعظيماً له لمَّا شاهَدَتْ نُورَ نبوَّتِهِ، وألْهَمهَا اللَّهُ مَعْرِفَتَهُ. فقال أبو بكر: يا رسُولَ اللَّه! نَحْنُ أَحَقُّ بالسُّجُودِ لكَ مِنَ الْغَنَمِ، فقال رسُولَ اللَّهِ ﷺ: لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ» وروى البيهقيُّ عن جابر بن عبد اللَّهِ رضي اللَّهُ عنهما: «أَنَّ رَجُلاً أتَى النبيَّ ﷺ، وآمَنَ وَهُوَ على بَعْضِ حُصُونِ خَيْبَرَ، وكانَ الرَّجُلُ في غَنَمٍ يرْعَاهَا لأهْلِ خَيْبَرَ، فقال: يا رسُولَ اللَّه! كيْفَ لي بالْغَنَمِ؟ قال: أحْصِبْ وُجُوهَهَا، فإنَّ اللَّهِ سيُؤَدِّي عَنْكَ أمانَتَكَ، وَيَرُدُّهَا إلى أهْلِهَا، فَفَعَلَ، فَسَارَتْ كُلُّ شَاةٍ حَتَّى دَخَلَتْ إلى أَهْلِهَا مُعْجِزَةً لَهُ ﷺ».

قلتُ: وكثرةً طُرقه تدلُّ على أنَّ للقصَّة أصلاً صالحة للاحتجاج بها، كيف لا وقد روى الحديث. الإمام أحمد من طريق أنس والبيهقي من طريق جابر بن عبد اللَّه، وهما من رؤوس أئمة النقل، والتّثبّت من صحّة الأحاديث، وإبداء رأيهما فيها، وانظر تخريج الحديث في الهامش، فقد رواه جميع أهل السّير بما فيهم الحافظ ابن كثير في شمائل الرسول ﷺ. وعليه ففي الاستيعاب وغيره قصَّةُ إسلام الأسود الحبشي. الذي كان يرعى غنماً لعامر اليهوديّ «أنَّهُ أتَى النّبيَّ ﷺ، وهو مُحاصرٌ لبعض حُصُون خيْبَرَ، ومَعَهُ الغنَمُ، فقال: يا رسُولَ اللَّهِ! أعْرِض عليَّ الإسلام، فعرضه عليه فأسْلَمَ، ثُمَّ قال: يا رسُولَ اللَّه! إنّي كنتُ أجيراً لصاحب هذه الْغَنم، وهي أمَانَةُ عِنْدِي، فكيْفَ أصْنَعُ فيها؟ فقال: اضرب في وُجُوهِهَا فَسَتَرْجِعُ إلى ربِّها، فقام الأسودُ، فأخَذَ حَفْنَةً مِنْ حَصَىٰ، وَرَمَىٰ بها في وُجُوهها، وقال: ارْجِعِي إلى صَاحِبِكِ، فواللَّه لا أصحَبُكِ بَعْدَها أَبداً، فَرَجَعَتِ الْغَنَمُ مُجْتَمِعَةً كأنّ سَائقاً يَسُوقُها حتّى دَخَلَتِ الحِصْنَ، ثم تَقَدَّمَ يُقاتِلُ مَعَ المسلمينَ، فأصَابَهُ حَجَرٌ فَقَتَلَهُ، وما صلّى للَّه صَلاةً قطُّ، فأُتِي به إلى النبيِّ ﷺ، وقَدْ سُجِّيَ بشَمْلَةٍ كانت عليه، فالْتَفَتَ إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أعْرَضَ عَنْهُ، فقالُوا: يا رسُولَ اللَّهِ! لَمَ أعْرَضْتَ عنه؟ فقال ﷺ: إنَّ مَعَهُ الآنَ زَوْجَتيْهِ مِنَ الحُور الْعينِ، يَنْفُضَانِ التُّرابَ عَنْ وَجْهِهِ، ويقُولان: تَرَّبَ اللَّهُ وَجْهَ مَنْ تَرّبَ وَجْهَكَ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَكَ» قال أبو

عمرو: إنما ردّ اللَّه ﷺ الغنم إلى الحصن لأنّ ذلك كان مُصَالِحاً عليه، أو كان قبل حلّ الغَنَائِم. اهـ[1].

قلتُ: وكيف لا تَسْجُدُ الغَنَمُ لرسول اللَّه ﷺ، وقد فُضّلَتْ على سائر الحيوانات، ويدلك على فضلها أنّ اللَّه تعالى ابتدأ الحيوانات بذكرها في قوله تعالى: ﴿ثَمانِيَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٩٣] اثنيْن، الكبشُ والنَّعجةُ، ولعظم فضلها أنَّ اللَّهَ تعالى فدى إسماعيل عليه السلام بكبش من جنسها، ولِمَا فيها من الخير والبركة إلى يوم القيامة، ففي حديث ابن ماجة، وشيخه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أُمّ هانيء رضي اللَّه تعالى عنها «**أَنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لها: اتَّخِذِي غَنَماً فإِنَّ فيهَا بَرَكَةً**» وهي خير مال المسلم كما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «**قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُوشَكُ أَنْ يكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبَالِ**»- بفتح الشين المعجمة والعين المهملة، رؤوسها، وشعف كُلّ شيء أعلاهُ - ولعظيم فضلها أن رعاها الأنبياءُ والأولياءُ والصّالحون، فما بَعَثَ اللَّهُ نبيّاً إلّا ورعى الغنم، ومنهم سيدنا محمّد ﷺ كما في الصَّحيح «**كُنْتُ أرْعَىٰ الغنم عَلَى قَرارِيطَ لأهْلِ مكّةَ**» - القيراط من الوزن: نصف دانق: أي جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عُشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين - فالغنم في أصلها مطيعةٌ، ومنقادة لصاحبها أينما اتّجهَ بها وسار، فلا غرو بعد هذا أن تسجُدَ للنّبيّ المختار ﷺ بإلهام من اللَّه تعالى، لإظهار معجزة من معجزاته ﷺ، إنَّ في سجُودِ الغنم لرسول اللَّه ﷺ عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للكافرين، وزيادةَ إيمانٍ للمؤمنين، وذكرى للمتّقين، وبرهاناً صادقاً على رسالة سيّد الأوّلين والآخرين من الأنبياء والمرسلين، فمن سبّح الحصى في كفّه، ومن شُقّ له القمرُ بإشارة يده، ومن سلّم عليه الشّجرُ والحجرُ، ومن شاد الذئبُ برسالته، وسجدت له الإبل. فلا يُستبعَدُ عليه ﷺ أن تَسْجُدَ الغنمُ له، وكيف لا تسجُدُ لَهُ ﷺ، والجمادُ يعرفُه، والشّجرُ يَسْتأذِنُ ربّه ليُسلّمَ عليه ويُظلَّهُ، نعم وهذا لا يُستبعدُ عقلاً، على مَنْ كُلُّ الكائنات في الأرضين وفي السَّموات كانتْ تنتظرُ بِعْثَتَهُ لتحظى برؤيته، وفيض

---

[1] وانظر حياة الحيوان الكبرى للدميري جـ٢ ص ١٨٩ ط دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان.

رحمته، وآية صدق ذلك استقبال الأنبياء جميعاً له في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج به ليحوزُوا فضيلة الاقتداء به، وليتبرَّكُوا ببهائه وإشراق نور وجْهِهِ، وقد نالُوا ما نالُوا من ذلك الشرف العظيم، والخير العميم، فصلّى بهم المختارُ إماماً، ثم وضع له المعراج، وشُقّتْ لَهُ السَّمٰواتُ، وفتحت له أبوابها سماء بعد سماء، ومخلوقاتها قد اصْطفُّوا على أرجائها تُرّحبُ به، وترجُو نوال شفاعته، وتمَّم رحلتَه صُعُداً حتى جاوز السَّبْعَ الطّباقَ إلى سدرة المنتهى، التي عندها جنّة المأوى، وتقدّم ﷺ حتى وقف على بساط القُرب، واتّكأ على أريكة الحبّ، وقرّبه مولاه جلّ شأنه حتى سمع صرير الأقلام بتصاريف الأقدار، لقد غشيه من نور الحقّ ما غشيه، وسلَّم عليه اللَّهُ، وبارك عليه وعلى آل بيته الطّيبين الأطهار، ورُفِع له لواءُ الحمد في السّماء، ورايةُ التوحيد في الأرض تعلُو في كُلِّ مكان ليُظْهِرَ دينَهُ على الدّين كُلِّه، فمن كان هذا بعض شأنه، بل وبعض قَطْرةٍ من بحارِ إفضاله فلا عجب، ولا غرابة إذا سجدَ الكونُ كُلُّه له، وقامَ بيْن يديْه بما فيه وما عليه. ولَمَّا كان السُّجودُ لا يجوزُ إلا للإله المعبود. خالق هذا الوجود نهى رسُولُ اللَّه ﷺ أصحابَهُ عن السُّجودِ له، ومن سجد لمخلوق من دون اللَّهِ فهو كافر باللَّه ـ والعياذ باللَّه ـ ولم يكن سجُودُ الغنم، أو الإبل له ﷺ سجُودِ عِبَادَةِ ـ حاشا للَّه ـ لأنّ الحيوانات غير مكلّفة بالعبادة، وإنما كان سجُودُ تحيّة وخضُوع وطاعة، والكلُّ بأمر اللَّه بياناً لفضل رسوله المصطفى، وحبيبه المرتضى، وإذا كانت الحيواناتُ والنباتاتُ والأحجارُ تطيعُه ﷺ، وتنقادُ لأمره، وتعرفه بصفاتِهِ وأنوار وجهه، وتسجُدُ له. فما بالك بهذا الإنسان العاقل. الّذي رأى بأمّ عينيْه كثيراً من معجزات المصطفى ﷺ، وتأكّدَ من صدْقها فكذّب وتولّى، وأدْبَرَ يَسْعَىٰ طغياناً وعصياناً وكفراً!!!؟ إنّ في ذلك لذكرى، والحمدُ للَّه أن هدانا للإيمان به ﷺ، وما كُنّا لنهتديَ لولاَ أن هدانا اللَّه *

مُعْجِزَةُ تَسبيح الطَّعامَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ وهُو يُؤكَلُ، وبيان من تكلَّم بعْدَ مَوتِهِ

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن عَبْدِ اللَّهِ قال: «**كُنَّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكَةً، وأنْتُم تَعدُّونَها تَخْويفاً، كنّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الْمَاءُ، فقال: اطْلُبُوا فَضْلَةً**

مِنْ مَاءٍ، فَجَاؤُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قال: حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أصابع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ .وَهُوَ يؤكَلُ»[1] ولفظ الترمذي: «لَقَدْ كُنَّا نأكُلُ الطّعامَ مَعَ النبيّ ﷺ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تسبيحَ الطَّعَامِ».

وفي السيرة الدّحلانيّة[2]: روى البخاري والترمذي من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه قال: «كُنَّا مَعَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ، ونَحْنُ نَسْمَعُ تسبيحَ الطَّعَامِ» وفي الشفا ـ للقاضي عياض ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «مَرِضَ النبيُّ ﷺ، فأتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَّانٌ وعِنَبٌ، فأكَلَ مِنْهُ ﷺ فسبّح» وروى أبو الشّيْخ عن أنس رضي اللَّهُ عنْهُ قال: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ بِطَعَامِ ثَرِيدٍ، فقال: إنَّ هٰذا الطَّعامَ يُسبِّحُ؟ قالُوا: أَوَ تَفْقَهُ تَسبيحَهُ؟ قال: نَعَمْ، ثُم قال الرَّجُلُ: ادْنُ هٰذِهِ الْقَصْعَةَ مِنْ هذا الرَّجُلِ، فأدْنَاهَا، فقال: نَعَمْ يا رسُول اللَّه، هَذَا الطَّعَامُ يُسبِّحُ، ثمّ قال: رُدَّهَا فردَّها» انتهى ما في السيرة الدّحْلانيّة[3] وظاهر حديث البخاري: أنّه كان يُسبّحُ بَعْدَ وضعه في الفم، ولا مانع منهما، وفي قوله: «كُنَّا» دليل على تكريره، وأنّه سمعه مراراً عديدة يسبّح وهو آية للنَّبيِّ ﷺ أعْظَمُ من تسبيح الجبال مع داود عليه السلام، وفهم نُطق الطّير لسليمان عليه السلام، وكذا تسبيحُ الحصىٰ لأنّ الجبال لم تُسبح وهي بيد داود عليه السلام بخلاف الحصىٰ فإنها سبّحتْ بيده ﷺ، ويَدِ من أرادَ من أُمَّتِهِ، وتسبيحُ الطّعام أعظم منهما إذ لم يُعهد مثله، والجبال قد وصفت بالخضوع والخشوع، وإنما كان تسبيح الطعام أعظم من فهم سليمان عليه السلام لمنطق الطّير لأنّ الطير ناطق في الجملة بخلاف الطعام، وكون الطعام سبح بعد طبْخه، فهو أبلغ في المعجزة.

وفي الفتح[4] قال الحافظ ابن حجر في قوله: «ولَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ

---

(١) فتح الباري المجلد السادس كتاب المناقب ص ٥٨٧ رقم الحديث (٣٥٧٩) وهو في سنن الترمذي جـ٥ ص ٢٥٧ أبواب المناقب ـ ٣٣ حديث (٣٧١٢).

(٢) جـ٣ ص ١٢٩.

(٣) جـ٣ ص ١٣٠.

(٤) جـ٦ ص ٥٩٢.

وَهُوَ يُؤْكَلُ» أي في عهد رسُولِ اللَّه ﷺ غالباً، ووقع ذلك عند الإسماعيلي صريحاً، أخرجه عن الحسن بن سفيان عن بندار، عن أبي أحمد الزبيري في هذا الحديث «كُنَّا نأكُلُ مَعَ النبيّ ﷺ الطَعَامَ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ» ولَهُ شاهِدٌ أوردَه البيهقيُّ في الدلائل من طريق قيس بن أبي حازم قال: «كانَ أَبُو الدَّرْداءِ، وسليمان إذا كتبَ أحدُهُما إلَى الآخرِ، قال له: بآيَةِ الصَّحْفَةِ، وذلك أنّهما بَيْنا هُما يأكُلانِ في صحفةٍ إذْ سَبَّحَتْ وَمَا فِيهَا» وذكر عياض عن جعفر بن محمّد عن أبيه قال: «مَرِضَ النّبيُّ ﷺ فأتاهُ جبريلُ بطبق فيه عنب وَرَطبٌ فأكل منه فسبّح» قال الحافظ: وقد اشتهر تسبيح الحصى: ففي حديث أبي ذرّ قال: «تَنَاوَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ حَصَيَاتٍ فسبّحن في يَدِهِ حتّى سَمِعْتُ لهنّ حنيناً، ثمّ وضَعَهُمْ في يَدِ أبي بكرٍ فسبّحنَ، ثمَّ وَضَعَهُنَّ في يد عمر فسبّحْنَ؛ ثُمَّ وضَعَهُنَّ في يدِ عُثمانَ فسبّحْنَ» أخرجه البزّار والطبرانيُّ في الأوسط، وفي رواية الطبراني: «فَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنّ مَنْ في الْحَلْقَةِ» وفيه «ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إلَيْنَا فَلَمْ يُسبّحْنَ» مع أحد منّا. انتهى كلام الحافظ، ولم يتحدث على ممَّا نحنُ بصدده، وكذلك العينيُّ. أغفلا الكلام عن تسبيح الطعام، وكان من الواجب عليهما أن يستفيضا بالتّحدّث عن هذه المعجزة الكبرى، وما ينبغي لهما أن يمرَّا عليها مرور الكرام، ولعلّهُما معذوران في عدم إشغال فكرهما فيها أكثر من اللازم، ولكن لم أرَ لهما فيها نَتاجاً فكريّاً أبداً * * *

وأقول أيضاً: إنّ تسبيحَ الطعام، وهو يؤكَلُ، أو في الصحفة، وسماعَ الصَّحابة له من أمهات المعجزات الكبرى لنبيّنا محمد ﷺ، بل هي أبلغ وأغربُ من معجزة تكلّم الموتى مع عيسى عليه السلام، وأنّى يكون للطعام لسان؟! وأنى يكون للطعام حنجرة؟! أو لهاةٌ حتّى يتكلّم ويُسبّح اللَّه تعالى!! وإذا تكلّم الموتى مع عيسى عليه السلام معجزةً له، ودليلًا صادقاً على نُبوَّته، فقد وقع من أفراد أمّة المصطفى ﷺ كرامةً لهم، ودليلَ صدق على نبوّة نبيّهم محمد ﷺ. فقد أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي عن سعيد بن المسيّب «أنَّ زيد بن خارجة الأنصاري، ثم من بني الحارث بن الخزرج تُوفّي زمن عثمان بن عفان، فَسُجِّيَ بِثَوْبِهِ، ثُمَّ إنّهم سَمِعُوا جَلْجلَةً في صدره، ثم تكلّم، ثم قال: أحمدُ أحمدُ في الكتاب الأوَّلِ صدَقَ صدَقَ، أبو بكر الصّديق الضعيفُ في نفسه القويُّ في أمرِ اللَّهِ في الكتاب

الأوّل، صَـدَقَ صَدَقَ عمـرُ بن الخطاب القـويُّ الأمينُ في الكتـاب الأول، صـدق صدق عثمان بن عفان على منهاجهم، مضت أربعٌ وبقيتْ ثنتان أتت بالفتن، وأكل الشديدُ الضّعيفَ، وقامت الساعة وسيأتيكُم عن جيشكم خبر، بئـرُ أريس، وما بئـرُ أريس * قال يحيى: قال سعيد: ثم هَلَكَ رجلٌ من بني خطمة، فَسجِّيَ بثوبه فَسُمِعَ جلجلة في صدره، ثم تكلّم فقال: إنَّ أخا بَني الحارث بن الخزرج صدق صدق * ـ يعني تصـديق كـلام الميّت الـذي قبله: زيـد بن خـارجـة ـ ثم رواه البيهقيُّ عن الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق عن موسى بن الحسن عن القعنبي فذكره، وقال: هـذا إسنادٌ صحيـحٌ وله شـواهد[1] قـال ابن كثير: ثمَّ سـاقـه من طـريق أبي بكـر عبـد اللّه بن أبي الدنيـا في كتاب «من عَـاشَ بَعْدَ المـوت» حدَّثنـا أبو مسلم عبـد الرحمن بن يونس، ثنا عبد اللّه بن إدريس عن إسماعيل بن أبي خالد. قـال: جاء يزيد بن النعمان بن بشير إلى حَلْقَةِ الْقَاسِمِ بن عبد الرحمن بكتاب أبيه النعمان بن بشيـر ـ يعني إلى أُمّهِ ـ بسم اللّه الـرحمن الرحيم. مـن النعمـان بن بشيـر إلى أُمّ عبد اللّه بنت أبي هاشم، سلامٌ عليك، فإنّي أحمدُ إليك اللّهَ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ، فإنّك كتبتِ إليَّ لأكتُبَ إليك بشأن زيد بن خارجة، وأنّه كان من شأنه أنّهُ أخذَه وجعٌ في حلقه ـ وهو يومئذ من أصحّ النّاس، أو أهل المدينة ـ فَتُوفِّيَ بيْن صلاة الأُولى، وصلاة العصر، فأضْجَعْنَاهُ لظهْرِهِ، وغشّيْنَاهُ ببرديْن وَكِسَاءٍ، فأتَاني آتٍ في مقامي، وأنا اسبّح بعد المغرب، فقال: إنّ زيداً قد تكلّم بَعْدَ وفاتِه، فانصرفْتُ إليه مُسْرِعاً، وقدْ حضره قومٌ مِنَ الأنْصار، وهو يقولُ، أو يُقالُ على لسانه: الأوسطُ أجلد الثلاثة الذي كان لا يُبالي في اللّهِ لومةَ لائم، كانَ لا يأمرُ النّاسَ أن يأكل قويّهم ضعيفَهُم، عبد اللّهِ أميرُ المؤمنين صدق صدق كان ذلك في الكتاب الأوّل. ثم قال: عثمـانُ أميرُ المؤمنين، وهو يُعـافي النّاسَ من ذنُـوبٍ كثيرة، خلت اثنتـان وبقي أربع، ثم اختلفَ النّاسُ وأكل بعضهم بعضاً، فلا نظام، وأنتجَتِ الأكما، ثم أرعوى المؤمنين ـ ولعلهـا المؤمنون ـ وقـال: كتابُ اللّه وقـدره، أيهـا النّـاسُ: أقبلوا على أميـركم واسمعُوا وأطيعُوا، فمن تولّى فلا يعهدن دماً، وكان أمرُ اللّه قدراً مقدُوراً، اللّهُ أكبَرُ

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية جـ٦ ص ١٥٦.

هذه الجنّةُ، وهذه النّار، ويقولُ النبيُّون والصّديقُون: سلامٌ عليكُمْ: يا عبد اللّه بن رواحة هل أحْسَسْتَ لي خارجةً لأبيه، وسعداً اللذين قُتِلا يوم أُحدٍ؟ ﴿كلا إنّها لَظَىٰ نَزَّاعةً للشّوَىٰ. تَدْعُو مَنْ أدْبَرَ وَتَوَلَّى ،وَجَمَعَ فَأوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٨] ثُمَّ خَفَتَ صوْتُهُ. فسألتُ الرَّهط عما سبقني من كلامه. فقالوا: سمعناهُ يقُول: انصتُوا، فنظر بعضنا إلى بعض، فإذا الصّوتُ من تحت الثّياب، قال: فكشفْنا عن وجهه، فقال: هذا أحمَدُ رسُولُ اللّهِ، سلامٌ عليك يا رسُولَ اللّه، ورحمةُ اللّه وبركاتُه، ثم قال: أبو بكر الصدّيق الأمين، خليفةُ رسُول اللّه كان ضعيفاً في جسْمِه، قويّاً في أمر اللّهِ، صدق صدق وكان في الكتاب الأوَّل * قال ابن كثير: ثمّ رواه الحافظ البيهقيُّ عن أبي نصر بن قتادة عن أبي عمرو بن بجير عن عليّ بن الحسين، عن المعافى بن سليمان عن زهير بن معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد فذكره وقال: هذا إسناد صحيح * وفي بئر أريس قال البيهقيُّ: والأمرُ فيها أنّ النّبي ﷺ اتّخذ خاتماً فكانَ في يده، ثم كان في يد أبي بكر من بعده، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع منه في بئر أريس بعدما مضى من خلافته ستّ سنين، فعند ذلك تغيّرت عماله، وظهرت أسبابُ الفتن كما قيل على لسان زيد بن خارجة.

قلتُ: وهي المرادة من قوله: مضت اثنتان وبقي أربع، أو مضت أربع وبقي اثنتان على اختلاف الرواية. قال ابن كثير: وقد قال البخاري في التّاريخ: زيد بن خارجة الخزرجيّ الأنصاري شهد بدراً، توفّي زمن عثمان، وهو الذي تكلّم بعد الموت * قال البيهقيُّ: وقد روى في التكلّم بعد الموت عن جماعة بأسانيد صحيحةٍ. قال ابن أبي الدنيا: ثنا خلف بن هشام البزّار. ثنا خالد الطحان عن حصين عن عبد اللّه بن عبيد الأنصاري «أنَّ رجُلاً من بَني سلمة تكلّم فقال: محمَّدٌ رسُولُ اللّه، أبو بكر الصديق، عثمان اللّين الرحيم؛ قال: ولا أدري إيش قال في عمر». كذا رواه ابن أبي الدنيا في كتابه. وقد قال الحافظ البيهقيُّ: أنا أبُو سعيد بن أبي عمرو، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا يحيى بن أبي طالب، أنا عليُّ بن عاصم، أنا حصين بن عبد الرحمن عن عبد اللّه بن عبيد الأنصاري قال: «بيْنَما هُمْ يَثُورُونَ الْقتْلَىٰ يَوْمَ صفّين، أو يوم الجمل، إذ تكلّم رَجُلٌ من الأنْصَارِ من الْقتْلىٰ، فقال: محمَّدٌ رسُولُ اللّهِ، أبو بكر الصّدّيق، عمرُ الشهيدُ، عثمانُ الرّحيم، ثُمَّ

سكت» وقال هشام بن عمار في كتاب البعث: حدَّثنا الحكمُ بن هشام الثقفي، حدَّثنا عبد الحكيم بن عمير عن ربعي بن خراش العبسي قال: «مَرِضَ أَخِي الرّبيعُ بن خراشٍ، فمرّضتُه، ثُمَّ ماتَ فذَهَبْنَا نجهّزه، فلمَّا جئنَا رَفَعَ الثوْبَ عن وَجْهِهِ، ثُمَّ قال: السَّلامُ عليكُم، قُلنا: وعليك السلام، قَدْ مِتّ، قال: بلى ولكن لقيتُ بعدكُم رَبِّي، وَلَقيني بِرَوْحٍ وريْحَانٍ، وربٍّ غير غضبان، ثُمَّ كَسَانِي ثياباً من سُنْدُسٍ أَخضَرَ، وإنّي سألتُه أنْ يأذَنَ لي أَنْ أَبشّركُمْ فَأَذِنَ لِي، وإنَّ الأمْرَ كَمَا تَرَوْنَ، فَسَدِّدُوا وقارِبُوا، وبشّرُوا ولا تُنفّرُوا، فلمَّا قالها كانت كحصاةٍ وقعت في ماء» ثم أورد بأسانيد كثيرة في هذا الباب، وهي آخر كتابه[1] وإذا كان عيسى عليه السلام قد تكلّم وهو في المهد، وقال إنه عبدُ اللَّه، وأنّه نبيٌّ فقد شهد لرسولنا محمد ﷺ صبيٌّ يوم ولادته بأنّه رسُولُ اللَّهِ، قال البيهقيٌّ: أنا أبو سعد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد، أنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جميع الغسّاني ـ بثغر صيدا ـ ثنا العباس بن محبوب بن عثمان بن عبيد، أبو الفضل، ثنا أبي، ثنا جدّي شاصونة بن عبيد، حدّثني معرض بن عبد اللَّهِ بن معيقب عن أبيه عن جدّه قال: «**حَجَجْتُ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَدَخلتُ داراً بمكّةَ، فرأيْتُ فيها رسُولَ اللَّهِ ﷺ وجْهُهُ كدارةِ القمر، فَسَمِعْتُ مِنْهُ عجباً، أتَاهُ رَجُلٌ من أهل اليمَامَةِ بغلام يوم وُلد وقدْ لفَّهُ في خرْقَةٍ، فقال له رسولُ اللَّهِ ﷺ: يا غلامُ منْ أنَا؟ قال: أنْتَ رسُولُ اللَّهِ، فقال له: باركَ اللَّهُ فيك، ثمّ إنّ الغلام لم يتكلّم بَعْدَهَا**» قال البيهقيٌّ: وقد ذكره شيخنا أبو عبد اللَّه الحافظ عن أبي الحسن علي بن العباس الورّاق عن أبي الفضل أحمد بن خلف بن محمد المقري القزويني عن أبي الفضل العبّاس بن محمد بن شاصونة. قال الحاكم: وقد أخبرني الثقةُ من أصحابنا عن أبي عمر الزاهد قال: لمّا دخلتُ اليمنَ دخلتُ حردة، فسألتُ عن هذا الحديث فوجدتُ فيها لشاصُونة عقباً، وحملتُ إلى قبره فزرتُه *[2]

قلتُ: وإذا كان الموتى وابنُ يومه من الأولاد شهدوا لرسُولِ اللَّه ﷺ

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ط مكتبة المعارف بيروت ـ لبنان.
(٢) كذا ذكره الحافظ ابن كثير في البداية جـ٦ ص ١٥٩.

بالرسالة، وسبّح الطّعام بين يديه، أو هو يُؤكل فقد تجاوز التصديقُ برسالته ﷺ درجة اليقين إنْ كان بعده درجةً، ولكن ليس بعد اليقين إلا اليقينُ مِثْلُه إن لم يكن هو عيْنُهُ، وهنيئاً لأولئك الأصحاب الذين تَنَاوَلُوا من ذلك الطّعام، وهو يسبّح اللّه، فقد كان غذاءً رُوحيّاً قبل أن يكون غذاء جسميّاً، ما أجلّ قدرَهم؟ وما أعظَمَ إيمانهم؟ وهم يسمعون تسبيح الطعام يخترق منافذ أسماعهم إلى أن يستقرّ في قُلوبهم، فيملأها حِكمةً وإيماناً، ونوراً وهدياً وفرقاناً! أولئك الذين ثبّتَهُم اللّهُ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأولئك سلفنا الصالح الذين عنهم نقل الأئمةُ القرآنَ والسُّنّةَ، وأتحفُوا العالمَ إلى يوم القيامة ببركة النّبيّ ﷺ علوم الأوّلين والآخرين، وما غاب عن الأنظار من علوم الحياة الآخرة من جنّة ونارٍ، ومخلوقات السّمٰوات السبع من الملائكة المقربين الأبرار، فلا عجب بعد ذلك إذا تكلّموا بعد موتهم، أو سمعوا تسبيحَ الحصىٰ في كفّ المصطفى، أو تسبيح الطعام وهو يؤكل؛ لأنهم هم الذين اختارهم اللّهُ لرفع لواء الإسلام، وإعلاء دينه على جميع الأديان، ورضي اللّه عنهم في الدنيا وفي الآخرة، بصدق إيمانهم؛ وجهادهم في سبيله حتى وافاهمُ المنون، ففازوا برحمة اللّه ـ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ـ.

مُعْجِزَةُ حنين الْجِذْعِ لَهُ ﷺ

أخرج البخاريُّ عن ابن عمرَ رضي اللّه عنهما: «**كَانَ النبيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَىٰ جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ المِنْبَرَ تحوّلَ إليْهِ، فحنَّ الجذْعُ، فأتاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ**»[1] وأخرج عن جابر بن عبداللّه رضي اللّه عنهما «**أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إلى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فقالت امرأة من الأنصار ـ أو رَجُلٌ ـ: يا رسُولَ اللّه! ألاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَراً؟ قال: إنْ شِئْتُمْ. فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَراً. فلمَّا كانَ يَوْمُ الجُمعةِ رُفِعَ إلى الْمِنْبَرِ، فَصَاحَتْ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبيّ، ثُمَّ نَزَلَ النبيُّ ﷺ، فضمَّهُ إليْه، يئنُّ أنينَ الصَّبيّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قال: كَانَتْ تبكي عَلَىٰ ما كانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذّكْرِ عِنْدَهَا**»[2] وأخرج

(١) الفتح جـ٦ كتاب المناقب باب علامات النبوّة في الإسلام ص ٦٠١ رقم الحديث (٣٥٨٣).
(٢) رقم الحديث (٣٥٨٤) في الباب

عن جابر بن عَبْدَاللّهِ رَضِيَ اللّهُ عنْهما يقُولُ: «كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفاً عَلَىٰ جُذُوع مِنْ نَخْلٍ، فكانَ النبيُّ ﷺ إذا خَطَبَ يقُومُ إلى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ فَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذٰلِكَ الْجِذْعِ صَوْتاً كَصَوْتِ الْعِشارِ، حَتَّى جَاءَ النبيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَسَكَنَتْ»(١).

قلتُ: والمراد بحنينه شوقه وانعطافه إلى النبيّ ﷺ مع ظهور صوت دالّ على ذلك الشّوق، والجِذْعُ واحد جذوع النّخل. وفي السيرة النبوية لأحمد بن زيني دُحْلان(٢): وقد رُوي حديثُ حنين الجذع عن جماعة من الصحابة من طرقٍ كثيرة تُفيدُ القطعَ بوقوع ذلك حتّى صار متواتراً. قال القاضي عياض، والتاج السبكي والحافظ ابن حجر وغيرهم: إنّ حنين الجذع، وانشقاق القمر كُلٌّ منهما أحاديثه متواترة، نُقلت نقلاً مستفيضاً يُفيدُ القطع عند من يطّلعُ على طرق الحديث دون غيرهم * وهذه الآية من أكبر الآيات والمعجزات الدّالة على نبوَّةِ نبيّنا محمّد ﷺ، وقال الإمام الشافعي رضي اللّه عنه: ما أعْطى اللّهُ نبيّاً مثلَ ما أعطى نبيّنا محمداً ﷺ. فقيل له: أعطى عيسى عليه السلام إحياء الموتى، فقال: أعطى نبيّنا مُحمّداً ﷺ حنين الجذع حتّى سُمع صوته، فهو أكبر من ذلك * وكان الحسنُ البصريُّ رضي اللّه عنه إذا حَدَّثَ بهذا بكى، وقال: يا عبَادَ اللّه! الخشبةُ تحنُّ إلى رسُول اللّه ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فإنهُ أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه(٣) * وهذا يدلُّ على أنّ اللّهَ تعالى خلقَ في الجذع حياةً وعلماً حتّى صوَّت واشتاق، وقد عامله النبيُّ ﷺ معاملة الحيّ فالتزمه لما يلتزم الغائبُ أهله وأعزّته *.

وفي مسند أحمد(٤): حدَّثنا عفان أخبرنا حمَّادُ عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس: «أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ إلى جِذْعٍ قبل أنْ يتّخِذَ المنبرَ، فلمّا اتّخذَ المنبرَ وتحوّلَ إليهِ حنَّ عليْه، فأتاهُ فاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ، قال: وَلَوْ لَمْ أحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إلى

---

(١) رقم ٣٥٨٥ بعد الذي قبله.
(٢) جـ٣ ص ١٣٠.
(٣) الدّحلانية جـ٣ ص ١٣٢.
(٤) جـ٤ ص ٥٦.

يَوْمِ الْقِيَامَةِ» إسناده صحيح. وذكره ابن كثير في التاريخ[1] وقال: وهذا الإسناد على شرط مسلم، وهو في ابن ماجة[2] وحنين الجذع من المعجزات الكونيّة الثابتة لرسول اللَّه ﷺ بالتّواتر القطعيّ، وإليك بعض روايات ابن كثير (الحديث الأول) قال الإمام أبو عبداللَّه محمد بن إدريس الشافعي رحمه اللَّه: حدَّثنا إبراهيم بن محمد، قال: أخبرني عبداللَّه بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: «**كانَ النبيُّ ﷺ يُصلِّي إلى جذع نخلَةٍ إذْ كَانَ المَسْجِدُ عريشاً، وكَانَ يَخْطُبُ إلى ذلك الجذع، فقال رجلٌ من أصحابه: يا رسُولَ اللَّه! هل لَكَ أن نجعلَ لَكَ مِنْبراً تَقُومُ عليه يومَ الجمعة فَتَسْمَعَ النّاسُ خطبَتَكَ؟ قال: نعم، فَصُنِعَ لَهُ ثلاث دَرَجَاتٍ هُنَّ اللّاتي على المنبر، فلمَّا صُنِعَ المنبرُ، وَوُضِعَ موْضعُه الذي وَضَعَهُ فيه رُسُولُ اللَّهِ ﷺ، بدا للنبيّ أن يقُومَ على ذلك المنبر فيخطُب عليه، فمرَّ إليْهِ، فلمَّا جَاوَزَ ذلك الجذع الّذي كَانَ يخطبُ إليْه خارَ حتّى تَصَدَّعَ وانْشَقَّ، فنزلَ النبيُّ ﷺ لمَّا سَمِعَ صوتَ الجِذْعِ فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى المِنْبَرِ، فلمَّا هُدِمَ الْمَسْجِدُ أَخَذَ ذُلِكَ الجِذْعَ أبيُّ بن كعْب رضي اللَّهُ تعالى عنه، فكان عِنْدَهُ حتَّى بَلي وأَكَلَتْهُ الأَرَضَةُ، وَعَادَ رُفَاتاً**». (الحديث الثاني) قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عمر بن يونس الحنفي: حدثنا عكرمة بن عمّار، حدثنا إسحاق بن عبداللَّه بن أبي طلحة، حدّثنا أنس بن مالك: «**أنّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يوم الجمعة يسندُ ظَهْرَهُ إلى جذع منصوب في المسجد يخطبُ النّاس، فجَاءَهُ رُوميٌّ فقال: أصْنَعُ لَكَ شيئاً تقْعُدُ عليْه كأنّكَ قائمٌ؟ فَصَنَعَ له مِنْبَراً: درجتان ويقعد على الثالثة، فلمَّا قَعَدَ نبيُّ اللَّهِ على المنبر خار كخوار الثور، ارْتَجَّ لخواره حُزْناً على رسُول اللَّه ﷺ، فنزل إليْه رسُولُ اللَّهِ ﷺ من المِنْبَرِ فالْتَزَمَهُ، وهُو يخُورُ، فلمَّا التزمه سكتَ، ثمّ قال: والّذي نفسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لمَا زَالَ هكذا حتّى يوْمِ الْقِيَامَةِ حُزْناً على رسُولِ اللَّهِ، فأَمَرَ به رسُول اللَّهِ ﷺ فدُفِنَ**» وقد رواه الترمذيُّ عن محمود بن غيلان عن عمر بن يونس به، وقال: صحيح غريب من هذ الوجه. قلت: والظاهر من هذا الحديث أن أخذ أبي بن كعب له كان بعد دفنه. (الحديث

---

(١) ونقله ابن كثير في التاريخ أي في البداية جـ٦ ص ١٢٥ ـ ١٣٢ من عدة طرق.
(٢) جـ١ص ٢٢٣.

الثالث) قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر قال: «كَانَ رسُولُ اللَّه ﷺ يخطبُ إلى جِذْع نَخْلَةٍ قال: فقالت امرأةٌ من الأنصار ـ وكانَ لها غلامٌ نَجَّارٌ ـ يا رسُول اللَّه! إنّ لي غلاماً نجّاراً أَفَآمُرُهُ أنْ يتّخِذَ لَكَ مِنْبَراً تَخْطُبُ عليه؟ قال: بلى، قال: فاتّخذَ لَهُ منبراً، قال: فلمَّا كَانَ يومُ الجمعة خَطَبَ عَلَىٰ المنبرِ، قال: فإنَّ الجِذْعَ الّذي كانَ يقُومُ عليْه يئنُّ كما يَئِنُّ الصَّبِيُّ، فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ هذا بكىٰ لِمَا فَقَدَ مِنَ الذّكْرِ» ومن أحبّ الوقوف على باقي الأحاديث في حنين الجذع فليرجع إلى البداية والنهاية، فإنّها لاَ تخلُو مِنْ فَائِدَةٍ.

قال ابن عقيل: لا ينبغي أن يتعجّبَ من حنينِ الجذع، ومجيء الأشجار إلى رسُول اللَّهِ ﷺ، فإنَّ من جعلَ من المغناطيس خاصيّةً تجذبُ الحديد إليه، يجوز أن يُجعل للرّسُول خاصيَّةً تجذبُ إليه. كذا ذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى(١). وفي هذا القول نظر فليس مستساغاً عقلاً ولا نقلاً لأنّ الفاعل الحقيقيَّ هو اللَّهُ تعالى، إبرازاً للحقيقة النّبويّة، وإظهاراً للمعجزات الإلٰهيّة على يديْه ﷺ، فنبيّنا محمّدُ ﷺ لا يستطيعُ الإتيان بها ابتداء، ولا دفعها انتهاءً، نعم قد زوّد اللَّه الرُّسلَ الكرام بخصائص غير الخصائص البشريّة، كالخصائص الدَّاخلية فإن الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم لتلقى الوحيَ الإلٰهيَ في المنام، وهو قسم من أقسام الوحي فيجيء المنام صادقاً في تحقّقه ووقُوعه، كما يجيء فلق الصُّبح، في تبلّجه وسطوعه، كما في حديث ابتداء الوحي، أمَّا أنّ الرسُولَ ﷺ يجذُب الخشبَ إليه بعيدٌ كلّ البُعدِ، كما أنّه ﷺ لا سلطة له عليه حتّى يصوّت كصوت العِشَار، أو يخُورَ كخُوار الثور فيرتجّ لخواره حزناً على رسُول اللَّه ﷺ، أو يئنّ كما يئنّ الصبيُّ، إنَّ ذاك الحنين، وصياح النخلة صياحَ الصبيّ، وتصدّع الجذع، وانشقاقه حزناً على الرسول ﷺ هي ذاتُها التي نطلق عليها معجزة، لأنها تُعجزُ الخلائق عن الإتيان بمثلها، وهي خرق لقوانين الطبيعة، وهل حنّ جذع في التاريخ لإنسان قبل نبينا محمد ﷺ؟ ونعلم جميعاً أنّ الجِذْعَ الذي كان يخطبُ

---

(١) جـ١ ص ٣٢٤.

عليه ﷺ كان يابساً، وخشباً من مادة لا تعقلُ، أعدَّها اللَّه للوقود في الحياة الدنيا، أمّا أنّه وقع منه ما وقع فكان ببركة الأنوار النبويّة المحمديّة فانقلبت مادته من اليبس إلى الطراوة يسمعُ ويعقل ويحزنُ ويتكلَّمُ؛ ويبكي لِمَا فقد من الذكر الإلهيْ، وعندي أنّ هذه المعجزة يجب أن تُصنّف المعجزة الثانية بعد معجزة انشقاق القمر لما بينهما من المناسبة، أليس في رواية الشافعي: خارَ ـ أي الجذع ـ حتّى تصدّع وانْشَقّ، وذلك من فرط وجْدِهِ وحنينه إلى رسُول اللَّه ﷺ. وهذا ما كان يُبكي الحسنَ البصريّ رضي اللَّهُ عنه، ويقول: يا عبادَ اللَّهِ! الخشبةُ تحنُّ إلى رسُولِ اللَّه ﷺ شوقاً لمكانه فأنتم أحقُّ أن تشتاقُوا إليه * نعم فإذا كانت الخشبةُ التي لا روح لها، ولا عقل، ولا تفكير ولا إدراك، ولا سمع ولا بصر، فهي جماد ليبسها تنفطر وتنشق حزناً على فراق رسول اللَّه ﷺ لها، فما بال تلك القُلوب العمي قد قست كالحجارة، أو أشدّ قسوَةً في كفرها وإلحادها وزندقتها، وخبثها ولؤمها، ومكرها مع أنّ بعض الحجارة تنهلع من اللّه، وتهبط من رؤوس الجبال إلى أصُولها مُحَطَّمةً من خشية اللَّه، وقد تقدّم استئذان الشَّجَره من ربِّها لتُظلَّ نبيَّهُ ﷺ، وتسلّم عليه، وتسليم الشجر والحجر عليه، وشهدت له بالرسالة إلى غير مما تقدّم ذكره من معجزات نبويّة محمَّدية تخشعُ لها القُلُوبُ، وتخضعُ لها العُقُولُ، وتُحَلِّقُ لها الأرواحُ المؤمنةُ في عالَم الملك والملكوت لكأنها بين يدي الخالق العظيم تَسْتَلْهِمُهُ العفو والغُفران، وتستضيء بنورِ وجوده طريقها إليه فتبدّد ما حولها من ظلمات الكفر، وتَسْلُكَ طريق الهُدى والإيمان الذي سلكه الأنبياءُ والأولياءُ والصالحون من عباد اللَّه المقربين، كل ذلك بفضل انشراح صدورهم للإسلام، ويقينهم بصدق رسالة خاتم الأنْبياء، والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام الذي أيَّدهُ اللَّهُ بجند من عنده، وبما أظهر على يديْه من المعجزات، فله الحمدُ والمنّةُ على هذه النعمة *

مُعْجِزَةُ تأمينِ عَتَبَةِ الْبَيْتِ عَلَى دُعائِهِ ﷺ

في السيرة الدَّحْلانيّة(١) روى البيهقيُّ وابن ماجة عن أبي أسيد: مالك بن ربيعة السّاعدي رضي اللَّه عنه: «**أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال للعبّاس بن عبد المُطّلب**

(١) جـ٣ ص ١٢٥.

رضي اللَّه عنه: يا أَبَا الْفَضْلِ لَا تَرِمْ ـ بكسر الراء ـ أي لا تبرح من مَنْـزِلك أَنْتَ وبَنُوكَ حتّى آتيكَ فإنَّ لِيَ فيكُمْ حَاجَةً، فانْتَظَرُوه حتَّى جَاءَ بَعْدَ مَا أَضْحَىٰ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ، فقال: السَّلامُ عليكُمْ، فقالُوا: وعَلَيْكَ السَّلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ. قال: كيْفَ أصْبَحْتُم؟ قالُوا: أَصْبَحْنَا بخيْرٍ بِحَمْدِ اللَّهِ تعالىٰ. فقال لَهُمْ: تَقارَبُوا فَتَقَارَبُوا يَزْحَفُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ حتى إذَا أمكَنُوهُ. أي اتّصَلُوا به ـ اشتملَ عليْهم بِملاءَتِهِ، فقـال: يا ربِّ هـٰذَا عَمِّي وَصُنْوُ أَبِي. أي مِثْلُهُ. وهٰؤُلاءِ أهْـلُ بَيْتِي. أي من أهْلِ بَيْتِي، فَاسْتُرْهُمْ مِنَ النّارِ كَسَتْرِي إيَّاهُمْ بِملاءتي هٰذِهِ، قال: فـأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ الْبَـابِ وحـوائطُ الْبَيْتِ، فقالتْ: آمين آمين آمين» أي ثـلاث مرات يُسمَـعُ تأمينهـا بكلام عربيّ فصيح. وبنو العباس هؤلاء هم: الفضلُ وعبد اللَّه، وعبيد اللَّه، وقثم ومعبد، وعبد الرحمٰن، وسعيد، وأختهم أم حبيبة رضي اللَّهُ عنهم، وكذا ذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى[1] عن أبي أسيد السَّاعدي البـدري بلفظ «أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قـال للعباس بن عبـد المطّلب: يـا أبا الفضـل! لَا تَرِمْ مَنْـزِلَكَ غـداً أَنْتَ وبَنُوكَ، فإنَّ لي فِيكُمْ حَاجَةً، فانتظرُوهُ فجَاءَ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ. قالُوا: وعليْكُمُ السَّلامُ ورحمةُ اللَّه وبـركاتـه. قال: كيْفَ أَصْبَحْتُمْ؟ قـالُوا: بخيـر، قالُـوا: كيْفَ أَصْبَحْتَ يا رسُولَ اللَّهِ! قال: بخيْرٍ أَحْمَدُ اللَّهَ، فقال: تقاربُوا، لِيَزْحَـفْ بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ. ثلاثاً، فلمَّا أمْكنُوهُ اشْتَمَلَ عَلَيْهِمْ بِملاءَتِـهِ، وقال: هـٰذَا الْعَبَّاسُ عَمِّي وَصُنْوُ أَبِي، وَهٰؤُلاءِ أَهْلُ بيْتِي، اللهُمّ اسْتُرْهُمْ مِنَ النّارِ كَسَتْرِي إيَّاهُمْ بِملاٰءتِي هٰذِهِ، قال: فأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ الْبَابِ وحَوَائِطُ البيتِ. آمينَ ثلاثاً» *.

الأُسْكُفَّةُ، والأُسْكُوفةُ عَتَبَةُ الْبَابِ الّتي يُوطَأُ عَلَيْهَا. أنشد ابن برّي لجرير، أو الفرزدق:

مَا بَالُ لَوْمِكَهَا وَجِئْتَ تَعْيلُهَا .·. حَتَّى اقْتَحَمْتَ بِهَا أُسْكُفَّةَ الْبَابِ

قلتُ: وهذه من المعجزات الكبرى لرسولنا ﷺ إذ أمّن على دعـائه الشـريف أسْكُفَّةُ ـ عتبةُ الباب ـ، وحوائِطُهُ قَائِلةً: آمين آمين آمين ثلاث مرّات. أي استجب يا ربّ، أو اللَّهُمّ اسمـع واسْتَجِبْ كما في الخـازن، وفي تفسير النّسفي. قـال عليه

---

(١) جـ١ ص ٣٣٤.

الصّلاة والسلام: «**لَقَنَنِي جِبْرِيلُ آمين عِنْدَ فَراغِي مِنْ قراءَةِ فاتِحَةِ الكِتَاب**، وقال: **إنَّهُ كالْخَتْمِ عَلَى الكِتَابِ**» وقيل: آمين هو اسم من أسماء اللَّه تعالى. وقيل: هو خاتمُ اللَّهِ تعالى على عباده، به يَدْفَعُ عَنْهُمُ الآثام. اهـ خازن، وهـذا يدلُّ على أن لفظ آمين ليس من القرآن مُطلقاً، بل هو سُنّة لـقـاريء الفاتحة في الصّلاة وغيرها أن يختم بـه. وهو اسم فعـل بمعنى استجب وتقبّل يـا اللّه هذا الـدُّعاء، وَيُسنّ خَتْمُ الدُّعاءِ بآمِينَ سواء كان هُو الدُّعاء الذي في الفاتحة، أو غيرها. وكلمة آمين لم تكن قبلنا إلاَّ لموسى وهارون عليهما السلام. ذكر الترمذي الحكيم في نوادر الأصُول عن أنس بن مالك قال: قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ أعْطَىٰ أُمَّتِي ثلاثاً لم تُعط أَحَداً قَبلَهُمْ: السَّلامُ، وهو تحيَّةُ أَهْلِ الجنَّة. وصُفُوف الملائكة. وآمينَ، إلاَّ مَا كَانَ من موسىٰ وهارون**» قال أبو عبد اللَّه: معناه أنّ مُوسىٰ دعـا على فرعون. وأمّن هٰارون، فقال اللَّهُ تبارك وتعالى عندما ذكر دُعاء موسىٰ في تنزيله «**قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا**» ولم يذكر مقالة هٰارون. وقال موسىٰ: ربَّنا، فكـانَ من هٰارون التـأمين، فسمَّاهُ داعيـاً في تنزيله إذ صيّر ذلك منه دعوةً. وقد قيل: إنَّ آمين خاصٌّ بهذه الأُمّة لمـا رُوي عن النبيّ ﷺ أنّـه قـال: «**مَـا حَسَـدَتْكُمُ اليهُـودُ عَلَى شَيْءٍ مَـا حَسَـدَتْكُمْ على السَّـلام والتَّأمين**» أخرجه ابن ماجة من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيـه عن عائشـة، وأخرج أيضـاً من حـديث ابن عبـاس عن النبيّ ﷺ قـال: «**ما حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ما حَسَدَتْكُمُ عَلَى التَّأْمِينِ، فأَكْثِرُوا من قوْلِ آمِينَ**» قال علماؤنا رحمةُ اللَّهِ عليهم: إنَّما حسـدنا أهْـلُ الكتاب لأنّ أوَّلهـا حَمْدُ اللَّهِ، وثنـاءٌ عليْهِ، ثُمَّ خُضُوعٌ له، واستكانةٌ، ثُمَّ دُعاءٌ لنا بالهداية إلى الصّـراط المستقيم، ثُمَّ الدُّعَاءُ عليهم مع قولنا آمين، كذا في الفُتُوحَات الإلْهيّة[1] بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفيّة *

قلتُ: ومَنْ أعْلَمَ حجارةَ عَتَبَةٍ وحوائط البيْت من آجُرّ وطين بأنّه يُوجَدُ في هذا البيت رسولُ اللَّه محمّدٌ بن عَبْدِ اللَّهِ، ومعه آل بيْت العباس؟؟ وهل لها أهليّة لقبول العلم بذلك؟؟ وأنّى يكونُ لها ألسنَةٌ حتّى تنطق بالتأمين على دُعاء الأَمين محمّد بن

(١) جـ٤ ص ٦٢٦ تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل.

عبد اللّه صلوات اللّه وسلامُه عليه!! إن الكلامَ وسماعَه ممّن لا لِسانَ له أمرٌ يبلغ غاية الإعجاز. فما بالك بنطق الحيوان؟ وما بالك بنطق النّبات؟ وما بالك بنطق الجماد؟؟ لا شك أنّ مثل حدوث هذه المعجزات لا يستطيع العقلُ البشريُّ تفسيراً لها إلّا إذا أسندها إلى الإرادة الإلٰهيّة، والْقُدْرة الربّانيّة. ثمّ إنّ المولى جلّ جلاله لم يُحدث هذا التأمين في العتبة والحوائط على دعاء النبيّ ﷺ عبثاً، ولا لهواً ولا لعباً، حاشاه جلّ جلاله من خلق العبث، بل لا بُدّ لإحداثه من فوائد جمة، وأُولى هذه الفوائد لكي نجزم نحن بني البشر أنّ في كُلّ ذرّة من ذرّات هذا الكون العظيم حياةً كاملةً تماماً كحياة ذرات الخليّة الحيوانيّة المتكاملة، ودليل حياتها أنّها تعرف اللّه جلّ جلاله، وتَسْجُدُ لَهُ، وتُسَبّحهُ، وترجو رحمته، وتخشى عذابه، ودليل ذلك هنا تأمينها على دعاء المصطفى ﷺ، فإنّه لا يكون إلا بقصد الطمع بالإجَابَةِ، ونيل الأمل المطلوب ممّن بيده الأمر والنّهي، والأخذ والعطاء، ولا يملك ذلك إلا اللّه خالق الأرض والسماء، ولولا أنّ اللّه تعالى أحدث فيها ذلك الأمرَ معجزة لرسوله ﷺ لما كان لها القدرة عليه بمحض إرادتها، وعقلها وتفكيرها، وَهي لا تملك كُلّ هذا؛ فتحقيق الأمر كان باللّه الذي أنطق السّموات والأرضين بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طائعينَ﴾ [فصلت: ١١] قوله:﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ تمثيل لتحتّم تأثير قُدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثباتٌ للطوع والكره لهما. وقوله:﴿قالَتَا اتينا طائعينَ﴾ تمثيل لكمال تأثرها بالذّات عن القدرة الرّبّانية، وحصولهما كما أُمرتا به. أبو السعود. وفي الخازن: معناه أتينا بما فينا طائعين، فلمّا وصفهما أجراهما في الجمع مجرى من يعقل * فكان قولهما هذا كناية عن إيجادهما من العدم للدِّلالة على وجود الصّانع جلا جلالُه، إذ قال اللّهُ تعالى لهما: أخرجا ما خلقتُ فيكما من المنافع لمصالح العباد، أمّا أنْت يا سَمْاءُ فأطلعي شمسَكِ وقمركِ ونجومك، وأنت يا أرضُ فَشُقّ أنْهارَكِ، وأخرجي ثَمركِ ونباتكِ... فقالتا بلسان الحال، أو المقال بدون لَهَاةٍ ولا لسان: «أَتَيْنا طائعينَ» وإذا كان اللّهُ قد خلق الخلْقَ ليُعرفَ، وللدّلالة على وجوده فكذلك خلق اللّهُ التَّأمينَ في عَتَبَةِ الْبَيْتِ وَحَوَائِطِهِ للدِّلالة على صدْقِ رسالةِ محمّد ﷺ فحدثَ الأمرُ كما علمت، وثاني الفوائد. أنّ التأمين لا يكون إلّا

بقصد الإجابة من اللّه تعالى، وتحقيق الرغبة منه فيما هو مطلوب، ولمّا كان تأمين العتبة والحوائط على دعاء النبيّ ﷺ لستر بني العباس من النار كما يسترهم الرسُولُ بملاءته علمنا أنّها مسخّرةٌ من اللّه تعالى للقيام بهذا التأمين تأكيداً لرسالة المصطفى ﷺ، ولاستجابة دعائه، وثالث الفوائد إثبات الكرامة والولاية لآل العباس ببركة النبيّ ﷺ حيث شاركه ﷺ الجمادُ بالدّعاء لهم، وهذه كرامة لبيان فضلهم، ونيل الدّرجات العُلا في الدنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فهم من آل المصطفى، وحبيب اللّه المرتضى، وأمّا في الآخرة يسترهم اللّهُ بستره من النّار كما سترهم الرسُولُ في الحياة الدنيا بملاءته.

مُعْجِزَةُ قِصَّةِ غُرماءِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ رضي اللّهُ عَنْهُ

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن جابر رضي اللّهُ عنه[1] قال: «**أنَّ أبَاهُ تُوفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إنَّ أَبِي تَرَكَ عَلَيْهِ دَيْناً، وَلَيْسَ عِنْدِي إلَّا ما يُخرِجُ نَخْلَهُ، ولا يَبْلُغُ مَا يُخْرِجُ سِنِينَ مَا عَلَيْهِ، فانْطَلِقْ مَعِي لِكَيْ لاَ يُفحِشُ عَلَيَّ الغُرَمَاءُ، فَمَشَى حَوْلَ بَيْدَرٍ مِنْ التَّمْرِ فَدَعَا، ثُمَّ آخَرَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ فقال: انْزِعُوهُ، فأوْفاهُمُ الَّذِي لَهُمْ، وَبَقِيَ مِثْلُ مَا أعْطَاهُمْ**» الغُرماءُ: مفردها غريم، وهو صاحبُ الدَّين. البيْدر: الجرن، أنزِعوه: أي من البيدر. وبقي مثل ما أعطاهم: أي مثل ما أعطى أصحاب الدّيون ببركة المصطفى ﷺ قال الحافظ في الفتح: ففي رواية المغيرة: «فقال: اذْهَبْ فَصَنِّفْ تمْرَكَ أَصْنَافاً، ثم أرْسِلْ إليَّ، فَفَعَلْتُ، فَجَاءَ فَجَلَسَ على أعْلاَهُ» وفي رواية فراس في البيوع «اذْهَبْ فَصَنِّفْ تمركَ أصْنافاً: العجوةُ عَلَى حدَةٍ، وعَذقُ زيد على حِدَةٍ» عَذق زيد بفتح المهملة، وزيد الذي نُسب إليه اسم لشْخصٍ كأنّه هو الذي كان ابتدأ غراسه، فَنُسبَ إليه، والعجوة من أجود تمر المدينة. قال: وقوله: «فَأَوْفَاهُمْ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ مِثْلَ ما أعْطَاهُمْ» في رواية مغيرة «وَبَقِيَ تَمْرِي، وكأنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْء» وفي رواية ابن كعب: «وَبَقِيَ

(١) جـ٦ فتح الباري كتاب المناقب باب علامات النبوّة رقم الحديث (٣٥٨٠) وهو في الشفا جـ١ ص ١٩٣ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص ١٥٥.

لَنَا مِنْ تَمْرِهَا بَقِيّةٌ» ووقع في رواية وهب بن كيسان «فَأَوْفَاهُ ثلاثينَ وَسْقاً، وَفَضُلَتْ لَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ وَسْقاً» ـ قلت: والْوَسْقُ حِمْلُ الْبعير سِتُّون صَاعاً ـ قال الحافظ: ويُجمع بالحمل على تعدّد الغرماء، فكأنّ أصْلَ الدّين كـان منْهُ ليَهُـودِيّ ثلاثـون وسْقاً من صنف واحدٍ فأوفاهُ، وفضل من ذلك البيْدَرُ سبعة عشر وَسْقاً، وكان منه لغير ذلـك اليهودي أشياء أخر من أصْناف أخرى، فأوفاهم، وفضل من المجمـوع قدر الـذي أوْفَاهُ، ويؤيده قوله في رواية نبيح العنزي عن جابر «فَكِلْتُ لَهُ مِنَ العجْوَةِ، فأوفَـاهُ اللَّهُ، وفضُلَ لنَا من التّمر كذا وكذا، وكلتُ له من أصناف التّمر فأوفاهُ اللَّهُ، وفضل لنَا من التّمر كذا وكذا»، وقع في رواية فراس عن الشعبي ما قد يخالف ذلك، فعنه «ثُمَّ دَعَوْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ، فلمّا نظروا إليْهِ، كأنّما أُغروا به تلك السَّاعة» أي أنّهم شدَّدُوا عليه في المطالبة لعداوتهم للنبيّ ﷺ، قال: «**فَلَمَّـا رأى ما يصنَعُـون طَافَ حَوْلَ أعظمها بيْدراً ثلاث مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَلَسَ عليْهِ، ثُمَّ قال: ادْعُهُمْ، فَمَا زالَ يُكيلُ لَهُمْ حتّى أدَّى اللَّهُ أَمَانَةَ وَالِدي، وأنا راضٍ أنْ يؤدّيها اللَّهُ، ولا أرْجعُ إلى أَخَواتِي بتمرةٍ، فسلَّمَ اللَّهُ الْبَيَادِرَ كُلَّها حتّى أنّي أنْظُرُ إلى البيْدَرِ الّذِي عليْه رسُولُ اللَّهِ ﷺ كأن لَمْ ينقُص مِنْه تَمْرَةٌ واحِدَة**» قال الحافظ: ووجه المخالفة فيه أن ظاهره أن الكيْلَ جميعَهُ كان يحضُرُهُ رسُولُ اللَّهِ ﷺ، وأنّ التّمرَ لم ينقُص منه شيء البتّة. . . وقصّة عمر قد وقعت في رواية ابن كعب ففيها «**ثُمَّ جئتُ رسُولَ الله ﷺ فقال لعمر: اسمع يـا عُمـر. قـال: ألا تكـونُ قـد علمنـا أنّــكَ رسُـولُ الله؟ واللَّهِ إنّـك لَـرَسُــولُ اللَّهِ**» وفي رواية وهب «**فقال عمـر: لَقَدْ عَلِمْتُ حِين مَشَىٰ فِيهَـا رسولُ اللَّه ﷺ لَيُبَـارِكَنَّ اللَّهُ فِيهَا**». . . وقيل: النكتةُ في اختصاص عمر بإعلامه بذلك أنّه كان معتنياً بقصّة جابر مُهتّماً بشأنه، مُساعداً له على وفاء دين أبيه. وقيل: لأنّه كانَ حاضراً مع النبيّ ﷺ لمَّا مشى في النّخل. وتحقّق أن التّمر الذي فيه لا يفي ببعض الدّيْنِ، فأراد إعلامَهُ بذلك لكونه شاهَدَ أوّلَ الأمر، بخلاف من لم يُشاهد. قال الحافظ: ثمّ وجدت ذلك صريحاً في بعض طرقه. ففي رواية أبي المتوكّل عن جابـر عند أبي نعيم، فـذكر الحديث وفيه: «**فإذا رسُولُ اللَّهِ ﷺ وعمر، فقال: انطلقْ بِنَا حتّى نَـطُوفَ بنخلكَ هٰذا**» فذكر الحديث. وفي رواية أبي نضرة عن جـابر عنـده في هذه القصّـة قال: «**فأتَاهُ هو وعُمَرُ فقال: يا فُلانُ خُذْ مِنْ جَابِرَ، وأخّرْ عَنْهُ، فأبَىٰ، فكادَ عمر يَبْطُشُ**

به، فقال النبي ﷺ: «مَهْ يا عُمَرُ، هُوَ حَقُّهُ، ثُمَّ قال: اذْهَبْ بِنَا إلى نَخْلِكَ» الحديث. وفيه «فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فأخبَرْتُهُ، فقال: ائتِنِي بعُمَرَ، فأتَيْتُهُ فقال: يا عُمَرُ سَلْ جَابراً عَنْ نخْلِهِ». فذكر القِصَّة[1].

قُلتُ: وقصّة جابر هذه، ووفاء دين أبيه ممّا كان عليه من الديون، وتكثير التّمر ببركته ﷺ، وببركة دعائه ﷺ له بأداء دين أبيه من موسم التّمر في ذلك العام. ومشيه ﷺ في حائط جابر، وجلوسُهُ ﷺ على تمره كانت سبباً لوفاء اللّه عنه دين أبيه، الذي كان قد قتل بأحد، وجابر رضي اللّه عنه كان لا يَرْجُو وفاءَهُ في ذلك العام، ولا ما بعده بأعوام، ومع هذا حدثت المعجزة الكبرى فوفّى ديْنَهُ من بيْدَر واحدٍ، وفضل له من التّمر أكثر ما كان يتوقّع، بل بقي التّمرُ كما هو عليه، ولم ينقص منه شيء أبداً، لقول جابر في رواية له هنا: «فَسَلَّمَ اللَّهُ البيادر كُلَّها حَتّى أنّي انْظُرُ إلَى البيْدَرِ الَّذِي عَلَيْهِ رسُولُ اللَّهِ ﷺ كأَنْ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شيْءٌ البتَّةُ» أي أبداً، فأيَّ معجزة أبلغ وأعظمُ من هذه المعجزة الدَّالة على صدق نبوّة نبينا محمّد ﷺ؟!! فبهذه المعجزة الكبرى تمّ بها تكثير التّمر القليل، تكثيراً تمَّ به وفاء الدّيون، وبقي من القليل الكثير. إنّ مثل هذه المعجزات العظام هي التي دفعت المسلمين الأوَّلين مِنْ سلفنا الصالح إلى الإيمان برسُول اللّه ﷺ إيماناً بلغ درجة اليقين، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قسم عمر رضي اللَّهُ عنه بقول: «ألاَ نكُونُ قدْ علمنا أنّك رسُولُ اللّه؟ واللّهِ إنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» وهذا إيمان الواثق من إيمانه، الواثق من صدقه، الواثق من صدق رسالته ﷺ، وكيف لا يكون صادقاً وهو رضي اللَّه عنه كان يعلم مُسْبَقاً علماً لدنيّاً بأنّ التمر سيفي بأداء الدّيون، وزيادةً لثقته ببركة المصطفى ﷺ لقوله: «لَقَدْ علمتُ حينَ مشىٰ فيها رسُولُ اللّهِ ﷺ لَيُبَارِكُنّ اللَّهُ فِيهَا» فقد أتَمّ اللَّهُ الأمر، وأوقعَ المعجزة فَنَما التّمرُ نماءً مضطرداً مُدّة الوفاء منه، فحمِّلَ منه أكثر من حمل عشرين بعيراً، وبقي كما هو! إنّها معجزة إلٰهيّة كبرى أجْراها اللَّهُ على يد حبيبه ونبيّه ورسُوله محمّد ﷺ لتكون موعظةً للكافرين، وذكرى وهُدىً للمؤمنين. واللّه يهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم، فلك الحمدُ يا ربّ أن هديتنا لهذا، وما كُنا لنهتديَ لولا أن هَدَيْتَنَا يا اللَّه.

---

(١) انظر فتح الباري جـ٦ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤ دار المعرفة بيروت.

مُعْجِزَةُ زِيادَةِ التَّمْرِ حينَ ابْتَنَى ﷺ بزيْنَبَ رضي اللَّه عنها ومِزوَدِ أبي هريرة رضي اللَّه عنه

في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «تَزَوَّجَ رسُولُ اللَّه ﷺ، فَدَخَلَ بأهْلِهِ ـ زينبَ بِنْتِ جَحْشٍ ـ قال: فَصَنَعَتْ أُمِّي أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْساً، فَجَعَلَتْهُ في تَوْرٍ، فَقَالَتْ: يا أَنَسُ! إِذْهَبْ بِهٰذا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْ بَعَثَتْ بِهٰذَا إِلَيْكَ أُمِّي، وَهِيَ تُقْرِئُكَ السَّلاَمَ، وَتَقُولُ: إنَّ هٰذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يا رسُولَ اللَّهِ! قَالَ فَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ إنّ أُمِّي تُقرِئُكَ السَّلاَمَ، وتقُولُ: إنَّ هٰذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يا رسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: ضَعْهُ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلاَناً، وفُلاَناً وفُلاَناً، وَمَنْ لَقِيتَ، وَسَمَّى، رِجَالاً، قال: فَدَعَوْتُ مَنْ سَمَّىٰ، وَمَنْ لَقِيتُ، قال: قُلتُ لأنسٍ: ـ القائلُ الْجَعْدُ أبو عثمان ـ عَدَدُكُمْ كَانُوا؟ قال: زُهَاءَ ثلاثِمِائَةٍ! وقَالَ لِي رسُولُ اللَّهِ ﷺ: يا أَنَسُ! هٰاتِ التَّوْرَ، قَالَ: فَدَخَلُوا حتَّى امْتَلأَتِ الصُّفَّةُ والحُجْرَةُ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عشرةٌ، ولْيَأْكُلْ كُلُّ إنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قال: فَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ، وَدَخَلَتْ طائِفَةٌ حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ، فَقَالَ لِي: يا أنَسُ! ارْفَعْ، قال: فَرَفَعتُ فَمَا أَدْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرَ، أَمْ حِينَ رَفَعْتُ...» الحديث بطوله. وهذا لفظ مسلم[1] ولفظ البخاري. وقال إبراهيمُ عن أبي عثمان ـ واسمه الْجَعْدُ ـ عن أنس بن مالك «قال مَرَّ بِنَا في مَسْجِدِ بَنِي رِفَاعَةَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ النبيُّ ﷺ إذَا مرَّ بِجَنَبَاتِ أُمِّ سُلَيْمٍ دَخلَ عَلَيْهَا، فسلَّم عليها، ثُمَّ قال: كَانَ النبيُّ ﷺ عَرُوساً بِزَيْنَبَ، فَقَالَتْ لِي أُمُّ سُلَيْمٍ: لَوْ أَهْدَيْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةً، فَقُلْتُ لَهَا: افْعَلِي. فَعَمَدَتْ إلى تَمْرٍ وَسَمْنٍ، وَأَقِطٍ فاتَّخَذَتْ حَيْسَةً في بُرْمَةٍ، فأرْسَلَتْ بِهَا مَعِي إلَيْهِ، فانْطَلَقْتُ بِهَا إلَيْهِ، فَقَالَ لِي: ضَعْهَا، ثُمَّ أَمَرَنِي فَقَالَ: ادْعُ لي رِجَالاً سَمَّاهُمْ، وَادْعُ لِي مَنْ لَقِيتَ. قَالَ: فَفَعَلْتُ الَّذِي أَمَرَنِي، فَرَجَعْتُ فَإِذَا الْبَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، فَرأيْتُ

(١) وهو قطعة من حديث طويل. كتاب النكاح باب زواج زينبَ بنت جحش ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس حديث رقم (١٤٢٨) وفي صحيح البخاري كتاب النكاح فتح الباري جـ٩ ص ٢٢٦ رقم الحديث (٥١٦٣) باب ٦٤ الهدية للعروس وفي الشفا جـ١ ص ١٩٢، ودلائل النبوّة لأبي نعيم الأصبهاني ص ١٥١.

النبيَّ ﷺ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَيْسَةِ، وتَكَلَّمَ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرةً يأكُلُونَ مِنْهُ. وَيَقُولُ لَهُمْ: أذكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، ولْيأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ، قَالَ: حَتَّى تَصَدَّعُوا كُلُّهُمْ عَنْهَا، فَخَرَجَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ...» الحديث بطوله.
الحيْسُ: هو الطعام المتّخذ من التّمر والأَقِط والسَّمْنِ، وقد يُجعل عِوض الأقط الدقيق، أو الفتيت. النهاية في غريب الحديث(1) والتّوْرُ: هو إناء من صُفْرٍ، أو حجارة كالإجّانَةِ، وقد يتوضأ منه. النهاية في غريب الحديث(2) والبُرْمَةُ: هي القِدْر(3) وأمُّ سُلَيْم هي والدة أنس، وكانت تحت زيد بن سهل الأنصاري *

والغريبُ كُلُّ الغرابة أن الحافظ ابن حجر في الفتح، والنّوويَّ في مسلم، والعينيَّ في العمدة لم يتحدَّثُوا عن هذه المعجزة الجديرة بالاهتمام شرحاً وتمحيصاً، وبياناً وتفصيلاً بما يُثلج الصّدْر، أو حتى بما يفحم الخصم! وأكثر ما قالُوا فيها: إنها معجزة عظمى، دُعي الجمعُ الكثيرُ إلى شيءٍ قليل، ووقع في رواية مسلم: «أنهم كانوا زُهَاءَ - أي نحو - ثلاثمائة». هذا هو قولهم فيها برمّته لا أكثر ولا أقلَّ مع شهرتهم، وكبير عقُولهم، وعظيم تفكيرهم وحنكتهم، وهل هم عاجزون عن التحدّث عنها؟ لم يصلْ بي الظّنُّ إلى هذا الحدّ. ولكن لا بأس * وعليه فأقُول مُستعيناً بالله وحده: إنّ هذه المعجزات الكبرى، وهي تكثير الطعام القليل حتّى أشبع ثلاثمائةِ رَجُلٍ أمرٌ خارقٌ للعادة، وقوانين الطبيعة، إنّ ثلاثمائة رجلٍ يحتاجون أقلّ تقدير إلى تناول عشرين شاةً، أو إلى ثلاثة جمال، أمَّا أنّهم يشبعون من تَوْرِ حيْسٍ، وبقي منه الكثير كأن لم يؤكل منه شيء فهذه هي المعجزةُ التي تَعْجَزُ العقولُ، عن تفسيرها، والبشرُ جميعاً عن الاتيان بمثلها، ولكن ما سرُّ ذلك؟ وما مُناسبةُ وقوع هذه المعجزة؟ مناسبتُها أنَّهُ ﷺ كان عَرُوساً بزيْنَب، ويجبُ أَنْ يَحْتَفِلَ بعروسه، ويُولم عليها، وفي هذه المناسبة يجب أن تحتفل بِعُرْسِهِ ﷺ جميعُ الكائناتِ لأنَّهُ يَوْمُ فَرَحِهِ ﷺ، ويومُ زَفَافِهِ، فشاركتِ السَّماءُ بِقِسْطٍ وافرٍ لا بأسَ به، ومن فرحها أن بارك اللَّهُ بالطّعَامِ القليل، فأشبعَ كُلَّ الموجودين من الأصحاب،

---

(1) جـ١ ص ٦٧ ٤ مادة حيس.
(2) جـ١ ص ١٩٩ مادة توْر.
(3) المختار مادة ب رم.

وهو دليل على أنّ الطَّعامَ كان يُمدُّ من السَّماءِ من جنس ما هو مصنوعُ في الأرض على يد أم سُلَيْم. المؤمنة الطّيّبة الطاهرة النقيّة التّقيّة. التي أرادت أن تعلن عن قوّة إيمانها وفرحها برسول اللَّه ﷺ بتلك المناسبة العزيزة على قلب كُلِّ مسلم، فكانت منها تلك الهديّة التي باركتها السَّماء، والبركة من اللَّه، ولم يكن نُزول المائدة على عيسى عليه السّلامُ ببعيدة عن البال حين نتحدَّثُ عن هذه المعجزة لرسُول اللَّه ﷺ. فما من نبيّ من المرسلين قد آتاهُ اللَّهُ معجزةً، إلاَّ وأعطاها لنبيّه المصطفى ﷺ بطريق أبلغ وأعجز. إن وضعَ يديْه ﷺ الشّريفتيْن المباركتيْن على تلك الحيْسَةِ، وتكلُّمه بما شاء اللَّه لَهُ أنْ يتكلّم ـ بما لا علم لنا به ـ بل هو من الأسْرار التي بَيْنَهُ وبيْنَ ربّه، وما أنْ أتمَّهُ إلاَّ وأتمَّ اللَّهُ له مُراده، ولذا فقد أخذ ﷺ يَدْعُو النّاس عشرةً عشرةً، ويأمُرهم عند ابتدائِهم بالطَّعَامِ بذكر اللَّه. بسم اللَّه، فهي السِّر في بركة طعام المؤمنين إلى يوم الدّين، فَدَبَّتِ البركةُ فيه، وأكلُوا عشرةً بعد عشرةٍ من ذلكَ الطَّعَامِ المُبَارَكِ حتى شَبِعُوا جميعاً، وتفرّقُوا كُلُّهم، وتَحدُثُ المعجزةُ، وتظهر ماثلةً للعيان كالشَّمْسِ في رابعةِ النَّهارِ بشهادة الصَّحابيّ الجليل. خادم رسول اللَّه ﷺ: أنس بن مالك بن النضر، فيقول: «**فَما أدْرِي ـ لا أعلم ـ حينَ وضعتُ ـ التّوْرَ بما فيه من الْحَيْسَةِ ـ كانَ أكْثَرُ، أَمْ حِينَ رَفَعْتُ**» كانَ أكثر. هذه هي معجزة المصطفى ﷺ هُنَا في تكثير الطّعام، وَمَنْ لِمثْلِهِ من الأنبياء أن يأتُوا بمثل ما أَتَى نبيُّنا محمّدٌ ﷺ من المعجزات؟! * واسْمعْ إلى ما أخرجه الإمامُ أحمد[1] عن أبي هريرة رضي اللَّه عَنْهُ قال: «**أتَيْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يوْماً بِتَمْراتٍ، فقلتُ: ادْعُ اللَّه لي فيهِنَّ بالْبَرَكَةِ، قال: فَصَفَّهُنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ دَعَا، فقال لي: اجْعَلْهُنَّ في مِزْوَدٍ، وأدْخِلْ يَدَكَ، ولا تَنْثُرهُ. قال: فحمَّلْتُ منْهُ كذا وكذا وَسْقاً في سَبيلِ اللَّه، وَنَأْكُلُ، وَنُطْعِمُ، وكان لا يُفَارِقُ حقوي، فلَمّا قُتِلَ عَثمانُ رضي اللَّه عنْهُ انقطع عن حقوي فَسَقَط**» قال ابن كثير: ورواهُ الترمذيُّ عن عمران بن مُوسىٰ القزّاز البصري عن حماد بن زيد عن المهاجر، عن أبي مخلد عن رفيع أبي العالية عنه. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ من هذا الوجه. وأخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي هريرة أيضاً بلفظ «**كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ في غزاةٍ فأصَابَهُمْ عِوَزٌ مِنَ الطَّعَامِ، فقال: يا**

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ؛ البداية والنهاية جـ٦ ص ١١٦ ـ ١١٧.

أبا هُريرة! عِنْدَكَ شيء؟ قال: قُلتُ: شَيْءٌ من تَمْرٍ في مِزْودٍ لي. قال: جِيءْ بِهِ، قال: فَجِئْتُ بالمِزْوَدِ، قال: هـاتْ نَطْعـاً، فَجِئْتُ بالنَّـطع فَبَسَطْتُـهُ، فأدْخَـلَ يَدَهُ، فَقَبَضَ عَلَى التَّمْرِ، فإذَا هُوَ واحِدٌ وَعِشْرُون، فجعلَ يَضَعُ كُلَّ تَمْـرَةٍ ويُسمّي حتّى أتى عَلَى التَّمْرِ، فقال به هٰكَذَا فَجمَعَهُ، فقال: ادْعُ فلاناً وأصْحَـابَهُ، فـأكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَخَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ فلاناً وأصْحَابَهُ، فـأكَلُوا حَتَّى شَبعُوا وخَـرَجُوا، ثُمَّ قال: ادْعُ فُلاناً وأصْحابَهُ فأكَلُوا وشَبِعُوا وخَرَجُوا ثُمَّ قال: ادْعُ فُلاناً وأصْحَابَهُ فأكَلُوا وَشَبِعُوا وَخَرَجُوا، وفضل، ثُمَّ قَالَ لِي: اقْعُدْ، فَقَعَدْتُ فأكَلَ وأكَلْتُ، قال: وفَضَلَ تَمرٌ فأدْخلتُه في المِزْوَدِ، وقال لي: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إذا أردْتَ شَيْئاً فأدْخِلْ يَدَكَ وَخُذْهُ، ولا تكْفِي فَيُكْفَىٰ عَلَيْكَ، قال: فَمَا كُنْتُ أُرِيدُ تَمْراً إلاَّ أدْخَلْتُ يَدِي، فَأَخَذْتَ منه خمسينَ وسْقاً في سبيل اللَّهِ، قـال: وكـان معلَّقـاً خَلْفَ رَحْلِي، فَـوَقَـعَ في زَمنِ عثمـان، فَـذَهَبَ» قـال ابن كثيـر: روى البيهقيُّ من طـريقَيْن عن سَهْـل بن أسْلَمَ العدويِّ، عن يزيد بن أبي منصور عن أبيه، عن أبي هريـرة قال: «أُصِبْتُ بثـلاثِ مُصيبَاتٍ في الإسْلامِ لم أُصبْ بمثلهِنَّ: موتُ رسُول اللَّه ﷺ، وكنتُ صُـوَيْحِبَهُ، وقَتْلُ عثمان، والمِزْوَدُ، قالُوا: ومَا المِـزْوَدُ يا أبـا هريـرة؟ قال: كُنّـا مع رسُـولِ اللَّه ﷺ في سَفَرٍ فقال: يا أبَا هُرَيْرَةَ أمَعَكَ شيْءٌ؟ قال: قُلْتُ تَمْرٌ في مِزْوَدٍ، قال: جِيءْ بِهِ، فَأَخْرَجْتُ تمراً، فأتَيْتُهُ بِهِ، قال: فمسَّهُ ودعَا فِيهِ، ثُمَّ قال: ادْعُ عَشَـرَةً، فدعوتُ عَشَرَةً فأكَلُوا حتّى شَبعُوا، ثُمَّ كذلك حتّى أكَلَ الجيْشُ كُلُّهُ، وَبَقِيَ منْ تَمرٍ مَعِي في المِزْوَدِ، فقال: يا أبَا هريرة! إذَا أردْتَ أن تأخُذَ منه شَيْئاً، فأدْخِلْ يَدَكَ فِيهِ ولَا تَكْفَهُ قال: فأكلتُ مِنْه حياة النبيّ ﷺ، وأَكَلْتُ مِنْهُ حياةَ أَبِي بَكْرٍ كُلَّهَا، وأكَلْتُ مِنْهُ حَيَاةَ عُمَرَ كُلَّهَا، وأَكَلْتُ مِنْهُ حَيَاةَ عُثْمَانَ كُلَّها، فَلَمَّـا قُتِلَ عُثْمـانُ انْتُهِبَ مَا فِي يَـدِي، وانْتُهِبَ الْمِـزْوَدُ، ألَا أُخبـرُكُمْ كمْ أكلْتُ مِنْـهُ؟ أكلْتُ مِنْهُ أكْثَرَ مِن مـائتيْ وَسْقٍ»[1] ومثل هذا ما أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة العرباض بن سارية من طريق محمد بن عمـر الواقـدي: حدّثني ابن أبي سبْـرَةَ، عن مُوسى بن سعـد عن العرباض قـال: «كنتُ ألزمُ بـابَ رسُول اللَّه ﷺ في الْحَضَـر والسَّفرِ، فـرأيْنَا ليلةً ونَحْنُ بتبوُك، أو ذَهَبْنَا لِحَاجَةٍ، فَرَجَعْنَا إلى رسُول اللَّهِ ﷺ، وقدْ تَعشّىٰ مَن عنْدَهُ،

(١) ذكر هذه الروايات الحافظ ابن كثير في التاريخ: البداية والنهاية جـ٦ ص ١١٧ ـ ١١٨.

فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتَ مُنْذُ اللّيْلَةِ؟ فأخْبَرْتُهُ، وَطَلَعَ جعال بن سُراقة، وعبْـدُ اللَّه بن معقل المُزني، فكُنّا ثَلاثة كُلُّنَا جَائِعٌ، فَدَخَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ أُمّ سَلَمَةَ، فَطَلَبَ شيْئاً نأكُلُهُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَنَادَى بلالاً: هَلْ مِنْ شيْء؟ فأخذ الجُرُبَ ينفضُها، فاجْتَمعَ سبْعُ تمراتٍ فوضَعَها في صَحْفَةٍ، وَوَضَعَ عَلَيْهِنَّ يَدَهُ، وسَمَّى اللَّه، وقـال: كُلُوا باسْمِ اللَّهِ، فأَكَلْنَا، فأحْصَيْتُ أرْبَعاً وخَمْسِينَ تَمْرَةً، كُلُّها أَعُدُّهَا ونواهَا في يَدِي الأُخرىٰ، وصاحباي يَصْنَعانِ ما أصْنَعُ، فأَكَلَ كُلٌّ مِنْهُما خَمْسِينَ تَمْرَةً، وَرَفَعْنَـا أيْدِينَـا، فإذَا التّمـراتُ السَّبْعُ كمَـا هُنَّ، فقال: يـا بِلالُ ارفعْهُنّ في جُـرابِكَ، فلمَّـا كـانَ الغـد وَضَعَهُنَّ في الصَّحْفَةِ، وقال: كُلُوا بسْمِ اللَّه، فأكلْنَا حَتَّى شبِعْنَا، وإنّا لَعَشَرَةٌ، ثُمَّ رَفَعْنَـا أيْدِينَـا، وإنَّهُنَّ كَمَا هُنَّ سَبْـعٌ، فقال: لـولاَ أنّي أسْتَحِي من رَبِّي عزَّ وجـلَّ لأكَلْتُ مِنْ هٰذِهِ التَّمراتِ حتّى نَرُدَّ إلى المدينَةِ عَنْ آخِرِنَا، فَلَمَّا رَجَعَ إلى الْمَدِينَـةِ طَلَعَ غُلَيْمٌ مِنْ أهْلِ المدينةِ فَدَفَعَهُنَّ إلى ذٰلِكَ الغُلامِ، فانْطَلَقَ يَلُوكُهُنَّ»[٢] *

قلتُ: إنَّ هذه المعجزةَ النبويّةَ قدْ بَلَغَتْ الذّروةَ القُصْوَى من الإعجاز، وعلى الأخصّ ما نُقِلَ عَنْ مِزْوَدِ أبي هريرة رضي اللَّه عنه، إنَّهُ حقّاً لأمْرٌ غريبٌ بالفعل، ومن عجائب الدنيا وغرائبها، وسرٌّ عظيم بيْنَ رسُول اللَّهِ ﷺ، وبين خليله أبي هريرة رضي اللَّه عنه، وهو من الأسرار الكبرى التي كان يكتُمها أبو هريرة رضي اللَّه عنه، ولم يكن له أن يُفشيه حتّى تحدّث به بعد استشهاد عثمـان عن المصائب الثـلاث التي أصابتْهُ، ولما ذكر المزودَ، قيل: وما المزودَ فذكرَ عجائبَهُ وغـرائبَه، والمـزود عبارة عن وعاء كالجراب يُجعل فيه الزّادُ، وكان قد شرط عليـه رسولُ اللَّه ﷺ إذا أراد دوام هذا التّمر بمزوده أن لا يقلبه على وجهه، وأن يمدّ يده إليه فيأخذ منه ما يشاء، ويُطعم من يشاء إنه كنز عظيمٌ مبارك فيه كُلُّ الخير من الرزق الحلال، وقد حافظ عليه أبو هريرة، وكان حريصاً عليه كُلَّ الحرص، فكان يجعله تحت حقوه،

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٨ وقال الحافظ في الفتح جـ١١ ص ٢٨٠: ومزود أبي هريرة أخرجه الترمذي وحسّنه، والبيهقيُّ في الدلائل من طريق أبي العالية عن أبي هريرة، وأخرجه البيهقيُّ أيضاً من طريق سهل بن زياد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة نحوه اهـ. وكثرة طرقه دليل قوّته.

أي إزاره خشيةَ أن يراه أحدٌ، فتذهب بركتُه، وبقي يأكُل منه من زمن المصطفى ﷺ حتى مقتل عثمان رضي اللَّه عنه، ويقُول قد أكلتُ مِنْهُ أكثر مِنْ مائتي وَسْقٍ، والْوَسْقُ: ستُّون صاعاً، وهو حملُ البعير. معناه أكل منه في تلك المدة حِمْلَ مائتيْ بَعيرٍ. وهل بقي من وجوه الإعجاز بعد هذه المعجزة من شيء؟! لا واللَّه، إنّها معجزة الحياة الدنيا كلها، إنها كافية ووافية لإيمان المخلوقات به ﷺ جميعاً، أُمَّةٌ بعدَ أُمّة، وجيلٌ بعد جيل حتى يوم يبعثون لو كانوا بها وبأمثلها يؤمنُون. لقد آمنّا باللَّه ورسُوله، والمنّةُ والفضل للَّه وحده، وهو وليّنا في الحياة الدنيا والآخرة، وهنيئاً لمن كان اللَّهُ وليَّه، ونبيُّه محمَّدٌ ﷺ حبيبُه ورسولُه، ولذا يحقّ لنا أن نفتخر بدين الإسلام وبنبيِّنا محمد عليه الصّلاة والسلام.

مُعْجِزَةُ قَصْعَةِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال البخاريُّ في صحيحه[1] حدثنا مُوسىٰ بنُ إسْماعيلَ، حدَّثنا مُعْتَمِرٌ عَنْ أبيهِ، حدَّثنا أبُو عُثْمَانَ أنَّه حَدَّثَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ **أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاساً فُقراءَ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال مرَّةً: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بخامسٍ، أَوْ سَادِسٍ، أَوْ كَمَا قال: وإنّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلاثَةٍ، وانْطَلَقَ النبيُّ ﷺ بعشرة، وأَبُو بكْرٍ ثلاثة، قال فهو أنَا وأَبِي وأُمِّي، وَلَا أَدْرِي هل قال امرأتي وخَادِمِي بَيْنَ بَيْتِنَا وبَيْن بَيْتِ أبي بكْرٍ، وأنَّ أبَا بَكْرٍ تَعَشَّىٰ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبث حتَّى صلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حَتَّىٰ تَعَشَّىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فجاءَ بَعْدَمَا مَضَىٰ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ. قَالَتْ لهُ امْرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ ـ أو ضَيْفِكَ؟ ـ قال أَوَما عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حتَّىٰ تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ. قال: فَذَهَبتُ فاخْتَبَأْتُ. فقال: يا غُنْثَر ـ فَجَدَعَ وَسَبَّ ـ وقال: كُلُوا. وقال: لَا أُطْعَمُهُ أَبَداً. قال: وأيْمُ اللَّهِ ما كُنَّا نأخُذُ مِنَ اللُّقْمَةِ إلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، حَتَّىٰ شَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كانَتْ قَبْلُ فنظرَ أَبُو بَكْرٍ فإذا شيءٌ أوُ أكْثَرُ، فقال لامْرَأَتِه: يا أُخْتَ بَني فِرَاس. قالت: لَا وَقُرَّةِ عَيْني، لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِمَّا قَبْلُ بِثَلاثَ مِراتٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وقال: إنّما كَانَ الشَّيْطَانُ ـ يعني**

---

(١) كتاب المناقب باب علامات النبوّة جـ٦. الفتح ص ٥٨٧ رقم الحديث (٣٥٨١).

يَمينَهُ ـ ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إلى النبيِّ ﷺ فأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ بيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَمَضَىٰ الأَجَلُ، فَفَرَّقَنَا اثنَا عَشَرَ رَجُلاً مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنهُمْ أُنَاسٌ، اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، غَيْرَ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ، قال: أَكَلُوا مِنهَا أَجْمَعُونَ، أو كما قال».

الصُّفَّة: مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلّل أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانُوا يكثرون فيه ويقلّون بحسب من يتزوَّج منهم، أو يموتُ أو يسافرُ، وقد سرد أبو نعيم أسماءهم في الحلية فزادوا على المائة، ووقع في حديث طلحة بن عمرو عند أحمد وابن حبان والحاكم: «كان الرَّجُلُ إذَا قَدِمَ على النّبيّ ﷺ، وكانَ له بالمدينة عريف نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصّفّة» والخلاصة: كان أهل الصّفّة ناساً فقراء لا منازل لهم، فكانُوا ينامُون في المسجد لا مأوى لهم غيره، وكان أبو هريرة منهم لما روي عنه قال: «كُنت من أهل الصُّفّة، وكُنّا إذا أمْسَيْنَا حَضَرنَا رَسُول اللّهِ ﷺ فيأمُرُ كُلَّ رَجُلٍ فينصرف برجل، أو أكثر، فيبقى من بقي عشرة، أو أقلّ، أو أكثر فيأتي النبيُّ ﷺ بعشائه، فنتعشّى معه، فإذا فرغنا قال: نامُوا في المسجد» رواه يزيد بن عبداللّه بن قسيط من طريق نعيم المجمر عنه. وهذا يعني أنّه ﷺ كان يتعشّىٰ مع الفقراء، ويترك أَهْلَهُ رحمةً منه ﷺ بهم، وتطييباً لخاطرهم، وقوله: «مَنْ كَانَ عَنْدَهُ طَعَامُ اثنيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالثٍ» أي من أهل الصُّفّة المذكورين آنفاً الخ.. قوله: «وإنّ أبا بكْرٍ جَاءَ بثلاثةٍ، وأَطَلَقَ النبيُّ ﷺ بَعَشَرَةٍ» فأخذ أبو بكر ثلاثةً على عدد أهله، ودلَّ ذلك على أنّ أبا بكر كان عنده طعام أربعة، ومع ذلك فأخذ خامساً وسادساً وسابعاً، فكأن الحكمة في أخذه واحداً زائداً عمّا ذكر النبيّ ﷺ أنّه أراد أنْ يؤثر السابع بنصيبه إذ ظهر له أنه لم يأكل أولاً معهم. قوله: «فَهُوَ أنَا وأَبي وأُمِّي» القائل هو عبد الرحمن بن أبي بكر. قوله: «ولاَ أَدري هَلْ قال امرأتي وَخَادِمِي» شكٌّ من الراوي. ودلّ الحديث أنّ أبا بكر تعشّىٰ مع رسُول اللّه ﷺ، وترك أضيافه، ولم يتعشّ معهم، ولما أتى إلى منزله «قالت له امرأتُهُ: ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ»؟ تستطلعه خبر ذلك بصيغة الاستفهام، فاستنكر أبو بكر منها الأمر وقال: «أَوَ مَاعَشَّيْتِهِمْ»؟؟ قالت: «قَدْ

عَرَضُوا عليْهِم» أي الخدم، أو إنَّ آل أبي بكر عرضوا على الأضياف العشاء فأبوا، فعالجوهم فامتنعُوا حتّى غلبوهم. وقوله: «قال: فَذَهَبْتُ فاخْتَبَأْتُ» القائل عبد الرحمن. أي خوفاً من خصام أبي بكر له، وتغيظُه عليه. قوله: «فقال: يا غُنْثَرُ فَجَدَعَ وَسَبَّ» قال الحافظ في الفتح: في رواية الجريري فقال: «يا غُنْثَرُ! أقسَمْتُ عليْكَ إن كنتَ تَسْمَعُ صَوْتِي لمَا جِئْتَ، قال: فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ: واللَّهِ مالي ذَنْبٌ هؤلاءِ أضْيَافُكَ فَسَلْهُمْ. قالُوا: صَدَقَكَ قَدْ أتانَا» أي بالطعام فلم نأكل حتى تحضر فتأكل معنا. وقوله «فَجَدَعَ وَسَبَّ» أي دعا عليه بالجَدْعِ وهو قَطْعُ الأُذن، أو الأنف، أو الشفة. فأمرهم بتناول الأكل، وامتنع عن تناوله معهم لأنّه كان قد تعشى مع رسول اللَّه ﷺ، ولانزعاجه بتأخير الطعام عنهم، ثم بدأوا بذكر اللَّه، وتناولُوا من الطّعام، وحدثت المعجزة، فكانُوا لا يأكلون لقمةً «إلَّا رَبَا» أي زاد الطعام «مِنْ أسْفَلِهَا» أي من الموضع الذي أُخذت منه، وهذا شيءٌ غريبٌ جداً «فَنَظَرَ أبُو بكْرٍ» بعدما شبعُوا «فإذَا شيْء، أوْ أكْثَرُ» أي فإذا القصعة فيها قدْرَ الّذي كانَ فيها أولاً أوْ أكثر، فخاطبَ زوجته أُمّ رومان، وكانت من بني فِراس بقوله: «يا أُخْتَ بَني فِراس» فأم رُومان من ذريّة الحارث بن غنم، وهو أخو فراس بن غنم فنسبها إليه متعجِّباً من هذا الأمر إذ لم يحدث له من قبل «قالت: لاَ وَقُرَّةَ عَيْني» تُقسم يميناً من السرور بالكرامة التي حصلت لهم بهذه البركة العظيمة «لَهِيَ أكْثَرُ» أي القصعةُ «مِمَّا قَبْلُ» «فأكَلَ مِنْهَا أبُو بكر وقال: إنَّما كان الشَّيطانُ، يَعْني يمينَهُ» التي حلفها لا يأكُلُ من الطعام في قوله «واللَّهِ لا أطعمه»، وإنما أكل لقمة لقمع الشيطان وإرغامه لأنه قَصَدَ بتزيينه له اليمين إيقاع الوحشة بينه وبين أضيافه، فأخزاه أبو بكر بالحنث الذي هو خير، فدعا بالطعام فأكل وأكلُوا، فجَعَلُوا لا يرفعون اللّقمة إلا ربا من أسفلها، والحاصلُ أنّ اللَّه أكرم أبا بكر فأزال ما حصل له من الحرج فعاد مسروراً، وانفك الشيطانُ مدحوراً. وقوله: «ثُمَّ حَمَلَ» أي القصعة التي فيها الطعام. الذي بارك اللَّهُ فيه «إلى النّبيّ ﷺ فأصْبَحَتْ عِنْدَهُ، فَفَرَّقَنَا اثنا عشر رجُلاً مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ» أي فرقهم اثنيْ عشر فرقة ونَصْبُ اثنا عشر. على طريق من يجعل المثنى بالرفع في الأحوال الثلاثة. ومنه قوله تعالى: «إنَّ هٰذانِ لَسَاحِرَانِ» ويُحْتَمل أن يكون «فَفَرَّقَنَا اثنا عشر رَجُلاً» بضم أوّله على البناء للمجهول. أي مع كل ناس عريفاً. قوله:

«قال كُلُوا مِنْهَا أجْمَعُونَ. أو كما قال» هو شكٌّ من أبي عثمان في لفظ عبد الرَّحْمن. قال الحافظ في شرح الحديث: وأمَّا المعنى فالحاصلُ أنّ جميع الجيْش أكلوا من تلك الجفنة التي أرسلها أبو بكر إلى النبي ﷺ، وظهر بذلك أنّ تمام البركة في الطعام المذكور كانت عند النّبي ﷺ لأنّ الّذي وقع فيها في بيْت أبي بكر ظهورُ أوائل البركة فيها، وأمَّا انتهاؤها إلى أن تكفي الجيش كلهم فما كانَ إلاَّ بَعْدَ أنْ صَارَتْ عند النبيِّ ﷺ على ظاهر الخبر. اهـ. وقد روى أحمد والترمذيّ والنسائي من حديث سمرة قال: «**أُتي النبي ﷺ بقصْعة فيها ثريدٌ فأكلَ، وأَكَلَ القوْمُ، فما زالُوا يتداولُونَها إلى قريب مِنَ الظُّهر، يأكُلُ قومٌ، ثُمَّ يقُومُونَ، ويجيء قَوْمٌ فيتعاقبونه، فقال رجل: هَلْ كانَتْ تُمدُّ بِطَعَامٍ؟ قال: أمَّا مِنَ الأَرْضِ فَلاَ إلاَّ أنْ تكُونَ كانَتْ تُمدُّ مِنَ السَّماءِ**» وهذه من أعظم المعجزات لرسُول اللّهِ ﷺ، وأبلغ الكرامات لأصحابه الكرام، حيث طلب الحواريُّون من عيسى عليه السلام على جهة الاختبار لقدرة اللّه تعالى بأنه يَسْتَطيعُ أن يُنزل عليهم مائدة من السَّماءِ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّه إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهدينَ * قال عيسىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تكُونُ لَنَا عيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيةً مِنْكَ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازقينَ * قال اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العالمين﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥] يسألون عيسى عليه السلام بقولهم هل يفعل ربّك، أو هل يُطيعكَ إن سألتَه أن يُنزّل علينا مائدة: أي سفرة من الطعام فنأكل منها لتطمئنّ قلُوبنا بقدرة اللّهِ، ولنزدادَ إيماناً وَيَقيناً بأنّك رسولُ اللّهِ حقّاً وصدْقاً، وبنزولها نكون عليها من الشاهدين للّهِ بالوحدانيّة، ولك بالرّسالة والنبوّة، فأجابهم عيسىٰ في قدرة اللّه بقوله: اتّقُوا اللّهَ في هذا السؤال إنْ كُنْتُمْ مؤمنين، فهو سؤال تعنّت، ولا ينبغي لكم أن تشكّوا في قدرة اللّه تعالى، فأجابوه مُصرّين على طلبهم، نريدُ نزول المائدة لنأكل منها للتبرّك بها، لأنها ستنزل من عند اللّه، وأيضاً لتطمئن قلوبُنا وتستيْقنُ قدرة اللّه تعالى، فإنّا وإن كنا مؤمنين بك، ولكن عند نزولها نزداد يقيناً وطمأنينة، ولمّا كان لا بُدّ من هذا الأمر رضخ عيسى عليه السلام للأمر الواقع،

فاغتسل، ولبس المسح، وصلّى ركعتين، وطأطأ رَأْسَهُ، وبكى، ثم دعا اللّه تعالى ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تكونُ لَنَا عيداً لأوّلِنَا وآخِرِنَا﴾ أي عائدة من اللّه علينا، وحُجّة وبُرهاناً، وسنتَّخذُ يومَ نزولها عيداً يكون لنا ولمن يأتي من النّاس من بعدنا، وتكون المائدة أيضاً ﴿وآيةً مِنْكَ﴾ دلالة على قدرتك ووحدانيّتك، وحجّة بصدق رسولك ﴿وارْزقْنَا﴾ الشكر على هذه النعمة، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازقينَ﴾ خيرُ من تفضّل ورزق. وأجاب اللّهُ عزّ وجل عيسى عليه السلام، وأنزل عليه المائدة من السّماء، وشرط اللّهُ عليهم بأنَّ من يكفر بعد نزولها، فعذابه أليم، لم يعذبه اللّه أحداً من العالمين، وتمّتْ المعجزةُ الإلٰهيّة، ونزلت المائدة تطيرُ بها الملائكة عليها كُلّ طعام، وهذا الصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسّرين. أنها نزلت لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿إنّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد من اللّهِ بإنزالها، ولا خلف في خبره ووعده، ولما روي عن عمار بن ياسر قال: قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: «**أُنْزِلَتْ المائدةُ من السَّماءِ خُبْزاً وَلَحماً، وأُمرُوا أن لا يخُونُوا ولا يدّخِرُوا لغَدٍ، فخانُوا وادَّخَرُوا، وَرَفَعُوا لِغدٍ فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازيرَ**» أخرجه الترمذيُّ، وقال: قد روي عن عمّارٍ من غير طريق موقُوفاً وهو أصحّ، وقد استفاض المفسّرون بنقل الروايات، وسرد قصّتها، وبما أشرتُ إليه كفاية. إذ المقصود من ذكرها المقارنة بينها، وبين قصعةِ رسول اللّه ﷺ التي كانت تُمدُّ من السّماء، بغير طلب من أصحابه، وغير جهد من الرسُول ﷺ بالدُّعاء، ونتائج المُعجزتين أن مسخ اللّهُ من كفر بها من الحواريين قردة وخنازير، وحلّت عليهم اللعنة إلى يوم الدين، ولعذابُ الآخرة أشدّ وأبقى، بَينما أصحاب رسول اللّه ﷺ ازدَادُوا إيماناً مع إيمانهم، وحماساً لنصرة اللّه ورسوله، وثباتاً على التوحيد والكتاب والسنّة حتى لاقُوا وجه ربّهم، وفازُوا بالنعيم المُقيم بجوار المولى العظيم. أخرج الإمام أحمد عن سمرة بن جندب قال: «**بَيْنَمَا نَحنُ عِنْدَ النّبيّ ﷺ إذْ أُتِيَ بقصْعَةٍ فيهَا ثريدٌ. قال: فأكَلَ وأكَلَ الْقَوْمُ، فَلَمْ يَزَالُوا يَتَدَاوَلُونَهَا إلى قريب مِنَ الظُّهْرِ، يأكُلُ قَوْمٌ، ويَجيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ، قال: فقال له رجُلٌ: هَلْ كانَتْ تُمدُّ بطعَامٍ؟ قال: أمَّا مِنَ الأرْضِ فَلاَ، إلاّ أَنْ تَكُونَ كَانتْ تُمدُّ مِنَ السَّماءِ**» وقال الحافظ ابن كثير:[1] ثم رواه أحمد عن يزيد بن هٰارون عن سليمان

(١) في التاريخ البداية والنهاية جـ٦ ص ١١٢.

عن أبي العلاء عن سمرة «أن رسُول اللّه ﷺ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ فيها ثريدٌ فتَعَاقَبُوهَا إلى الظهر من غَدْوَةٍ، يقوم ناسٌ، ويقعُدَ آخرون، قال له رجلٌ: هل كانت تُمدُّ؟ فقال له: فَمِنْ أيْنَ تَعْجَبُ؟ ما كانت تَمُدُّ إلاَّ من هُهُنَا، وأشار إلى السَّماءِ» وقد رواه الترمذيُّ والنّسائيُّ أيضاً من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي العلاء. واسمه يزيد بن عبداللَّه بن الشّخير عن سمرة بن جندب به. قلت: وكون القصْعة كانت تمُدّ بالطعام من السّماء ليس الأمر على ظاهره، بل كانت تُمدُّ بالبركة من السّماءِ على حدّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا واتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ ولكِنْ كَذَّبُوا فأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كانُوا يكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] والبركات هنا عامّة في نزول المطر والزيادة في الأرزاق وغيرها. وأصل البركة ثبوتُ الخيْرِ الإلٰهيّ في الشيء، وزيادته، وقد أثبتَ اللَّهُ تعالى التقوى لصحابة النّبيّ ﷺ بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وعلَىٰ الْمُؤْمنينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وأهْلَهَا وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَليماً﴾ [الفتح: ٢٦] فكانُوا هم أهل التقوى في علم اللَّه لأنّ اللَّه تعالى اختار لدينه، وصحبة نبيّه محمد ﷺ أهل الخير والصّلاح من أبناء هذه الأمة، فكانُوا أهلاً لتنزّل البركات عليهم من السّماء، معجزةً لنبيّه الكريم، وإشادةً بفضلهم إلى يوم الدّين، والجمهور على أنّ كلمة التّقوى هي الشهادة، وقيل: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، والإضافة إلى التقوى باعتبار أنّها سبب التّقوى، وأساسها. وقال عليٌّ وابنُ عمر: كلمةُ التقوى لا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريك له له الملك وله الحمدُ وهو على كُلِّ شيءٍ قدير * واللَّهُ أعلمُ.

معجزة تكثير شعير عائشة أم المؤمنين رضي اللَّهُ عنها

قال البخاريُّ: حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن أبي شيبة، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا هشامٌ عن أبيه «عَنْ عائشة رضي اللَّهُ عنها قالت: لَقَدْ تُوفِّيَ النَّبيُّ ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاّ شَطْرُ شَعِيرٍ في رَفٍّ لِي، فأَكَلْتُ مِنْهُ حتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ»(١) وقال مسلم في صحيحه: حدّثني سَلَمَةُ بنُ شبيب، حدَّثنا الْحَسَنُ بنُ

---

(١) كتاب الرقاق. فتح الباري جـ١١ ص ٢٧٤ رقم الحديث (٦٤٥١).

أعيُن، حدَّثنا مَعْقلُ عَنْ أبِي الزُّبَيْرِ عن جابرٍ «أنَّ رَجُلاً أتى النبيَّ ﷺ يَسْتَطعِمُهُ فأطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ، فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأْكُلُ مِنْهُ وامْرأتُهُ وَضَيْفُهُمَا حتَّى كَالَهُ فَأتَى النَّبيَّ ﷺ، فَقَالَ لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ ولَقَامَ لكُمْ»(١) ويا للأسف لم يتكلّم النووي على هذه المعجزة أبداً، وقوله في حديث عائشة عند البخاري «وَمَا في رَفّي مِنْ شيْءٍ يأكُلُه ذُو كَبِدٍ» شمل جميع الحيوانات، وانتفى جميع المأكولات من اللحوم والتّمور والحبوب «إلاَّ شَطْرَ شَعيرٍ» أي نصف وَسْقٍ من شعير. «في رَفّ لي» في الفتْح. قال الجوْهريُّ: الرفّ شبهُ الطّاق في الحائط، وقال عياض: الرّفُّ خشبٌ يرتفعُ عَنِ الأرض في البيْت يوضعُ فيه ما يُراد حفظهُ. اهـ وفي اللسان. الرَّفّ بالفتح: خشبٌ يُرفَعُ عن الأرْض إلى جنب الجدارِ يُوقَى به ما يوضعُ عليه، وجمعه رُفُوفٌ ورِفافٌ. وفي حديث كعب بن الأشرف: «إنّ رِفَافِي تَقَصَّفُ تَمْراً مِنْ عجْوَةٍ يغيبُ فيها الضّرسُ». والرَّف: شبهُ الطّاق. اهـ وهذا الأخيرُ أقربُ للمراد، وقوله: «فأكلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فكِلْتُهُ» بكسر الكاف من الكيل، وهو معرفة الكميّة المتبقيّة «فَفَنِيَ» أي فرغ. قال ابن بطال كما نقله الحافظ في الفتح: فيه أنّ الطّعامَ المكيل يكون فناؤهُ معلوماً للعلم بكيله، وأنّ الطعام غير المكيل فيه البركة لأنّه غير معلوم مقداره * قلتُ: في تعميم كل الطعام بذلك نظر، والذي يظهر أنّه كان من الخصوصيّة لعائشة ببركة النبيّ ﷺ، ووقع مثل ذلك في مزود أبي هريرة الذي أخرجه الترمذيّ وحسّنه، والبيهقيُّ في الدلائل كما تقدّم ويؤيده حديث مسلم هنا، ودلّ على أنّ سبب رفع النماء وزيادة الخير والبركة فيهما هو الكيل، وعليه فمن أكرمه اللَّهُ بكرامة بزيادة ما في يده من الأموال، فالمتعيّن عليه حينئذ كتم هذا السرّ، وأن لا يُشغل باله بعدّها أو بكيلها، وإنما يشغل نفسه بفعل الخيرات، وموالاة الشكر، ورؤية المنّة للَّه تعالى، ولا يُحْدِثُ في تلك النعمة تغييراً، أو تحويلاً، ويَدلُّ على ذلك تمرات أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه، ولا بأس من إعادته لفائدته. فأخرج الترمذيُّ وحسّنَهُ والبيهقيُّ في الدلائل من طريق أبي العالية عن أبي هريرة «أتَيْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ بِتَمراتٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّه لِي فيهنَّ بالْبَرَكَة، قال: فَقَبَضَ، ثُمَّ

---

(١) كتاب معجزات النبي ﷺ جـ١٥ شرح النووي نشر مؤسسة مناهل العرفان رقم الحديث (٢٢٨١).

دَعَا، ثُمَّ قال: خُذْهُنَّ فاجْعَلْهُنَّ في مِزْوَدٍ، فإذَا أَرَدْتَ أنْ تأْخُذَ مِنْهُنَّ فأدْخِلْ يَدَكَ فخُذْ ولا تَنْثُرْ بِهِنَّ نَثْراً، فَحمَّلْتُ من ذٰلِكَ كذا وكذا وسْقاً في سَبِيلِ اللَّهِ، وكُنَّا نأكُلُ وَنُطْعِمُ، وكان المِزْوَدُ مُعلَّقاً بحقوي لا يُفَارِقُهُ، فَلمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ انْقَطَعَ»[1] وهذا يُفسّر قول النبيّ ﷺ للرجل في رواية مسلم «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأكَلْتُم مِنْهُ ولقامَ لَكُمْ» كما قام مزود أبي هريرة، وهذه أسرار إلٰهيّةٌ خفيّة قدْ ظهرت ماثلة للعيان في هذه المعجزة العظمى تجعل من ضعيف الإيمان قُوّةً يصبحُ بها في مصافّ عباد الله المؤمنين الصَّادقين. إنّ منْ لم يتحرّكْ شُعورُهُ الدينيُّ، ويخشعْ قلْبُهُ، ويَقْشَعِرّ جلدُه من هيْبَةِ جلال اللَّه لهذه المعجزات فهو فاقد الإحساس الدينيّ إن لم يكن كليّاً فهو قريب منه. إنّ هذه المعجزات الإلٰهيّة، والأسرار النبويّة هي التي صيّرت المؤمنين أشدَّاءَ في إيمانِهِمْ، أعزَّاءَ باللَّهِ وبدينهم، فأيْنَما حلُّوا أو ارتحلُوا حلَّ وارتحلَ معهم الضّياءُ والهدى والنُّورُ بما يحملون في صدورهم من آي الذِّكْرِ الحكيم، والقرآن العظيم.

مُعجزة تكْثير اللَّبَنِ

أخرج البخاريُّ في صحيحه[2] عن مجاهد «أَنَّ أبَا هُرَيرةَ كَانَ يقُولُ: واللَّهِ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو، إنْ كنتُ لأعتمدُ بِكَبِدِي على الأرْضِ مِنَ الجُوعِ، وإنْ كُنتُ لأشُدُّ الحجرَ على بَطنِي مِنَ الجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يوْماً عَلَى طريقهم الّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فمرَّ أبو بكْرٍ، فَسَأَلتُه عَنْ آيةٍ من كتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلته إلّا لِيُشبِعَنِي، فَمرَّ ولَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مرَّ بي عمرُ فسألته عن آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سألتُهُ إلَّا لِيُشبِعَنِي، فمرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مرَّ بي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حينَ رآني وعَرفَ مَا فِي نَفْسِي، ومَا فِي وَجْهِي، ثم قال: يا أَبَا هِرّ! قُلتُ: لَبَّيْكَ رسُولَ اللَّهِ، قال: الحقْ، ومضَى، فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ فاسْتَأذَنَ فأُذِنَ لي فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَناً في قَدَحٍ. فقال: مِنْ أيْنَ هٰذا اللَّبَنَ؟ قالُوا: أهْداهُ لكَ فلان ـ أو فلانة ـ قال: أبا هِرّ! قُلْتُ: لَبيْكَ يا رسُولُ اللَّهِ، قال:

---

(١) ذكر هذا الوجه ابن حجر في الفتح جـ١١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٢) كتاب الرقاق فتح الباري جـ١١ ص ٢٨١ رقم الحديث (٦٤٥٢) باب كيف كان عيشُ النّبي ﷺ وأصحابه وهو في المستدرك جـ٣ ص ١٦ كتاب الهجرة. وفي الشفا جـ١ ص ١٩٢. وفي دلائل النبوّة للأصبهاني ص ١٥٠ وفي الوفا بأحوال المصطفى جـ١ص ٢٩٤.

الحقْ إلَى أهْلِ الصُّفَّةِ فادْعُهُمْ لِي. قال: وأهْلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسْلام، لاَ يأْوُونَ عَلَى أهْلٍ، ولاَ مالٍ، ولاَ عَلَى أحَدٍ، إذَا أتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْها شيئاً، وإذَا أتَتْهُ هَدِيَّةٌ أرْسَلَ إليْهم، وأصَابَ مِنْهَا، وأشركَهُمْ فيهَا، فَسَاءنِي ذلكَ، فقلتُ: ومَا هَذا اللَّبَنُ في أهْلِ الصّفّة؟ كُنْتُ أحقَّ أن أُصيبَ من هَذَا اللَّبن شَرْبةً أتقوّى بِهَا، فإذَا جَاؤوا أمرني فكنْتُ أنَا أُعطيهم، ومَا عَسَى أن يَبْلُغَنِي مِنْ هَذا اللَّبنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وطَاعَةِ رسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فأتيْتُهُمْ فَدَعوتُهم، فأقْبَلُوا فاسْتَأذَنُوا فأذِنَ لَهُمْ، وأخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ. قال: يا أبَا هِرّ! قلتُ: لَبّيْكَ يا رسُولَ اللَّهِ، قال: خُذ فاعطهم. فأخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حتّى يَرْوَى، ثمَّ يَرُدُّ عليَّ الْقَدَحَ فأُعْطِيه الرجلَ فيشْرَبُ حتّى يَرْوَى. ثُمَّ يردُّ عليَّ الْقَدَحَ، فيشْرَبُ حتّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ، حتّى انْتَهَيْتُ إلى النبيّ ﷺ، وقد رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ. فأخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ على يَدِهِ، فَنَظَرَ إليَّ فَتبسَّمَ، فقال: أبا هِرّ، قُلتُ: لَبيْكَ يا رسُولَ اللَّه، قال: بَقيتُ أنَا وأنْتَ. قُلتُ: صَدَقْتَ يا رسُولَ اللَّهِ، قال: اقْعُدْ فاشرَبْ، فَقَعَدْتُ فشربتُ، فقال: اشْرَبْ، فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يقُولُ: اشْرَبْ، حَتَّى قلتُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحقّ ما أجِدُ لَهُ مَسْلَكاً، قال: فأرِنِي، فأعْطَيْتُه الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّه وَسَمَّى وشَرِبَ الفَضْلَةَ» *

الْقَدَحُ من الآنية، بالتّحريك: واحدُ الأقداح الّتي للشرب معروف. قال أبو عبيد: يُرْوِي الرَّجلَيْن[1] * قُلتُ: ومن أجل هذا كان يستغربُ أبو هريرة رضي اللَّهُ عنه من قدح اللَّبن، وكيف سيكفي الجياع من أهل الصّفة الذين يتجاوز عددهم المائة!! وهل هذا معقول طالما أنّه لا يُرْوِي إلاَّ رجلين، وقد حدثت المعجزة، وأقبل أهلُ الصُّفَّة الفقراءُ الجياعُ، وأخَذُوا مجالسهم من البيت، وقعد كلّ منهم في المجلس الذي يليقُ به، ولم أقف على عددهم إذ ذاك، ولكن ذكر الحافظ في الفتح في أبواب المساجد في أوائل كتاب الصلاة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة «رأيتُ سبعينَ مِنْ أصْحَابِ الصُّفَّةِ» الحديث. قال الحافظ: وفيه إشعارٌ بأنّهم كانُوا أكثر من ذلك... وجمع الجميع أبو نعيم في الحلية، وعدّتهم تقربُ من المائة لكنّ الكثير من ذلك لا يثبتُ... وقال أبو نعيم: كان عددُ أهل الصُّفّة

(١) كذا في اللسان.

يختلف بحسب اختلاف الحال، فرّبما اجتمعوا، فكثَروا، وربما تفرَّقُوا إمّا لغزوٍ، أو سَفرٍ، أو استفتاء، فَقَلُّوا، ووقع في عوارف السهروردي: أنَّهُمْ كانُوا أربعمائة *

انتهى كلام الحافظ بن حجر(١) ويدلّ ظاهر الحديث أنّهم كانوا جمعاً لا بأسَ به لا يقلّون عن السبعين رجلاً كما هو مبيّن من طريق أبي حازم عن أبي هريرة «رأيْتُ سبعينَ من أصْحَاب الصُّفّةِ» ولذلك يتعجّبُ من قدح اللبن كيف يكفيهم! ففي رواية علي بن مسهر «وأيْنَ يَقَعُ هَذا اللَّبَنَ منْ أهْلِ الصُّفّه، وأنَا ورَسُولُ اللَّهِ»؟؟! فظاهره يُفيدُ الكثرة، أكثرُ ممّا نتصوّر لدعوة أهل الصُّفّة جميعهم، كمن يقولُ: ادْعُ أهل البيْت، فالدَّعوة عامّة لهم جميعاً. إذاً فالأمرُ في غاية الغرابة بالنسبة لأبي هريرة رضي اللَّهُ عنه الذي كان يحرص كُلّ الحرص على جُرعة من ذلك القدح ليسدَّ بها رمقه، وامتثالاً لأمر رسول اللّه ﷺ فكان أبو هريرة يدفع بذلك القدح للرجل، فيشربُ منه ذلك الرّجلُ حتى يرتوي، ويحمد اللّه تعالى، ثم يُناوله لجاره فيأخذه، ويشرب منه حتّى يرتوي، وهكذا حتى شرب الجميعُ واحداً بعد واحدٍ، وأبو هريرة يكادُ لا يُصدّق هذا الأمر الذي حدث، فيبتسم إليه رسُولُ اللّهِ ﷺ ابتسامةً تُطمْئِنُهُ بأنّه بقي الكثيرُ من اللّبن، وستشبعُ حتى تتضلّع، فناداهُ المصطفى ﷺ: اقعدْ يا أبا هريرة، وكن مُطمئناً، اشربْ يا أبا هريرة. فيشربُ أبو هريرة. اشرب يا أبا هريرة، فيشربُ أبو هريرة. اشرب يا أبا هريرة، فيشربُ أبو هريرة، اشرب يا أبا هريرة، فكان الجواب منه: يا رسُولَ اللّه: ما أجد له مَسْلكاً بعد الذي شربتُ، فقد شبعتُ كما شبع جماعتي من أهل الصّفّة، وهنا يتواضع الرسُولُ الكريم. الرؤوف الرحيم ويقول: هات القدح يا أبا هريرة، فناوله إيّاهُ «فحمِدَ اللّهَ تعالى» على ما منَّ منَ البركة التي وقعت في اللبن المذكور مع قلّته، حتى روي القومَ كلّهم، وأفضلُوا «وسَمَّى» المصطفى ﷺ في ابتداء الشرب. بسم اللّه «وشَرِبَ الْفَضْلَةَ» المتبقيّة فَروِيَ ﷺ منها، وهكذا أحدث اللّهُ هذه المعجزة الكبرى على يده ﷺ لتكون عِظَةً وعبرةً لأُولي الألْباب، وبرهاناً بيِّناً على صدق رسالة حبيبه المرتضى ﷺ، محمّد بن عبد اللّه. الذي رفع اللّهُ ذكره في المُلْك والملكوت، ولا يُرفع اسم اللّه إلاَّ وذكر

(١) الفتح جـ١١ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

معه لما في صحيح الأخبار، ولما قال أهل العلم والفقه والاعتبار: رفع اللّهُ ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ، ولا متشهّدٌ، ولا مؤذن ولا صاحبُ صلاة، بل ولا تُقبل صلاةٌ إلا بذكره، ولا تجوز الخُطبةُ إلَّا به؛ ورحمَ اللَّهُ حسَّانَ بنَ ثابتٍ إذ يقول في المصطفى ﷺ:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنبوَّةِ خَاتَمٌ * مِنَ اللّهِ مشْهُورٌ يلُوحُ ويَشْهَدُ
وضمَّ الإلهُ اسم النّبيّ مع اسْمِهِ * إذَا قَالَ فِي الخمْسِ المؤذّنُ أشْهَدُ
وَشُقَّ لَهُ من اسْمِهِ لِيُجلَّهُ * فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمّدُ

ومن الذي أخَذَ اللَّهُ ميثاقه على النَّبيين، وألزمهم الإيمانَ به. والإقرار بفضله إلَّا نبيّنا المصطفى ﷺ؟ ومن الذي فرض اللَّهُ طاعتَه على الأُمم جميعاً إلَّا نبيّنا المصطفى ﷺ؟ ومن الذي وعده اللَّهُ باليُسر والرخاء بعد الشدّة والعناء إلَّا نبيّنا المصطفى ﷺ؟ ألم يُقل اللَّهُ تعالى في محكم التنزيل: ﴿أَطيعُوا اللَّهَ وأَطيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عظيماً﴾[الأحزاب: ٧١] أي ظفر بالخيرِ العظيم، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وغير ذلك ممّا جاء في القرآن الكريم، وغيره من كتب الأَوَّلين. لذا كانت هذه المعجزات التي ظهرت على يديه ﷺ جزءاً من الإشارة بفضله، وعُلوِّ مرتبته عند ربَّه، ففي الصحيح «**أنّه سيّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وأَوّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وأوّلُ شافعٍ ،وأوَّلُ مُشَفَّعٍ**» والسيّد هو الذي يفوق قومَهُ في الخير، ويُفزعُ إليه في النّوائب والشّدائد، فيقوم بأمرهم، ويتحمّل عنهم مكارههم، ويدفعها عنهم، فهو عليه الصلاة والسلام سيّد ولد آدم يوم القيامة، وذلك ليظهر اللَّهُ سؤدده على كل أحدٍ من الأنبياء والمرسلين، والمخلوقات أجمعين، وهو دليلٌ على تفضيله ﷺ على الخلائق كلهم، وذلك لأن مذهبنا مذهب أهل السنة والجماعة أن الآدميين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم. والله أعلم.

مُعجزةُ نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِه الشَّرِيفَةِ ﷺ

أخرج البخاريُّ في صحيحه[1] عن أنسِ بنِ مَالكٍ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال:

---

(١) فتح الباري جـ٦ ص ٥٨٠ باب ٢٥ علامات النبوّة في الاسلام رقم الحديث (٣٥٧٣).

«رأيْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ، وحَانَتْ صَلاةُ الْعَصْرِ، فَالتُمِسَ الوَضوءُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فأُتي رسُولُ اللَّهِ ﷺ بوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ في ذٰلِكَ الإنَاءِ، فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يتوضَّؤوا مِنْهُ، فرأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ، فَتوضَّأَ النَّاسُ حتَّىٰ توضَّؤوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ» وأخرج البخاري عن أنسٍ رضي اللَّهُ عنه قال: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ بإنَاءٍ، وهُوَ بالزَّوْراءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في الإنَـاءِ فَجَعَلَ الْمَـاءُ يَنْبُعُ من بَيْنِ أَصَـابِعِهِ، فتـوضَّأَ الْقَوْمُ، قال قَتَادَةُ: قَلتُ لأنسٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قال: ثلاثمائـةٍ، أَوْ زُهَاءَ ثـلاثِمائَـةٍ»(١) وأخرج البخاري عن عبد اللَّه رضي اللَّهُ عنهما قال: «عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحـديبيَةِ، والنبيَّ ﷺ بَيْنَ يديْه رِكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ فقال: مَالَكُمْ؟ قالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ، ولا نَشْرَبُ إلاَّ ما بَيْنَ يَدَيْكَ، فوضَعَ يَدَهُ في الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصابِعِهِ كأمْثَالِ العُيونِ، فَشَرِبْنَا وَتوضَّأْنَا. قُلتُ: كَمْ كُنْتُم؟ قال: لَـوْ كُنَّا مائةَ أَلْفٍ لكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مائة»(٢).

قال القرطبيُّ: قضيَّةُ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكرّرت منه في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيدُ مجموعها العلم القطعيُّ المستفاد من التّواتر المعنوي، قلتُ: أخذ كـلام عياض وتصـرّف فيه، والقـول للحافظ ابن حجر قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه. وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنّه قال: «**نبعُ الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغُ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجّرت منه المياهُ، لأنَّ خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدمّ**». انتهى(٣) قال الحافظ: وظاهر كلامه أنّ الماء نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع، ويؤيده قوله في حديث جابر «**فرأيْتُ الْمَاءَ يَخْرُجُ**

---

(١) رقمه(٣٥٧٢).
(٢) رقم الحديث (٣٥٧٦) وانظر صحيح مسلم شرح النووي المجلد الخامس ص ٣٨ ـ ٣٩أرقم الحديث (٢٢٧٩) وما بعده باب معجزات النبي ﷺ.
(٣) الفتح جـ٦ ص ٥٨٥.

مِنْ بَيْن أصابعه» وأوضح منه ما وقع في حديث ابن عباس عند الطبراني «**فجاؤوا بشنّ فوضَعَ رسُولُ اللَّه ﷺ يَدَهُ عليه، ثُمَّ فَرَّقَ أَصَابِعَهُ فنبعَ الماء من أصابع رسول الله ﷺ**». مثلَ عَصَا مُوسى، فإنَّ الماءَ تفجّر من نفس العصا، فَتَمسُّكُهُ به يقتضي أنّ الماء تفجّر من بين أصابعه، ويحتمل أن يكون المراد أنّ الماء كان ينبعُ من بين أصابعه بالنسبة إلى رؤية الرائي، وهو في نفس الأمر للبركة الحاصلة فيه يفُوزُ ويكثر، وكفّه ﷺ في الماء فرآهُ الرائي نابعاً من بين أصابعه، والأوّل أبلغ في المعجزة، وليس في الأخبار ما يردّهُ وهو أولى. انتهى ما نقله الحافظ، وما ذكره[1] قُلت: وفي كيفيّة هذا النّبعْ قولان: حكاهما القاضي وغيره؛ أحدهما: ونقله القاضي عن المزني، وأكثر العلماء أنّ معناه أنّ الماء كان يخرج من نفس أصابعه ﷺ، وينبعُ من ذاتِهَا. قالُوا: وهو أعظمُ في المعجزة من نبعه من حجر، ويؤيّد هذا أنّه جاء في رواية: فرأيتُ الماء ينبعُ من أصابعه. والثاني: يحتمل أنّ الله كثّر الماء في ذاته فصار يفور من بيْن أصابعه لا من نفسهما، وكلاهما معجزة ظاهرة، وآية باهرة[2]* وأخرج مسلم عن أنس بن مالك «**أنّ النبيَّ ﷺ وأصْحَابَهُ بالزّوْرَاءِ - قال: والزوراءُ بالمدينة عِنْدَ السُّوقِ والْمَسْجِدِ فيمَا ثَمَّهْ - دَعَا بِقَدَحٍ فيه مَاءٌ فَوَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ فَجَعَلَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنَ أصابِعِهِ فتوضَّأ جَمِيعُ أصْحَابِهِ قال: قُلْتُ: كَمْ كانُوا يا أبا حَمْزَةَ؟ قال: كانُوا زُهَاءَ الثَّلاثِمِائَةِ**» فهو ظاهر في أنّ نبعه من بين الأصابع من كفّه الذي في الْقَدَحِ، والقدح صغير بحيث لا يسعُ إلّا رؤوس الأصَابع من الكف، وهذا يعني أنه كان ينبُعُ الماء من خلال الأصابع نفسها من بين عظم ولحم ودم، بدليل الحديث الذي رواهُ مسلم: حَدَّثنا محمّد بنُ المثنّى، حدّثنا مُحَمّدُ بنُ جعفر حدّثنا سعيدٌ عن قتادة عن أنسٍ «**أنّ النّبيَّ ﷺ كَانَ بِالزَّوْرَاءِ فَأُتِيَ بإنَاءِ ماءٍ لَا يغْمُرُ أصَابِعَهُ، أَوْ قَدْرَ مَا يُوارِي أصَابِعَهُ...**» الحديث وهذا يعني أنّ الصحابة كانُوا يشاهدون نبع الماء من أصابعه الشريفة لعدم غمرها بالماء أي لا يُغطيها فهي ظاهرة بيّنة. وعند أبي نعيم من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس أنّه هو الذي أحضر

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ذكره النووي في شرح مسلم المجلد الخامس جـ١٥ ص ٣٨ نشر مؤسسة مناهل العرفان بيروت.

الماء، وأنه أحضره إلى النّبيّ ﷺ من بَيْتِ أم سلمة، وأنّه ردَّهُ بعد فراغهم إلى أم سلمة، وفيه قدر ما كان فيه أوّلاً، ووقع عنده في رواية عبيداللَّه بن عمر عن ثابت عن أنس «**أنّ النبيّ ﷺ خرج إلى قباء، فأتي من بعض بيوتهم بقدح صغير**» ووقع في حديث جابر عند أحمد قال: «**سَافَرْنَا مَعَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ فحضرتِ الصَّلاةُ، فقال رسُولُ اللَّه ﷺ: أما في القوم من طَهُورٍ؟ فَجَاءَ رَجُلٌ بفضْلَةٍ في أداوة فصبه في قدح، فتوضّأ رسُولُ اللَّه ﷺ، ثم إنّ القوم أتوْا ببقيّة الطّهور فقالُوا: تَمَسَّحُوا، فَسَمِعَهُمْ رسُولُ اللَّه ﷺ فقال: على رسلكم، فضرب بيده في القدح في جوف الماء، ثم قال: أسبغوا الطهور. قال جابر: فوالذي أذهب بصري لقد رأيتُ الماءَ يخرجُ من بين أصابع رسُول اللَّهِ ﷺ حتى توضؤُوا أجمعون، قال حسبتُه قال: كنّا مائتين وزيادة**» وجاء عن جابرٍ قصَّة أخرى أخرجها مسلم من وجه آخر في حديث طويل. وفيه «**أنّ الماءَ الّذي أحضرُوهُ له كانَ قطرةً في إنَاءٍ من جِلْدٍ لو أفرغها لشربها يابُس الإناء، وأنّهُ لَمْ يَجدْ في الرّكبِ قطرةَ ماءٍ غيْرهَا، قال: فَأَخَذَ النبيُّ ﷺ، فتكلَّم وَغَمَزَ بيده، ثم قال: نادِ بجفْنَةِ الركب ـ والْجَفْنَةُ: معروفة، أعظمُ ما يكونُ منَ القِصاع ـ فَجيءَ بهَا، فقال بيده في الجفنة فبسطها، ثُمَّ فرَّقَ أصابِعَهُ، وَوَضَعَ تلك القطرة في قَعْرِ الجفنة، فقال: خُذْ يا جابرُ فَصُبَّ عليَّ، وقُلْ بسم اللَّه، فَفَعَلْتُ. قال: فرأيْتُ الماءَ يَفُورُ مِنْ بيْنِ أصَابِعِهِ، ثُمَّ فارتِ الجفْنَةُ، ودارتْ حتّى امتلأتْ، فأتى النَّاسُ فاسْتَقُوا حتّى رووا، فَرَفَعَ يَدَهُ مِنَ الجفنة وهي ملأى**»
قلتُ: وهذه القصة هي أبلغ في الإعجاز من جميع ما تقدّم لاشتمالها على قلّة الماء، وعلى كثرة من استقى منه نحو ثلاثمائة رجل، وذلك من قطرة ماءٍ واحدة. أليس هذا الْحَدَثُ أمراً غريباً وعجيباً!! ولكن ما سرُّهُ؟ إنّ تلك القطرة باركها اللَّهُ، وأظهر سرَّ تلك البركة على يد خليله الأعظم، وحبيبه الأكرم محمّد رسول اللَّه ﷺ، وذلك لتكون هذه المعجزة دلالةً قاطعة على صدق نبوّته ﷺ، وبرهاناً ساطعاً يُبدّلُ ظلماتِ الشّك باليقين، وتنيرُ الطريق السَّويَ لعباد اللَّهِ المخلصين بالتّمسك بكتاب اللَّه، وسنّةِ رسول اللَّه، والعمل بهما في جميع الأحوال والأقوال والأفعال. أخرج البخاريُّ في صحيحه عن عبداللَّه قال: «**كُنَّا نَعُدُّ الآياتَ بَرَكَةً، وأنْتُمْ تعدُّونَها تخويفاً، كُنَّا مَعَ رسُول اللَّه ﷺ في سَفَرٍ فقلَّ الْمَاءُ، فقال: اطلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ،**

فجاؤوا بإناءٍ فِيهِ مَاءٌ قليلٌ، فأدْخَلَ يَدَهُ في الإناءِ، ثم قال: حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، والْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبعُ من بَيْنِ أصَابعِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تسْبيحَ الطَّعَامِ، وَهُوَ يُؤْكَلُ»[1] فقوله: «وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» البركة مبتدأ والخبر من اللَّه، وهو نصٌّ صريح في أنّ الإيجادَ من اللَّهِ، ولو لم يُجْرِ اللَّهُ على يديه ﷺ هذه المعجزات لما كان بوسعه ﷺ الإتيانُ بها، فثبت أنها من عند اللَّه، وأنها منزّلة منزلة صدق عبدي ورسولي فيما يقوله لكم، وآية صدقه لكم ما تروْن من إحداثي على يديْه من المعجزات: منها سَماويَّةٌ؛ كمعجزة القرآن الكريم، وهو أعظمها، وأبهرها لما فيه من الحجج الواضحات كما تقدّم في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، وكمعجزة انشقاق القمر، وعروجه ﷺ إلى السَّماءِ، ومنها أرضيّة كمخاطبة الجماد له ﷺ، وكسجود الحيوانات له، ونبع الماء من بين أصابعه إلخ.. ما تقدّم، وما سيأتي منها أنّها كُلها من عند اللَّه، تحدُثُ بإرادته وقُدرته إثباتاً لوجوده جلّ جلاله، وإثباتاً لرسالة نبيّه ﷺ.

مُعْجَزَةُ مَاءِ عيْنِ تَبُوكَ

أخرج مسلم عن معاذ بن جبل قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عام غزوة تَبُوكَ، فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلاَةَ، فَصَلَّىٰ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جميعاً، ثُمَّ دَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَصَلَّىٰ المغربَ وَالْعِشَاءِ جميعاً، ثُمَّ قَال: إنَّكُمْ ستأتُون غداً إن شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ، وإنّكُم لَنْ تأْتُوهَا حتّى يُضحِيَ النَّهَارُ، فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلاَ يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئاً حَتَّىٰ آتِي، فَجِئْنَاهَا، وقدْ سَبَقَنَا إِلَيْهَا رَجُلاَنِ، والْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ. قال: فَسَأَلَهُمَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مائِهَا شَيْئاً؟ قالا: نَعَمْ، فَسَبَّهُمَا النَّبيُّ ﷺ، وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أن يَقُولَ. قال: ثُمَّ غَرَفُوا بأيْديهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قليلاً قليلاً حَتَّى اجْتَمَعَ في شيءٍ قال: وَغَسَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ فيه يَدَيْهِ، وَوَجْهَهُ، ثُمَّ أعَادَهُ فِيهَا، فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، أو قال: غزير - شَكَّ أبُو عَلِي أيّهما قال - حَتَّى اسْتَقَىٰ النَّاسُ، ثُمَّ قال: يُوشِكُ يا مُعَاذُ إنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةُ أَنْ تَرَىٰ

(١) فتح الباري جـ٦ ص ٥٨٧ كتاب المناقب علامات النبوّة رقم الحديث(٣٥٧٩).

مَا هَهُنَا قَدْ مُلِئ جِنَاناً»(1) قوله: «وَالْعَيْنُ مِثْلَ الشّراك تَبِضُّ» الشّراك: بكسر الشين هو سير النّعـل، أو الخيط الذي يـربط به الحـذاء. وتبضُّ: أي تسيل سيـلاً دقيقاً كخيط النعل، كناية عن قلته بالمرّة، فهـو دقيق كدقَّـةِ سير النّعـل. قولـه: «فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِماءٍ مِنْهَمِرٍ» أي كثير الصّبّ والدفـع. وقولـه: «قد مُلىء جنـاناً» أي بسـاتين وعمراناً، وهو جمع جنَّة. ويا للأسف لم يتحدَّث عن هذه المعجزة العظيمة الشيخ الإمام النووي في شرح مسلم إلا قولـه: وفيه المعجـزة الظاهـرة في تكثير المـاء. انتهى *.

قُلْتُ: وقعت هذه المعجزة لنبيّنَا محمد ﷺ في غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة في رجب، وذلك أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ قد عزم على قتال الرُّوم لأنّهم أقربُ الناس إليه، وأولى الناس بالدَّعْوة إلى الحقِّ لقربهم إلى الإسلام، وأهله امتثـالاً لقولـه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتَّقينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولما عزم رسُولُ اللَّهِ ﷺ على غزو الروم، عام تبوكَ كانت الغزوة في وقت شديد الحرّ، وضيقٍ من الحال، ومع ذلك فخرج معه ﷺ بشرٌ كثيرٌ قريباً من ثلاثين ألفاً ـ والمطلوب منّا هنا إيضاح ما يتعلق بنـواحي المعجزة لا غير ـ قلتُ: إنّ مثل تلكَ العيْن الّتي جفّ ماؤها في مُنْتَصَفِ الصَّيْفِ، وَهِيَ عادتُها كذلك في كل عام، وقد انقطع الرَّجاء من عود مائِهـا إليها في مثـل تلك الظروف حيث لَا مَـطَرَ ينزلُ من السّمـاء، ولا الأرض تجودُ بـالماء، وأنَّىٰ للمـطر ينزل في الصيف؟! وأنّى للأرض تفورُ بالماء؟! إلاَّ أنَّا نرى في هذه المُعجزة قد انعكس الأمرُ فيهـا تمامـاً، فما أن يَغْسِـلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَـدَيْهِ وَوَجْهَـهُ الشّريف، ويَسْكُبَ تلك الغُسَالَةَ في عيْن تبوكَ إلاَّ وَيَنْبَعِثُ الماءُ بشدَّةٍ وغزارةٍ، كثيرُ الصبِّ، شديدُ الدّفع، بماءٍ منهمرٍ عَذْبٍ فراتٍ. ولكن من أين جاء ذلك الماءُ، وعلى تلكَ الغزارة؟ أمَّا مِنَ الأَرْضِ فلا لأنَّهَا كانتْ جافَّة ولا ماءَ فيها، ولو كان فيها مـاءٌ لجرى على عـادتِهِ. ولكن هل هو من السماء؟ ليس من السَّماءِ لأنَّهَا لم تمطر وتمتلىء خزّانات الأرض وتفيض سحّاً على وجهها، ولكن هل هناك سبب لجريانه غير ما ذكر؟ ليس هنـاك

---

(١) صحيح مسلم: شرح النـووي. المجلد الخامس جـ١٥ معجـزات النبي ﷺ رقم الحـديث (٢٢٨١) وما بعده.

سبب إلا غسالة المصطفى ﷺ التي كانت السبب الوحيد الذي أراده اللَّه لحبيبه المرتضى ﷺ. إنّه لم يكن يخطرُ ببال الصحابة أنّ الأمر سيصبحُ على ما شاهدوه بأمّ أعينهم من هذه المعجزة الكبرى، وما أن شاهدوا تدفق الماء إلّا وأقبل الجيش المسلم بعدده الضخم الذي بلغ ثلاثين ألفاً على ذلك الماء المبارك فاستقُوا منه، وحمدُوا اللَّه على هذه النعمة التي لا تُحصى، وهذه المعجزة العظمى التي أيّد اللَّهُ بها نبيَّهُ المصطفى بياناً لفضله، ورحمةً بهم من هلاك مُحَقّق من شدّة الظمأ، وتثبيتاً لهم في إيمانهم، وشحذاً لهممهم على الصبر والمصابرة في مقارعة أعداء الحياة، فما أكرمه من نبيٍّ على ربّه! ومَا أجلّ قَدْرَهُ، وأعظم منزلته! إنّ تلك الغسالة المباركة التي باركها اللَّه من فوق سبع سمٰوات قد غيّرت قوانين الطبيعة فجلعت من تلك العين الجافّة بلمح البصر نهراً يتدفّقُ ماءً سلسبيلاً، وهو أمرٌ تخشعُ له القُلوبُ، وتنكّسُ له الجباهُ من خشية اللَّهِ إجلالاً وتعظيماً، وتُفعم لهُ القُلُوبُ بمحبّة اللَّه ورسوله، وتُمتلأ إيماناً، فهنيئاً لأولئك السلف الصّالحُ الذين صلحت بهم الحياة، بل وصلح بهم، وبدعوتهم أمرُ الدنيا والآخرة. وأمّا قوله عليه الصّلاة والسلام: «**يَا مَعَاذُ إنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أنْ تَرىٰ مَا هٰهُنَا قَدْ مُلِيَءَ جِنَاناً**» *

نعم يا سيّدي يا رسُولَ اللَّهِ!! لقد أضحت تبوك الآن عروس الشمال من المملكة العربية السعودية بما فيها من العمران العصريّ الحديث، وبما فيها من البساتين لكأنها قطعة من رياض الغوطة في الشام، حيثُ تُصدِّرُ ثمارها الآن إلى كثير من بلدان العالم، وعلى الأخصّ الزهور على اختلاف أنواعها وألوانها تحمل بالطائرات إلى هُنا وهناك من بلاد العالم الفسيح، فعلى مسافة خمسة عشر كيلومتراً أو أكثر تستقبلك البساتين يأخذ بعضها برقاب بعض، فعرائش الأعناب اليوم في تبوك أمتعُ للناظرين من أيّ بلد في العالم لحسن منظرها، وبهاء تربتها، وغراسُ الحمضيات تُرى في كل مكان، وزروعها مشهورة في خصبها، وكثرة ريعها حيث تُسقىٰ بالمضخات الحديثة. التي تقذف بالمياه إلى مسافات بعيدة، تغمر المزروعات بالمياه العذبة، وفيها من كلّ أنواع أفنان[1] ومن كل فاكهة زوجان، وما أروع تلك المناظر الخلابة في خُضرتها ونُضرتها، وما أمتع وأطيب والذّ ثمارها! نعم

(١) الْفَنَنُ: الغُصْنُ وجمعُه الأفنان.

يا سيّدي يا رسُولَ اللَّه! قد وقع الأمرُ كما أخبرت، وتمَّ وقوع هـذه المعجزة كمـا وعدْتَ، وصدق اللَّهُ ورسُولُه، واللَّهُ لَا يُخْلفُ الميعاد

مُعْجِزَةُ ارْتِفَاعِ مَاءِ بِئْرِ الْحُدَيْبِيَةِ وَشِفَاءُ عَيْنِ عَليٍّ من الرَّمَدِ

أخـرج البخاري في صحيحـه[١] عن البراء رضي اللَّه عنـه قال: «**كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَرْبَعَ عَشرَةَ مائةً، والحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ، فَنَزَحْنَاهَا حَتَّىٰ لَمْ نَتْرُكْ فِيها قَطْرَةً، فَجَلَسَ النبيُّ ﷺ عَلَىٰ شَفِيرِ الْبِئْرِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ وَمَجَّ فِي الْبِئْرِ، فَمَكَثْنَا غَيْرَ بَعِيْدٍ، ثُمَّ اسْتَقَيْنَا حَتَّىٰ رَوِينَا. وَرَوَتْ ـ أَو صَدَرَتْ ـ ركَائِبُنَا**» وفي لفظ: غزوة الحديبية[٢] عن البراء بن عازب رضي اللَّهُ عنهما «**أَنَّهُمْ كانُوا مع رسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ألفاً وأربعمائةٍ، أو أَكْثَر، فَنَزَلُوا على بِئْرٍ فَنَزَحُوهَا، فأتَوا رسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَىٰ الْبِئْرَ، وَقَعَدَ عَلَى شَفيرِهَا، ثُمَّ قال: ائْتُوني بِدَلْوٍ مِنْ مَائِهَا فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فَدَعَا، ثم قال: دَعُوهَا سَاعَةً، فأَرْوَوْا أَنْفُسَهُمْ ورِكَابَهُمْ حتَّى ارتَحَلُوا**» والركاب الإبل التي يسار عليها. وفيه معجزة تكثير الماء بسبب بصقه ﷺ في الدلو، وصبّه في البئر، فارتفع ماؤه حتى جرى نهراً لما ذكره ابن الجوزي في: الوفا بأحوال المصطفى[٣] عن البراء قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في مسيره، فأَتَيْنَا عَلَى ركي زمَّةٍ ـ يعني قليلةُ الماءِ ـ فَنزَلَ فِيهَا سِتَّةٌ أَنا سَادِسُهُمْ، فَأُدْلِيَتْ إِلَيْنَا دَلْوَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ على شفَةِ الركي فجَعَلْنَا فِيهَا نصفها، أو قريبَ ثلثها، فَرُفِعَتْ إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ فغَمَسَ يَدَهُ فيهَا، وقال ما شاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، فَعَادَتْ إلَيْنَا الدَّلْوُ بما فيهَا. قال: فَلَقَدْ رأَيْتُ أَحَدَنا أخرج بثَوْب خشية الغرق، قال: ثم ساحتْ حتّى جرت نَهْراً**» وذكر ابن كثير في التاريخ[٤] في باب ما ظهر في البئر التي كانت بقباء من بركته. وقال البيهقيُّ: أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، حدثنا أبو

---

(١) فتح الباري جـ٦ ص٥٨١ باب ٢٥ علامات النبوّة في الاسلام رقم الحديث (٣٥٧٧).
(٢) جـ٧ ص ٤٤١ كتاب المغازي غزوة الحديبية رقم الحديث في الفتح (٤١٥١).
(٣) جـ١ ص ٢٨٨.
(٤) البداية والنهاية جـ٦ ص ١٠١.

حامد بن الشرقي، أنا أحمد بن حفص بن عبدالله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يحيى بن سعيد أنَّه حدَّثه أنّ أنس بن مالك أتاهُــم بقباء فسأله عن بئر هناك، قال: فدللتُه عليها، قال: «**لَقَدْ كانت هذه وإنّ الرَّجُلَ لينضح على حماره، فينزحُ، فجاء رسُولُ اللَّهِ ﷺ، وأَمَرَ بذَنوب فسقى، فإمَّا أن يكُونَ توضّأ مِنْهُ، وإمَّا أنْ يكون تفل فيه، ثمّ أَمَرَ به فأُعِيدَ في البئرِ، قال: فَمَا نُزِحَتْ بَعْدُ. . .**» الحديث.

وقال أبو بكر البزّار: حدثنا الوليدُ بن عمرو بن مسكين، حدثنا محمد بن عبدالله بن مُثنى عن أبيه عن ثُمامة عن أنس قال: «**أتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فنزلنا فسقيناهُ مِنْ بئرٍ لَنَا في دَارِنَا كانَتْ تُسمَّىٰ النّزُورَ في الجاهليّة، فتفل فيها، فكانتْ لا تُنْزَحُ بَعْدُ**» ثم قال: لا نعلم هذا يروى إلا من هذا الوجه. وقال الحافظ ابن حجر في الفتحْ:(١): ووقع في حديث البراء أنّ تكثير الماء كان بصبّ النبيّ ﷺ وَضوءَهُ في البئر. وفي رواية أبي الأسود عن عروة في ـ دلائل النبوّة ـ أنّه أمرهم بسَهْمٍ فوضع في قعر البئر فجاشت بالماء. اهـ قُلتُ: وإنّ زيادة ماء الآبار قد تكرر وقوعها مـراراً عديـدة في الحضر وفي السَّفر، واستفاضت أخبارهـا، في الصحيحين، وغيرهمـا من السنن، وكلها كانت تُزاد ببركةٓ بصاق النبيّ ﷺ فيها كما في حديث البخاري عن البراء في تكثير ماء بئر الحديبية، وهو حديث هذه المعجزة، وهو أمرٌ معجز وخـارق لقوانين الطبيعة، فما هو السرُّ في بُصاق المصطفى ﷺ؟! إنّه بُصاق النّبوَّة المحمّديّة الذي أعطاه اللَّهُ فأرضاه في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فقد أعطاه في الدنيا النّصر والظّفر على الأعداء، وكثرة الأتْباع، والفتُوحَ في زَمَنِهِ؛ وبَعْدَهُ إلى إن ارتفعَ لواءُ الإسلام في كل مكان، وجعل أمّته خيرَ الأمم، وأعطاه في الآخرة. الشفاعةَ العُظْمَىٰ: العامَّةَ والخاصّة، والمقامَ المحمود، فلا عجب بعد هذا إذا كان بُصاقه ﷺ تزيد به المياه، وتُشفى به العيونُ والنفـوسُ من الأمراض والأَوْصَـاب، الحسيّة والمعنـويّة. أخـرج البخاريُّ عن أبي حازم قال: «**أَخْبَرَنِي سَهْـلُ بنُ سَعْدٍ رَضي اللَّهُ عنـه. أنّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرَ: لأعْطِيَنَّ هٰذِهِ الرَّايَة غَداً رَجُلًا يفْتَحُ اللَّهُ على يـديْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ ورسُـولَهُ، ويُحبّـهُ اللَّهُ ورسُولُـهُ. قال: فَبَـاتَ النَّاسُ يَـدُوكـونَ لَيْلَتَهُمْ: أَيُّهُمْ يُعْطَاها؟ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّـاسُ غَدَوا عَلَىٰ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُـو أن يُعطاهـا،**

---

(١) جـ٧ ص ٤٤٢.

فقال: أيْنَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟ فقيل: هُوِ يارسُولَ اللّهِ يَشتكي عيْنَيْهِ. قال: فأرْسِلُوا إليْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبصَقَ رسُولُ اللّه ﷺ في عينيه، وَدَعَا لَهُ فَبرَأَ حتّىٰ كأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فأعْطَاهُ الرَّايَةَ. فقال عليٌّ: يا رَسُولَ اللّه! أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يكُونُوا مِثْلَنَا؟ فقال: انْفُذْ عَلى رِسْلِكَ حتّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام. وأَخْبِرْهُمْ بما يجبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حقِّ اللّهِ فيهِ، فواللّه لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خيْرٌ لَكَ مِنْ أنْ يكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1] قال الحافظ: وفي حديث جابر عند الطبراني في الصغير «أَرْمَدَ شَدِيْدُ الرَّمَدِ» وفي حديث ابن عمر عند أبي نعيم في الدلائل «أرمد لا يُبصرُ». . وهو عند أحمد والنّسائي وابن حبّان والحاكم من حديث بريدة بن الخصيب قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ خيْبَرَ أَخَذَ أَبُو بَكْرٍ اللِّواءَ، فَرَجَعَ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ، فَلَمَّا كَانَ الْغدُ أَخَذَهُ عمرُ، فَرَجَعَ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ، وَقُتِلَ محمود بن مسلمة. فقال النبيُّ ﷺ: لأَدْفَعَنَّ لِوَائِي غداً إِلَى رَجُلٍ . . .» الحديث. اهـ وقوله: «ويدُوكُون» ـ أي باتُوا في اختلاط واختلاف. والدوكة بالكاف الاختلاط. ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: «فَأَرْسَلَنِي إِلَى عليٍّ قال: فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ أَرْمَدَ فَبزَقَ في عيْنَيْهِ، فَبَرَأَ» وفي لفظ: «فَقَالُوا: هُوَ يا رَسُولَ اللّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قال: فَأَرْسَلُوا إِليْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبصَقَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ في عيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبرَأَ حتّى كأنْ لَمْ يكُنْ بِهِ وَجَعَ . . .»[2] قال النوويُّ: وفي هذا الحديث معجزاتٌ ظاهرات لرسُولِ اللّه ﷺ قوليّة وفعليّة: إعلامه بأنَّ اللّه تعالى يفتَحُ علي يديْهِ فكان كذلك، والفعليّة: بصاقه في عيْنَيْهِ، وكان أرْمَدَ فبرأ من سَاعَتِهِ. انتهى كلام النّوويُّ[3] وهو كلام لا يَشفي غليلاً، ولا يُبرىء عليلاً، وهو كلامٌ جدُّ قليل، وَبَرَأَ: بفتح الرّاء والهمزة. بوزن ضرب، ويجوز كسر الرّاء بوزن علم. وعند الحاكم من حديث عليّ نفسه قال: «فَوَضَعَ رَأْسِيَ في حجْرِهِ، ثُمَّ بَزَقَ في إِلْيَةِ رَاحَتِهِ فَدَلَكَ بِهَا عَيْني» وعند بريْدَة في الدّلائل للبيهقيّ: «فَمَا وُجِعَهَا عليٌّ حتّىٰ مَضَىٰ لِسَبيلِهِ» أي مات. وعنْدَ الطبراني من

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ٧ كتاب المغازي. غزوة خيبر رقم الحديث (٤٢١٠) ص ٤٧٦.

(٢) صحيح مسلم فضائل علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه رقم الحديث (٢٤٠٦) شرح النووي جـ١٥ ص ١٧٨.

(٣) ص ١٧٧ من المصدر نفسه.

حديث عليّ: «فَمَا رَمَدَتْ، وَلَا صَدَعْتُ مُذْ دَفَعَ النبيُّ ﷺ إليَّ الرَّاية يومَ خيبرَ» وَلَهُ من وجه آخَرَ: «فَمَا اشتكيْتُهَا حتَّى السَّاعَةِ قال: وَدَعَا لي فَقَال: اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الحرَّ والقرَّ. قال: فما اشْتَكَيْتُهَا حَتَّى يَوْمِي هذا»[1].

قُلتُ: وبهاتيْن المعجزتيْن الملموستين من ريق المصطفى ﷺ يتضّح لَنَا أنَّ بُصاقَه ﷺ بركةٌ من بركات السَّماءِ، وآية من آيات النبوّة، وإعجاز على مدى الدهر في كل زمان وعصر. إنّه أمرٌ خارقٌ لقوانين الطبيعة فلم نَسْمَعْ عن مريضٍ تُفل في عيْنيه فبرىء، وقد روي أنَّ مسيلمة الكذاب، الذي ادّعى النّبوّة، وأخذ يعارض القرآن بكلام سخيف كما تقدّم لما سمع بشفاء عين عليّ رضي اللّه عنه ببصاق النبيّ ﷺ، وكان له جارٌ أرمد فبصق في عينيْه فعمي الرجل إلى موته، وبه أظهر اللَّهُ كذبه، وبيّن للناس من هو النبيُّ الحقيقيُّ، ومن هو المُفتري على اللّه تعالى، وهذا دليلٌ قاطعٌ على صدق نبوّة المصطفى ﷺ. هذا وقد امتدّ أثرُ معجزة المصطفى ﷺ في عليّ حتّى موته رضي اللّه عنه حيْثُ لم ترمد له عين حتى فارق الحياة، بل أصبحا أصحّ مما كانا عليه قبل رمده. وإني لجازم كُلَّ الجزم أن الطبّ الحديث بما توصّل إليه من اكتشافات، وبما يستخدم من آلات في فنّه لعاجزٌ كُلَّ العجز عن اختراع دواءٍ شافٍ ومعافٍ وواق للعين من أمراضها طول العمر. وهذا ليس بمقدُور المخلوقات جمعاء، فثبت أنّ الشفاءَ كان بأمر اللّه أحدثَهُ بِبُصاقِ نبيّه المصطفى ﷺ بياناً لفضله، وتصديقاً لنبوَّتِهِ، وأمدَّ اللَّهُ أثرَ هذه المعجزة لعليّ رضي اللّه عنه تكريماً له، وجائزةً عُلْويّةً سماويّةً على بلائِهِ وجهادِهِ في اللّهِ، وتفانيه في مرضاتِه، كَيْفَ لا وهو أبو الحسن ابنُ عمّ المصطفى وصِهْرُهُ المرتضى، وحاملُ لوائِه يومَ خيْبَرَ، ومنزلتُه من رسول اللّه ﷺ منزلةَ هارون من موسىٰ، وهو الذي يحبُّ اللَّهَ ورسُولَه، ويُحبُّهُ اللَّهُ ورسُولُه، وهو مِنْ أهْلِ العباءَةِ يوم المُبَاهلة، وهو الفدائيُّ الأوّل في الإسلام... فكان جديراً بهذه الكرامةِ، والمنحةِ الرَّبّانيّة التي كانت له أمانٌ من الرّمد على مدى الحياة!!.

---

(١) فتح الباري جـ٧ ص ٤٧٧.

مُعْجِزَةُ إخْبارِه ﷺ بالشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ وكلامُ الذراع له

أخرج البخاري في صحيحه[1] عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال: «لَمَّا فُتِحتْ خيْبَرُ أُهْدِيَتْ للنَّبيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سَمٌّ، فقال النبيُّ ﷺ: اجْمَعُوا لي مَنْ كَانَ ها هُنَا مِنْ يَهُودَ، فَجُمِعُوا لَهُ، فقال: إنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شيْءٍ، فَهَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. فقال لَهُمُ النبيُّ ﷺ: مَنْ أَبُوكُمْ؟ قالُوا: فلان، فقال: كَذَبْتُمْ بَلْ أبُوكُمْ فُلانٌ. قالُوا: صَدَقْتَ. قال: فَهَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سألتُ عَنْهُ؟ فقالُوا: نَعَمْ يا أبَا الْقَاسم، وإن كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا. فقال لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسيراً، ثُمَّ تُخلِفُونا فِيهَا. فقال النبيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا، واللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أبداً، ثُمَّ قال: هَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إن سَأَلْتُكُمْ عنْه؟ قالُوا: نَعَمْ يا أبَا الْقَاسِم. قال: هَلْ جعَلْتُمْ في هٰذِهِ الشَّاةِ سُمّاً؟ قالُوا: نَعَمْ. قال: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قالُوا: إنْ كُنْتَ كَاذِباً نَسْتَرِيحُ، وإنْ كُنْتَ نبيّاً لَمْ يَضُرَّكَ».

قوله: «أُهْدِيتْ» بضم أوّله على البناء للمجهول. وفي كتاب الهبة[2] أخرج البخاريُّ عن أنس بنِ مالكٍ رضي اللَّه عنه: «أنَّ يَهُوديَّةً أتَتِ النبيَّ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فأكلَ مِنْها، فقيلَ: ألا نقْتُلها؟ قال: لا. فَمَا زِلْتُ أعْرِفُهَا في لهواتِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ» واسم اليهوديّة المذكورة زيْنبُ بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم. أخرجه ابن إسحاق بغير إسناد. ووقع في مرسل الزهري أنَّها أكثرت السُّمَّ في الكتف والذّراع لأنَّه بلغها أنّ ذلك كان أحبَّ أعضاء الشّاة إليه. وفيه: «فَتَنَاوَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ الكَتِفَ فَنَهشَ مِنْهَا» وفيه «فلمَّا ازدرد لقمتَه قال: إنَّ الشّاةَ تُخبرُني» يعني أنَّها مسمومة، وهذه من أعظم معجزاته ﷺ! وقد أخرج الطبريُّ من طريق عكرمة قال: «خاصمت اليهودُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ وأصْحَابَهُ فقالُوا: لَنْ نَدْخُلَ النَّارَ إلَّا أربعين ليلةً، وسيُخْلفُنَا إليْهَا قومٌ آخرون ـ يعنون محمَّداً وأصْحَابَه ـ فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

(١) فتح الباري جـ٦ كتاب الجزية. ٧ ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يُعفى عنهم؟ ص ٢٧٢ رقم الحديث (٣١٦٩).

(٢) رقم الحديث (٢٦١٧) باب قبول الهديّة رقم ٢٨.

على رُؤوسِهم، بَلْ أنْتُمْ خالدونَ مخلَّدُون لا يْخلُفُكُمْ فِيهَا أحَدٌ. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أيَّاماً مَعْدُودة...﴾ [البقرة: ٨٠] وقوله: «**اخْسَئُوا فيها**» هو زجر لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاء عليهم بذلك. وقوله: «**واللَّهِ لَا نخلُفْكُمْ فِيهَا أبَداً**» أي لا تخرجون منْها ولا نقيمُ بعدكم فيها، لأنّ من يدخل النّار من عصاة المسلمين يخرج منها، فلا يَتصوّر أنّه يخلف غيره أصْلاً. وقوله: «**وإنْ كُنْتَ نبيّاً لم يضرك**» يعني على الوجه المعهود من السُّمّ المذكور. وفي حديث أنس: «**فقالت أردْتُ لأقْتُلَكَ، فقال: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَلِكَ**» وفي رواية سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة في نحو هذه القصَّة «**فقالت: أردْتُ أنْ أعْلَمَ إنْ كُنْتَ نبيّاً فسيُطلعكَ اللَّهُ عليه، وإن كُنْتَ كاذباً فأريحُ النَّاسَ مِنْكَ**» أخرجه البيهقيُّ. وأخرجه ابن سعد بسند صحيح عن ابن عبّاس *[1] وأخرج أبو داود عن ابن شهاب قال: «**كَانَ جابر بنُ عبد اللَّهِ يُحدِّثُ أنَّ يَهُودِيَّةً مِنْ أهْلِ خيبرَ سمَّتْ شاةً مَصْلِيَّةً ـ مشويّة ـ ثُمّ أهْدَتْهَا لرسُولِ اللَّهِ ﷺ، فأخَذَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ الذِّراعَ فأكَلَ مِنْهَا، وأكَلَ رَهْطٌ مِنْ أصْحَابِهِ مَعَهُ، ثُمَّ قال لهم رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارفَعُوا أيْدِيكُمْ**» وأرسل رسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى المرأةِ فدعاها. فقال لها: «**أسَمَمْتِ هٰذِهِ الشَّاةَ؟**» قالتْ اليهُوديَّةُ: من أخبركَ؟ قال: «**أخْبَرَتْنِي هٰذِهِ الَّتي في يَدِي**» وهي الذّراع. قالت: نعم، قال: «**فَمَا أردْتِ بذلك**»؟ قالت: قلتُ إنْ كُنْتَ نبيّاً فَلَنْ تضرّكَ، وإن لم تكن نبيّاً اسْتَرَحْنَا مِنْكَ، فَعَفَا عنْها رسُولُ اللَّهِ ﷺ، ولم يُعاقبْهَا، وتُوفّي بعضُ أصْحَابه الّذينَ أكَلُوا مِن الشّاةِ، واحتجمَ النبيُّ ﷺ على كاهله من أجْلِ الذي أكل من الشّاةِ، حَجَمَهُ أبو هند بالقرْنِ والشّفْرَةِ؛ وهو مولى لبني بياضة من الأنصار *[2] وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة، وكذلك موسى بن عقبة، وفي آخره: «**فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارْفَعُوا أيْدِيَكُمْ فإنَّ كتِفَ هذه الشّاة يُخبرُني أني نُعيتُ ـ أي أخبر بموته ـ فِيهَا**» *

وفي هذا الحديث معجزتان. الأولى إخباره ﷺ عن الغيْب. أخرج الطبريُّ عن عكرمة قال: «**اجْتمعتْ يَهُودُ تُخاصِمُ النَّبِيَّ ﷺ فقَالُوا: لَنْ تُصيبنا النَّارُ...**»

(١) ذكر هذه الروايات الحافظ ابن حجر في الفتح جـ١٠ ص ٢٤٦.
(٢) التاريخ لابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص ٢١٠.

ومن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حدّثني أبي زيد بن أسلم: «**أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ قال لليهود: أنشُدُكُمُ اللّهَ مَنْ أهْلُ النّار الذين ذكَرَهُمُ اللّه في التّوراةِ؟ قالُوا: إنَّ اللّهَ غَضِبَ عَلَيْنَا غضْبَةً فَنَمكُثُ في النّارِ أرْبعينَ يوْماً، ثم نخرجُ فتخلفونَنَا فِيهَا. فقال: كذبْتُم، واللّهِ لاَ نخلفكُم فِيها أبداً فنزل القرآن تصديقاً له**» - ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدُودةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ ما لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠ - ٨١] فقوله تعالى: ﴿وقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدُودةً﴾ أربعين يوماً عدد أيّام عبادة العجل. ونقل عن مجاهد وابن عبّاس: قالت اليهودُ: هذه الدُّنيا سبعة آلاف سنة، وأنّا نُعذّبُ بكلّ ألف سَنَةٍ يوماً، ثم ينقطعُ عنّا العذاب بعد سبعة أيام * فقال اللّه لهم على لسان المصطفى ﷺ: «**قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْداً**» أي موثقاً بأن لا يعذّبكمْ إلاَ هذا المقدار الذي تقولونه «**فَلَنْ يُخلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ**» الذي وعدكم به، وهو جل جلاله لا يخلف الميعاد، فأرُونا هذا العهد الذي كتبه اللّهُ لكم في التّوراة، «**أَمْ تَقُولونَ عَلَى اللّهِ**» أيّها اليهود «**مَا لاَ [illegible]**»! إنكم لا تقولون ذلك إلاّ جهلاً وتكذيباً وعناداً «**بَلَىٰ**» إثبات لما بعد حرف النّفي، وهو قوله: «**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ**» والمعنى: بلى تمسّكم النّارُ أبداً. بدليل قوله: «**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**» «**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**». أي شركاً في قول ابن عباس. نعم أشركت اليهود بقولهم: عزيرٌ ابن اللّه، وأشركت النّصارى بقولهم: عيسى ابن اللّه. «**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطيئَتُهُ**» أي أحدقت به من جميع جوانبه، وأحبطت ثوابَ طَاعتِه، فعلى مذهب أهل السنّة يتعيّن تفسير السيّئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك لقوله تعالى: ﴿فأُولٰئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإنّ الخلُودَ في النّار هو للكفار والمشركين. وبعد هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئكَ أصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ﴾ بين تعالى أنّ أصحاب الجنّة هم الذين آمنُوا باللّه ورُسله، ولم يلبسُوا إيمانَهم بشرك، وداومُوا عليه، وعملوا بأركانه، وأدُّوا الأعمالَ الصّالحات، فأولئك أهل الجنّة، وهم المسلمون الموحّدُون العاملون بالفرائض والسّنن. والمعجزة هنا إخباره ﷺ عن أبيهم، وعن الشاة المسمومة، وعن مصيرهم إذا لم يؤمنوا به. وما كان لرسول

اللّه ﷺ علمٌ بها لولا أنّ اللّه أخبره بها، فَتَثْبُتُ هذه المعجزات القاطعة على صدق نبوّته ﷺ، وأنّه مرسل من عند ربّه، وأنّه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] والمعنى لا يتكلّم بالباطل، وذلك أنّهم قالُوا إنّ محمّداً يقُولُ القرآن من تلقاءِ نفسه. وما هو إلَّا وحي إليه من اللّه كما أوحى إلى الرُّسُلِ من قَبْلِهِ *

والمعجزة التي نريدُ بيانها هنا هي معجزة تكليم الجمادِ له ﷺ، تناول ﷺ ذراع الشّاة المحشوّ بالسُّمّ، وما أن نَهَسَ. أي قبض على اللحم ونتره بانتزاعه بالثّنايا للأكل منه إلَّا وخاطبه الذّراعُ قائلاً له لا تأكل يا رسُول اللّه فإنّ الشّاةَ مسمُومَةٌ فتموت. هذا الذي حدث، وفهمه ﷺ منه، وهي معجزة كبرى. فقال لأصحابه: أمْسِكُوا فإنّها مَسْمُومة، ولكن نفذ قضاء اللّه في بشر بن البراء كان قد تناول منها لقمة، فقضى نحبه بها، وفاز بالشّهادة في سبيل اللّهِ، وعند البيهقي في الدلائل قالت تلك المرأة: «**وإن كُنْتَ كاذباً أرَحْتُ النَّاسَ منك، وقد استبان لِي الآن أنّك صَادِقٌ، وأنَا أُشْهِدُكَ وَمَنْ حَضَرَ أنّي على دينك، وأنْ لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ، وأنْ محمّداً عَبْدهُ ورسُولهُ**» قال: فانصرف عنها حين أسلمت[1] إن في تكليم الذّراع له ﷺ أمر خارق للعادة وقوانين الطبيعة، فهو معجزةٌ ربَّانيّةٌ، وقُدْرةٌ إلٰهيّة بالغة إذ جعل اللّه للجماد إحساساً وعلماً وكلاماً حال كونه معدوماً لإماتة ما في الذّراع من الحياة بذبح الشاة وشَوْيِهَا بالنّارِ، وبعث الحياة فيه من الرّماد بعد الممَات بكّل ما تستلزمه متطلبات الحياة، وجعل ممّن ليس من صفاته النُّطْقَ ناطقاً، وممّن ليس من صفاته العلم عالماً، وممّن ليس من صفاته التّعبير معبّراً حيث أفهم النّبيَّ ﷺ بأن الشاة مسمومة، وأن لا يأكل منها فيموت، أفهمه هذا الأمر في همس خفيّ لم يسمعه سواه ﷺ لأنّه هُو المقصود ﷺ بإظهار هذه المعجزة على يديْه بالذات، وآية صدق إخباره ﷺ بكلام الذّراع لَهُ موت صاحبه بشر بن البراء مسمُوماً منها في الحال. وقع في مرسل الزهري في مغازي موسىٰ بن عقبة «**أنّ لونَ ـ بِشْرِ بن البراء من أثر السُّم ـ صارَ في الحال كالطيلسان**» يعني أصفر شديد الصّفرة، وتأخّر تأثيرهُ في

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح جـ٧ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

المصطفى ﷺ حتى وفاته، وهو ابن ثلاث وستين. وفيه دلالة على أنّ السّم لا يؤثّر بذاته، بل بإذن اللّه، لوقوع أثره في بِشر، دون رسول اللّه ﷺ، فقد امتدّ تأثيرُه بطيئاً في رسول اللّه حتى أتمَّ اللّهُ دينَهُ، وبَلَّغَ رسولُه ﷺ رسالتَه، فمات بسببه، وحاز شرف النبوّة والرسالة والشهادة في سبيله، وذلك هو الفضلُ العظيم. قال ابن إسحاق: لما أطمأنّ النبيُّ ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينبُ بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاةً مشويةً، وكانت سألت: أيَّ عضو من الشّاةِ أحبُّ إليه؟ قيل لها: الذّراع، فأكثرت فيها من السُّمِّ، فلمَّا تناوَلَ الذِّراعَ لاكَ منها مُضْغَةً، ولم يسغْهَا، وأكل مَعَهُ بشر بن البراء فأَسَاغ لقمته ـ فذكر القصّة، وأنّه صفح عنها، وأنّ بشر بن البراء مات منها. أخرج البخاري والبيهقيُّ عن عائشة قال: «**كانَ النبيُّ ﷺ يقول في مرضه الّذي تُوفّي فيه لم أزَلْ أجد ألَمَ الطّعام الّذِي أكلْتُ بخيبر، فَهَذا أوانُ انقطع أبْهَرِي من ذلك السُّمّ**»(١) الأَبْهَرُ: أي الظهر، والأبْهَرُ: عرقٌ إذا انقطع مات صاحبه، وهما أبْهَرانِ يخرجان من القلب، ثم يتشعّبُ منهما سائر الشّرايين. وفي لفظ «مَا زَالتْ أكْلَةُ خيْبَر تعاودني، فَهَذا أوان قَطَعَتْ أبْهَرِي» قال أبو عبيد: الأَبْهَرُ عرق مُستبطن في الصلب؛ والقلب متصلٌ به فإذا انقطع لم تكن معه حياة، وأنشد الأصمعي لابن مقبل:

ولِلفؤادِ وَجيبٌ تَحْتَ أبْهَرِهِ ∴ لَدْمَ الغُلامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بالْحَجَرِ

الوجيب: تحرُّك القلب تحت أبهره، واللَّدْمُ: الضّرْب. والغيبُ: ما كان بينك وبينه حجاب، يُريد أنّ للفؤاد صوتاً يسمعه ولا يراه، وخصّ الوليد لأنّ الصبيان كثيراً ما يلعبون برمي الحجارة. أخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني والحاكم في المستدرك والبيهقيُّ في دلائل النبوّة عن ابن مسعود قال: «**لأَنْ أحْلِفَ تِسْعاً أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ قُتِلَ قتْلاً أحبُّ إليَّ من أنْ أَحْلِفَ واحِدَةً أنّه لم يُقتلْ، وذلك أنَّ اللّه اتّخذَه نبيّاً، واتّخَذَهُ شهيداً**». وهو دليل على حياته ﷺ في قبره بعد مماته لأنّه تعالى أثبت الحياة للشهداء بعد مماتهم، وهي لازمة للأنبياء، لأنّ الأرض لا تأكل أجسامهم، ولذا فهم أحياء في قبورهم، وجمعوا له ﷺ ليلة الإسراء في بيت المقدس، وصلّى بهم

---

(١) ذكره السيوطي في فتاويه جـ٢ ص ٣٣٠ نشر مكتبة القدسي مصر.

إماماً، ورآهم في السَّماء، كما في الصحيح. واللَّه أعلم.

مُعْجزةُ غَوْرِ قوائِم فَرَسِ سُراقة بن جعشم في الأرض

أخرج الحاكم في مستدركه[1] عن عبد الرَّحمن بن مالك المدلجيّ، وهو ابن أخي سُرافة بن جعشم: أنّ أباهُ أخبره أنّه سَمِعَ سُراقة بن جعشم يقولُ: «جاءَتْنَا رُسُلُ كُفَّارِ قريش يجعلون في رسول اللَّه ﷺ وأبي بكْرٍ دِيةً لكل وَاحِدٍ منهما لمن قتلهما، أو أسَرَهما، فبيْنَا أنَا جالسٌ في مجلسٍ من مجالس قوْمي من بني مُدْلج أقْبَلَ منهُمْ رَجُلٌ حتّى قَامَ عليْنَا، قال: يا سُراقة! إنّي رأيتُ أسْوِدَةً بالسَّاحِلِ أرَاهَا مُحمَّداً وأصْحَابَهُ، قال سُراقَةُ: فَعَرَفْتُ أنّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لهم: ليسُوا بهم. ولكنّي رأيْتُ فُلاناً ـ وفلاناً ـ انطلقُوا بِغدَاةٍ ـ بأعيننا. قال: ثُمَّ ما لَبِثتُ فِي المجلس إلاَّ ساعةً حتَّى قُمتُ فدخلتُ بَيْتِي، فأمَرْتُ جاريتي أن تُخرج إليَّ فرسي، وهي من وراء أكمةٍ، فَتَحْبِسَها عليَّ، وأخَذْتُ رُمحي فخرجْتُ من ظهْرِ البيْتِ، فخططتُ بزجّه إلى الأرض، وخفضتُ عاليةَ الرّمح حتّى أتيْتُ فرسي، فركبتُها، فدفعتُها تُقرب بي حتّى رأيتُ أسودتَهُمَا، فلمَّا دنَوْتُ منهم حيثُ أسمعهم الصَّوتَ، عَثَرتْ بي فَرَسِي فَخَرَرْتُ مِنْها، فقُمْتُ فأهْوَيْتُ بيدي إلى كنَانِتي، فاسْتَخْرَجْتُ الأزْلاَمَ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا، فخرج الذي أكره أن لاَ أضرهم، فَعَصَيْتُ الأزْلاَمَ، فركبتُ فَرَسِي، فَدَفعتُها تقربُ بي حتّى إذا دنَوْتُ منهم سمعتُ قراءة النبيَّ ﷺ، وهُوَ لا يلتفتُ، وأبو بكر يُكثرُ الالتفاتَ، فَسَاخَتْ يدا فرسي حتّى بلغتا الركبتين، فخرررتُ عَنْها، ثُمَّ زَجَرْتُها فَنَهَضَتْ فلم تكد تُخرج يديْها، فلمَّا استوتْ قائمةً إذا لأثرِ يَدَيْهَا غُبارٌ ساطعٌ في السَّماءِ ـ مثل الدُّخان ـ الذي يكون من غير نارٍ، ثمّ أخْرَجْتُ الأزْلاَمَ فاسْتَقْسَمْتُ بِهَا ـ أضُرُّهُمْ أم لا أضرُّهم ـ فخرج الذي أكره. أن لا أضرّهما، فناديتُهما بالأمَان، فوقَفَا فركبتُ فرسي حتَّى جئْتُهما فوقعَ في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عليهم أنْ سيظهرَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقلتُ له: إنّ قومك قد جعلُوا فيكَ الدِّيةَ، وأخبرتُهم من أخبار سفرهم، ومَا يُريدُ النَّاسُ بهم، وعرضتُ

---

(١) جـ٣ ص ٦.

عليهم الزَّادَ والمتاعَ فلم يردّاني شيئاً، ولم يسألُوني إلّا أن قالا ـ وفي لفظ ـ قالُوا: أَخْفِ عنَّا، فسألتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ أن يكتُبَ لِي كتابَ مُوادَعَةٍ آمنُ به، فأمَرَ عامِرَ بن فهيرة: مولَى أَبِي بكر، فكتبَ لي في رُقْعَةٍ منْ أدْمٍ، ثُمَّ مَضَيَا» قال الحاكمُ: هذا حديث صحيحٌ على شرط الشيخَيْن ولم يخرجاه.

وفي التاريخ لابن كثير[1] وقد روى محمد بن إسحاق عن الزّهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمّه سُراقة. فذكر هذه القصّة، إلاَّ أنَّه ذكر أنّه استقْسَمَ بالأزلام أوّل ما خرج من منزله، فخرجَ السَّهْمَ الذي يكره: لَا يَضُرّهُ، وذكر أنَّه عثر به فرسه أربع مرَّاتٍ، وكُلُّ ذلك يستقسم بالأزلام، ويخرج الذي يكره لا يضرّه. حتّى ناداهم بالأمان، وسأل أن يكتُبَ له كِتَاباً يكون أمَارَةً ما بيْنَه وبين رسُول اللَّهِ ﷺ. . . ولمّا رَجَعَ سُراقة جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلاَّ ردَّهُ، وقال: كفيتُم هذا الوجه، فلمَّا ظهرَ أنّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ قد وصل إلى المدينة، جعلَ سُراقَةَ يقصُّ على النّاس ما رأى وما شاهد من أمر النبيّ ﷺ، وما كانَ من قَضيّة جواده، واشتهر هذا عنه، فخاف رؤساء قريش معرَّته، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم، وكان سُراقةُ أميرَ بني مدلج ورئيسهم، فكتب أبو جهل ـ لعنهُ اللَّهُ ـ إليهم:

بَنِي مُدْلِج إنّي أخَافُ سَفيهَكُمْ ∴ سُراقةُ مُسْتغْوٍ لِنَصْرِ مُحمَّد
عليْكُمْ بِهِ ألَّا يُفرِّقَ جَمعَكمْ ∴ فيُصْبحَ شَتَّى بَعْدَ عِزّ وَسُؤْدَدِ

قال: فقال سُراقةُ بن مالك يُجيبُ أبا جَهْلٍ في قوله هذا:

أبَا حَكَمٍ واللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِداً ∴ لأمْرِ جَوادِي إذْ تُسَوَّخُ قوائِمُهْ
عجيبٌ ولَمْ تَشكّ بأنَّ محمّداً ∴ رسُولُ وبُرهان فَمَنْ ذا يُقَاوِمُه
عليك فكفَّ القوْمَ عنْهُ فإنّني ∴ أَخَالُ يوْماً سَتَبْدُو معالمه
بأمْرٍ تودّ النّصر فِيهِ فإنَّهُمْ ∴ وإنَّ جميعَ النَّاسِ طُرّاً مُسالمه

قال ابن كثير: وذكر هذا الشّعر الأمَويَّ في مغازيه بسنده عن ابن إسحاق،

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ١٨٥.

وقد رواه أبو نعيم بسنده من طريق زياد عن ابن إسحاق، وزاد في شعر أبي جهل أبياتاً تتضمّن كفراً بليغاً * اهـ[1].

الزُّلَمُ والزَّلَمُ: القِدْحُ الذي لا ريش عليه، والجمع أزْلام، وهي السّهام التي كان أهل الجاهليّة يستقسمُونَ بها. مكتوب عليها افعل. لا تفعل. وثالثها لا شيء عليه، غُفْلٌ. وأزلام قريش مكتوب عليها: أفْعَلْ ولا تفعل. أي أمرٌ، ونهي. فإذا عزم على عَمَلٍ استقسمها، فإذا خرج أفعل مضى لسبيله، وإذا خرج لا تفعل كفّ عن القيام به، وكان الذي يقوم بهذا الأمر سدنة البيت، فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال: أخرج لي زلماً، فيخرجه وينظر إليه، فإذا خرج قِدْحُ الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قِدْح النّهي قعد عما أراده، وربما كان مع الرّجل زَلَمانِ، وضعهما في قِرابه، فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما، قال الحُطيئَةُ يمدح أبا موسىٰ الأشعري:

لَمْ يَزْجُرِ الطّيْرَ إنْ مرَّتْ بِهِ سُنُحاً ∴ وَلَا يُفيضُ على قِسْمٍ بأزْلام

وتصنعُ من أعواد الخشب يكتب على أحدها: إفعل. والثاني: لا تفعل. والثالث: لا شيء عليه قد تصل إلى الخمسين، وتوضع في كيس، وتُحرك، ثم يمُدُّ يده السادنُ فيخرج أَحَدَها. إلخ... ما تقدّم. قلتُ: وفي هذه القصّة عدّة معجزات لرسول اللّه ﷺ، كل واحدة منها كافية لإيمان النّاس به جميعاً *

(المعجزة الأُولى): ضرْبُ سُراقةَ لأزْلامِهِ التي كتب عليها: أضرُّهم، أو لا أضرُّهم. ويتكرر الأمر معه أربع مرّات فيخرج قِدْحُ لا تضرُّهم. إنّ هذا الأمر لم يكن بالمصادفة العمياء، ولا العقل يُصدّقُ بتكريره على ما يُخرَّج عليه، إذاً فلا بُدّ أن يكون هنالك سرّاً خفيّاً، وأمْراً جليّاً هو الذي كان له السلطةَ التّامّة عليها، ولكن ما هو ذلك السرُّ؟ إنّه سرٌّ من أسْرار النُّبوّة المحمّديّة. أظهره اللّهُ لسُراقة لكيْ يتعّظَ، ويعلَمَ أنّه مغلُوب على أمره، وأنه لا يستطيع النيلَ منه، ومع ذلك فقد عاند سُراقة أزلامَه، ومضى قُدماً في غايته طمعاً في نيل الجائزة الكبرى مائتي بعير لمن يقتلهما،

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ١٨٦.

أو يأتي بهما سالميْن، وما كان لمثْلِ سُراقة إذا سمع بهذه الجائزة أن يدعها تُفلتُ من يده، وهو أمير بني مدلج، المشهور بقوّته وشجاعته، ولذا خرج لا يُريد أن يُعلمَ أحداً من قبيلة بوجهته، فحدَث له ما حدث *

(المعجزة الثانية): عَثْرُ فرسِ سُراقَةَ بهِ عدَّةُ مَرّاتٍ. قال: حتّى أتيتُ فَرَسِي فركبتُها، فدفعتُها فقرَّتْ بي حتّى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررتُ عنها. وذكر في غير روايات عنه في شأن فرسه أنّه ليس من عادتها العثور، ولم يكن من عادته السقُوط، لأنه الفارسُ المغوار، المتمرّن على ركوب الخيل ودفعها بالليل، أو النهار. إذاً فالأمر ليس على طبيعته، وأنّه مخالف للواقع، فلا بُدّ من سرّ مُسلّطٍ عليهما، وليس هناك سرٌّ لعثور الفرس وسقوط سراقة عنها إلاَّ سرٌّ من أسرار النبوّة أظهره اللَّه لسُراقة لكي يكُفّ عن ملاحقة نبيّه، ويتّعظ به، وليعلم أنّ اللّه حافظه وناصره، فلا سبيل له عليه.

(المعجزة الثالثة): غوْرُ يدي فرس سُراقة في الأرض. إنَّ هذه المُعجزةَ على غايةٍ من الأهميّة لكأنّ الأرض تُناصِرُ المُصطفى ﷺ، وتمنع تقدّم الأعداء من الوصول إليه حتى لا يُنال ﷺ بسوء، بوحي من اللّه تعالى، حقّاً إنَّ انبعاج الأرض تحت يدي فرس سُراقة أمرٌ محيّرٌ للعقول. فلماذا لم تنبعج الأرض تحت أرجل جمال قافلة رسول اللَّهِ ﷺ إن قُلنَا بسباخة الأرض. ولمّا لم يحدثْ لها ما حدث لفرس سراقة علمنَا أن غورَها مقصُودٌ بالذّات من اللّه تعالى عظةً لسراقة، من أنه يقدُم على أمر خطير، وإظهار سرّ من أسرار النبوّة أظهره معجزة لرسوله ﷺ بدعائه عليه وقد ورد في بعض الروايات أنّ الفرس غاصت بقوائمها الأربع. وساخت في الأرض حتى بطنها، وأخرى حتى كادت تغيبُ في الأرض حتّى أُذنيْها!! وهل بعد هذا البرهان من برهان على أنّه ﷺ رحمةٌ للعالمين، وأنّه تُناصره الأرض والسَّماء، وأنه مرسل إلى الملائكة والإنس والجانّ!!

(المعجزة الرابعة): ثورانُ الدُّخان من الأرض نُصرَةً لرسُول اللَّهِ ﷺ. نعم إنّ ذلك الدخان الذي انبعث من الأرض دليلٌ بيّن على نصرة اللّه لنبيّه ﷺ. ولكن من أين مصدره؟ ولم يحدث أن رُؤي من قبل مثله. وكيف كُوّن؟ ولم ينبعث من

الأرض دلالة على ثوران بركان، وذلك لعدم وقوعه. إذاً فلماذا انبعث وفي هذا الوقت بالذات؟ لا تفسير له إلّا أنَّه سرٌّ من أسرار اللَّه تعالى أحدثه بإرادته وقدرته، تحذيراً لسراقة من الاقتراب من نبيّه أكثر من دنوه منه، ومُهدّداً له، ولذا فقد وقع في نفسه بعد هذه الدلائل أنّه ﷺ معصوم منه، وترجم ذلك بلسانه في قوله: فوقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيت من الحبس عليهم، ومن شدّة روعه، وما رأى من الآيات عرض عليهم المتاع والزاد، وأباح لهم أن يأخذُوا من غنمه أمامهم ما شاؤوا،وأراد أن يستوثق لنفسه، فسأل النبيَّ ﷺ الأمان، وأن يكتب له كتاباً ينتفعُ به في يوم. فكتب له ﷺ كتاباً في عظم، أو رقعة، أو خرقة، وذكر أنّه جاء به إلى رسُول اللَّه ﷺ، وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف، فقال له: «يوْمُ وفاءٍ وبِرّ، أدنه» فدنوتُ منه وأسلمتُ. وفي ترجمته قال الحافظ ابن حجر في الإصابة[1]: كان ينزل قديداً، روى البخاري في قصّته في إدراكه النبيَّ ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة، ودعا النّبيَّ ﷺ حتّى ساختْ رجلا فرسه، ثم إنّه طلبَ منه الخلاصَ، وأن لا يَدُلَّ ففعل، وكتب له أماناً، وأسلم يوم الفتح؛ انتهى واللَّه أعلم.

مُعْجِزَةُ شَاةِ أُمِّ مَعْبَدِ

قال ابن كثير في تاريخه[2] البداية: ورد عليها رسُولُ اللَّه ﷺ، ومعه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد اللَّه بن أريقط الديلي، فسألوها: هل عندها لبن، أو لحم يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت: لو كان عندنا شيء ما أُعوزكم القرى، وكانُوا مُمحلين، فنظر إلى شاةٍ في كسر خيمتها فقال: ما هذه الشاة يا أمّ معبد؟ فقالت: خلفها الجهد، فقال: أتأذنين أن أحلبها؟ فقالت: إن كانت بها حلب فاحلبها، فدعا بالشّاةِ فَمَسحها، وذكر اسم اللَّه، فذكر الحديث في حلبه منها ما كفاهم أجمعين ثم حلبها وترك عندها إناءها ملأى يُربضُ الرَّهط، فلما جاء بعلُها استنكر اللّبن، وقال: من أين لك هذا يا أمّ معبد، ولا حلوبة في البيت والشاء

---

(١) جـ٢ ص ١٩.
(٢) جـ٦ ص ٣٩. وهو في المستدرك جـ٣ ص ٩ بسنده.

عازب؟ فقالت: لا واللَّه إنّه مرّ بنا رجُلٌ مبارك كان من حديث كيت وكيت، فقال: صِفِيهِ لي فواللَّه إنّي لأراهُ صاحبُ قريش الذي تطلبُ فقالت: ـ أي في وصف رسول اللَّه ﷺ ـ رأيْتُ رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تُعبه تُجْلة، ولَمْ تُزْرِ به صعلة، قسيمٌ وسيمٌ، في عينيْه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور، أكحل، أزج، أقرن، في عنقه سَطَعٌ، وفي لحيته كثاثةٌ، إذا صمت فعليه الوقارُ، وإذا تكلّم سما وعلاهُ البهاءُ، حلو المنطق، فَصْل لا نَـزْرَ ولاَ هَذْر، كأنّ منطقه خـرزات نظم ينحـدرن، أبهى النّاس وأجمله من بعيـد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتَحِمه عين من قصر، غصنٌ بيْن غُصنيْن، فَهُوَ أنْضَرُ الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدّاً، له رفقاء يحفون به، إن قال: استمعُوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفـودٌ محشود، لا عـابس ولا مُفنِد * فقـال بعلها: هـذا واللَّه صاحب قـريش الذي تـطلب، ولو صـادفتـه لالتمست أنْ أصحبه، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. قال: وأصبح صوتٌ بمكّة عال بين السماء والأرض يسمعونه ولا يرون من يقوله. وهو يقُولُ:

جَـزَى اللَّهُ رَبُّ النَّـاسِ خَيْـرَ جَـزَائِـهِ ∴ رَفيقَـيْنِ حَـلاَّ خيْـمتِـي أمّ مَـعْـبَـدِ
هُـمَـا نَـزَلاَ بـالْـبَـرّ وارْتَـحـلاَ بِـهِ ∴ فَـأفْلَحَ مَنْ أمْسَى رَفيـقَ مُـحَـمَّـدِ
فَـيَـالَ قُصَـيّ مَـا زَوى اللَّهُ عَـنـكُـمُ ∴ بـه مِـنْ فِـعَـالٍ لا تُـجـازى وسُـؤْدَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عنْ شـأنِهـا وإنـائِـهَـا ∴ فـإنّكُمـوا إنْ تسـألُـوا الشّـاة تَشْهَـدِ
دَعَـاهَـا بِـشَـاةٍ حـائـل فَتَـحـلَّـبَـتْ ∴ لَـهُ بصريـح ضَـرَّةُ الشَّـاةِ مُـزْبِـدِ
فـغـادَرَهُ رَهْـنـاً لـديْـهـا لِـحَـالـبٍ ∴ يَـدرُّ لَـهَـا في مَـصْـدَرٍ ثـم مَـوْرِدِ

قال ابن كثير: وقد قدّمنا جوابَ حسّان بن ثابت لهذا الشعر المبارك بمثله في الحُسْنِ ـ وسأذكرهُ لك بعد قليل ـ والمقصود أن الحافظ البيهقيَّ روى هذا الحديث من طريق عبد الملك بن وهب المذحجي. قال: حدثنا الحسن بن الصباح عن أبي معبد الخزاعي ـ فذكر الحديث بطوله في باب الهجرة ـ وقد رواه الحافظ يعقوب بن سفيان الفسوي، والحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوّة، قال عبد الملك: فبلغني أنّ أبا معبد أسلم بعد ذلك، وأنَّ أمَّ معبد هاجرت وأسلمت، ثم إنّ الحافظ البيهقي أتبع هذا الحـديث بذكـر غريبـه، وقد ذكـرناهُ في الحـواشي فيمـا سبق ـ أي في

الهجرة ـ ونحن هنا نذكر هُهُنا نكتاً من ذلك، فقولها: ظاهرُ الوضاءة، أي ظاهر الجمال، أبلج الوجه: أي مشرق الوجه مضيئه لم تُعبه ثجلة. قال أبو عبيد: هو كبر البطن، وقال غيره كبر الرأس، وردَّ أبو عبيدة رواية من روى: لم تُعِبْهُ نحلة، يعني من النحول، وهو الضعف. قلتُ: وهذا هو الذي فسّر به البيهقيّ الحديث، والصحيح قول أبي عبيدة، ولو قيل: إنّه كبر الرأس لكان قويّاً؛ وذلك لقولها بعده: ولم تزر به صعلة، وهو صغر الرأس بلا خلاف... وأمّا البيهقيُّ فرواه لم تعبه نحلة يعني من الضعف كما فسّره، ولم تزر به صعلة وهو الخاصرة، يريدُ أنه ضرب من الرجال ليس بمشفّح ولا ناحل. قال: ويروى لم تُعبه ثجلة، وهو كبر البطن، ولم تزر به صعلة، وهو صغر الرأس. وأمّا الوسيم فهو حسن الخلق، وكذلك القسيم أيضاً، والدّعج شدّة سواد الحدقة، والوطف: طول أشفار العينين، ورواه القتيبي: في أشفاره عطف، وتبعه البيهقيّ في ذلك. قال ابن قتيبة: ولا أعرف ما هذا لأنه وقع في روايته غلط، فحار في تفسيره، والصّواب ما ذكرناه. وفي صوته صَحَلٌ: وهو بُحة يسيرة، وهي أحْلَى في الصّوت من أن يكون حادّاً، قال أبو عبيد: وبالصّحل يوصف الظّباء. قال: ومن روى في صوته صهل، فقد غلط فإنّ ذلك لا يكون إلّا في الخيل، ولا يكون في الإنسان. قلتُ: وهو الذي أورده البيهقيُّ، قال: ويروى صحل. والصّواب قول أبي عبيد. وأما قولها: أحور فمستغرب في صفة النبيّ ﷺ. وهو قبلٌ في العين يزينها لا يشينها كالحول، وقولها: أكحل: (الكحلُ في العين أن يعْلُوَ منابت الأشفار سواد مثل الكُحْل من غير كحْلٍ)[1] وقولها: أزجّ. قال أبو عبيد: هو المتقوّسُ الحاجبين، قال: وأمّا قولها: أقرن فهو التقاء الحاجبين بين العينين. قال: ولا يعرف هذا في صفة النبيّ ﷺ إلّا في هذا الحديث. قال: والمعروف في صفته ﷺ أنه أبلج الحاجبين. في عُنقه سطعٌ. قال أبو عبيْد: أي طولٌ. وقال غيره: نورٌ. وقولها: إذا صمت فعليه الوقار: أي الهيبة عليه في حال صمته وسكوته، وإذا تكلّم سما: أي علا على النّاس، وعلاهُ البهاء. أي في حال كلامه. حلو المنطق فصل: أي فصيح بليغ يفصل الكلامَ ويبينه. لا نَزْرَ ولَا هذَر. أي لا قليل ولا كثير. كأنَّ منطقه خرزات نظم،

(١) من تفسير المؤلف.

يعني الذي من حسنه وبلاغته وفصاحته وبيانه وحلاوة لسانه. أبهى النّاس وأجمله من بعيد وأحلاهُ وأحسنه من قريب. أي هو مليح من بعيد ومن قريب. وذكرت أنه لا طويل ولا قصير بل هو أحسن من هذا وهذا، وذكرت أنَّ أصحابه يعظمونه، ويخدمُونه ويبادرون إلى طاعته، وما ذلك إلا لجلالته عندهم. وعظمته في نفوسهم، ومحبتهم له، وأنّه ليس بعابس. أي ليس يعبس. ولا يفند أحداً، أي يهجنه ويستقل عقله بل جميل المعاشرة، حسن الصحبة، صاحبه كريمٌ عليه، وهو حبيب إليه ﷺ. انتهى ما ذكره الحافظ ابن كثير. مع زيادة ما بين القوسين[١]

وأمّا الأبيات التي أجاب بها حسان بن ثابت الجنّ فهي:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زال عنهم نبيُّهُم ∴ وقَدْ سُرّ مَنْ يسْرِ إليْهم ويغْتَذي
تَرَحَّلَ عن قوم فزالتْ عُقُولهم ∴ وحلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجدَّد
هداهم به بعد الضّلالة ربُّهُمْ ∴ وأرشدَهُمْ من يتّبع الحقَّ يُرشَدِ[٢]
وهل يستوي ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا ∴ عمىً، وهُداةٌ يهتدون بمهتدِ
نبيٌّ يَرى ما لا يرى النَّاسُ حوْلَهُ ∴ ويتلُو كتابَ اللّه في كلّ مَشْهد
وإن قال في يوم مقالةَ غائب ∴ فتصديقُها في اليوم أو في ضحى الْغَدِ
لِيَهِنَّ أبَا بَكْرٍ سَعَادةُ جَدِّهِ ∴ بصُحْبته مَنْ يُسْعِدِ اللّهُ يَسْعَدِ
ويَهِنِ بَنِي كَعْبٍ مكان فتاتهم ∴ ومقعدُها للمسلمين بمرصدِ

وهذا البيتُ الأخير أورده السهيلي في الأبيات التي قبلها ونسبها إلى رجل من الجنّ، ولم يورده لحسان. وفي المستدرك بعد البيت الرابع[٣].

وقدْ نزلت منه على أهل يثرِب ∴ ركاب هُدى حلَّتْ عليهم بأسْعَدِ

قلتُ: والمعجزةُ هنا هي حلبُه ﷺ من شاةٍ عازب: حدعة لم ينزُ عليها الفحل بعد لصغر سنها، فمَا أن مسحَ ﷺ ضرعها إلا وتفاجّت عليه. أي فشخت بين رجليها، ودرت بلبنها، فدعا ﷺ بإناء، فقدّمت إليه أم معبد إناءً كبيراً يشبع

---

(١) البداية والنهاية جـ٦ ص ٣٠ ـ ٣١.
(٢) هذا البيت مزاد من السهيلي، ولم يرد في الأصل.
(٣) جـ٣ ص ٩ ـ ١٠.

الجماعة. وفي رواية الحاكم: يربض الرّهط، وحدثت المعجزة فما أن سمَّى رسولُ اللَّه ﷺ. ودعا اللَّه تعالى إلاَّ وتدفّق اللبنُ من ضرعها يثجّ ثجاً. أي الصبُّ الكثير. أي فحلب فيه ثجّاً لبناً سائلاً كثيراً، وهو أمر خارق للعادة، وقوانين الطبيعة. إذ لا يُعهد من شاة وفي هذه السنّ أن تحلب لبناً، وما مَثَلُه إلا كنبع الماء من أصابعه ﷺ، فهناك نبع الماء من يده المباركة من دم ولحم وعظم، وهنا نبع اللّبن من بين دم وفرث لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. إنّ اللبن الذي حلبه ﷺ من الشاة كان ببركته ﷺ، وحسن ثقته بربّه، ولم يضن عليه بربه بعدم إخراج اللبن منها. بل جعله فيضاً غزيراً، ولهذا لمّا شاهدت أمُّ معبد انتفاخ درَّة الشاة على ما لم تعهده من قبل من أمثالها، فقدمت إليه إناء كبيراً يشبع منه الجمع الكثير، وشربُوا جميعاً وارتووا، وبقي الإناءُ فيه اللبن الكثير، وجاء أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً هزلى، فكان شديد العجب، وقال يا أمّ معبد! أنّى لك هذا اللبن، ولا حلوبة في البيْت إلا شاة عازب خلفها الجهد، والضعف عن المرعى؟! فقالت أمُّ معبد: أحدّثك يا أبا معبد عن أمر عجيب وغريب. مرَّ بنا رجلٌ مبارك صفته كذا وكذا، ووصفه بأجمل الأوصاف، فأدرك أبو معبد في الحال أنه المصطفى ﷺ، وقال: هذا صاحب قريش الذي تطلبه، ولو صادفتُه لالتمستُ أن أصحبه، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وحقق اللَّه الأمر، وأسلم وحسن إسلامه لأنّه ﷺ قد ترك له في بيته دليلاً محسوساً على صدق نبوّته ﷺ، وهو اللبن الذي رآه في بيته من بركته ﷺ، كما أسلمت زوجته أم معبد وحَسُنَ إسلامُها بتوفيق اللَّه، وهدايته. واللَّه أعلم.

مُعْجِزَةُ الإسْرَاءِ والمِعْراج

قال اللَّه تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البصيرُ﴾ [الإسراء: ١] قال مسلم في صحيحه[٢]: حدَّثنا شيبانُ بنُ فَرُّوخَ حدَّثنا حمَّادُ بْنُ

(١) الآية الأولى من سورة الإسراء. وكلمة الأقصا هكذا كتبت بالخط العثماني.
(٢) جـ٢ من شرح النووي باب الإسراء برسول اللَّه ﷺ وفرض الصلوات ص ٢٠٩.

سَلَمَة حدَّثَنا ثابتٌ الْبَنَّاني عن أنس بْن مَالِكٍ «أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: أُتِيت بالْبُراقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أبْيَض طَويلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، قال: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس قال: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتي يَرْبِطُ بِهِ الأنْبِيَاءُ، قال: ثُمّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بإنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبنٍ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّماءِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ أنْتَ؟ قال: جبريل. قِيلَ: ومَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فإذَا أنَا بآدَمَ فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ. فَقِيلَ: مَنْ أنْتَ؟ قال: جبريل. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ. قال: مُحمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ. قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإذَا أَنَا بابْنَي الْخَالَةِ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، ويَحْيَى بْنِ زكَرِيَّاءَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوْا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إلَى السَّمَاءِ الثَّالثَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإذَا أنَا بِيُوسُفَ ﷺ إذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ. قال: وقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإذَا أنَا بإدْرِيسَ فَرَحَّبَ ودَعَا لِي بِخَيْرٍ. قال اللَّهُ عزّ وجلّ: وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قيل: مَنْ هَذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمَّدٌ. قيل: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِح لَنَا، فإذَا أنَا بهارُون ﷺ. فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جبريلُ عليه السلامُ قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قد بُعِثَ إلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فإذَا أنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بخيرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جبريلُ فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ ﷺ. قيل: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فإذَا أنا بإبراهِيمَ ﷺ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وإذَا هُو يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْم سبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعُودُون إليه. ثُمَّ

ذَهَبَ بِي إلى سِدْرِهِ الْمُنْتَهى وَإذَا وَرَقُهَا كآذَانِ الْفِيلَةِ، وإذَا ثَمَرُهَا كالْقِلاَلِ. قال: فَلَمَّا غَشِيَها مِنْ أمْرِ اللَّهِ ما غشِي تغيَّرتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أنْ يَنعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فأوْحَى اللَّهُ إليَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنزَلْتُ إلى مُوسَى ﷺ. فقال: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قلتُ: خمسين صَلاَةً. قال: إرْجِعْ إلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التخفيفَ فإنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطيقُونَ ذٰلِكَ، فإنّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ، وَخَبَرْتُهُمْ. قال: فرجَعْتُ إلى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي فَحطَّ عَنّي خَمْساً فَرَجَعْتُ إلى مُوسَىٰ فَقُلتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْساً. قال: إنَّ أُمَّتَكَ لاَ يطيقُون ذٰلِكَ، فارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قال: فَلَمْ أزَلْ أرْجِع بَيْنَ رَبِّي تَبارَكَ وتعَالَى وبَيْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامَ حتّى قال: يا مُحَمَّدُ إنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً، ومَنْ هُمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ شيْئاً، فَإنْ عَمِلَهَا كُتِبتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، قال: فَنزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيتُ إلَى مُوسَىٰ ﷺ فأخْبَرْتُهُ، فقال: إرْجِعْ إلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخفيفَ، فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلاً﴾ روى ابن الجوزي عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل عن تفسير «سُبْحَانَ» فقال: «تَنْزِيهُ اللَّهِ عَنْ كُلِّ شَيْء» هكذا ذكره بغير سند. «الَّذِي أسْرَىٰ بِعَبْدِهِ» أجمع المفسّرون والعلماء والمتكلّمون أنّ المراد به محمد ﷺ، بل ولم يختلف أحدٌ من الأمة في ذلك، والإضافة «بعبده» إضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم، والمراد من تنزيه اللَّه: تنزيهه عن صفة العجز عن هذا الأمر العجيب الخارق للعادة، وهو الإسراء المذكور، وكما أن المقصود التّنزيه فالتّعجيب أيضاً مقصُود. تعجّبُوا مِنْ قُدْرةِ اللَّهِ تعالى على هذا الأمر الغريب، وقال العلماء: أسْرى وسرى بمعنى سار في الليل، وهما لازمان لكن مصدر الأوّل: أسرى: الإسراء. والثاني: سرى. السُّرى بضم السين كهُدى، ومعنى أسرى بِهِ، صيّره سارياً في الليل. وقوله: «بِعَبْدِهِ» أي بروحه وجسمه الشريف على الصحيح، وقول غيره باطل. وقال: بعبده دون نبيّه أو حبيبه لئلا تضل به أُمّته كما ضلّتْ أُمّةُ المسيح حيث ادّعته إلٰهاً. وليكون بُرهاناً صادقاً على أنه تعالى أسرى

به بجسمه وروحه لأنهما همـا المرادان من عبـده، محمّد ﷺ، ولـو كان الإسـراء بالمنام لما كان لذكر العبد فائدة، ولما كان موجباً للتّعجيب، ولما كان لذكر الليل فائدة في قوله «أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً» نصب على الظرف، وفائدته الإشارة بتنكيره إلى تقليل مُدّته. أي حصل الإسراء في جزء قليل من الليل قيل: قدر أربع ساعـات، وقيل: ثلاث، وقيل: أقل من ذلك. وهذا بخلاف ما لو قيل أسرى بعبده الليـل. فإن التركيب مـع التعريف يفيـد استغراق السّير لجميع أجزاء الليل. وقـوله «من الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» أي من مكّـة، وهذا يعني أنّـه ﷺ كان في تلك الليلة نـائماً في المسجد، فاحتملتـه الملائكـة إلى زمزم، وشقُـوا صَدْرَه الشـريف هناك، ثُمَّ ركب البُراق من باب المسجد، أخرج البخاري عن أنسٍ بن مالكٍ عن مالِك بْنِ صَعصعةَ رضي اللَّهُ عنه «أنَّ نبيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَـهُ عَنْ لَيْلَةِ أُسْريَ قـال: بيْنَما أَنَـا في الْحَطِيم ـ وربما قال في الحجر ـ مضطجعاً، إذْ أتَاني آتٍ فَقَدَّ ـ قال: وسمعتُه يقولُ: فَشَقَّ ـ ما بَيْن هٰذِهِ إلى هٰذِهِ، فقلتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إلى جنبي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قال: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إلى شِعرَتِهِ وَسَمِعْتُهُ يقولُ من قَصِّهِ إلى شِعْرَتهِ ـ فـاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُوتيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءةٍ إيماناً، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدابَّةٍ دُونَ الْبغْلِ وفوْقَ الْحِمارِ أَبْيَضَ ـ فقال له الجارودُ ـ: هُوَ الْبُراقُ يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم. يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَىٰ طَرْفِهِ. . . » الحديث وهذا دليل قاطعٌ على أن الإسراء والمعراج كانا بجزء من الليل، وبـروحه وجسمـه ﷺ، وإلا لَمَا كـان لشق صدره، وإخراج قلبه في المنام فائدة، وقيل: أسرى به من دار أم هانىء بنت أبي طالب، وهي بنت عمه: أخت عليّ رضي اللَّه تعالى عنه، فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام: الحرَم. وقوله: «إِلَى الْمَسْجِـدِ الأَقْصَىٰ» أي القاصي يعني بيت المقدس، وأوّل من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما في المواهب، فهو أوّل مسجد بني في الأرض بعـد الكعبة. والمسـافة بينهمـا قدر شهـر، أو أكثر في سيـر الإبل «الَّـذِي باركْنَـا حَوْلَـهُ» بالثمـار والأنهار فهي بـركة دنيـويّـة، وهي ليست إلَّا حـول الأقْصى، وأمّا في الداخل فالبركة في كُلّ من المسجدين، بل هي في الحرام أتمّ، وهو كثرة الثواب فيهما بـالعبادة، وسمّى الأقصى مبـاركاً لأنّـه مقرّ الأنبيـاء، ومهبط الملائكة والـوحي، وقبلة الأنبياء قبـل نبيّنا ﷺ، وإليـه يحشر الخلق يـوم القيامـة.

«لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» عجائب قدرتنا، وهو متعلق بأسرى، وقوله: «مِنْ آيَاتِنَا» من للتبعيض، وإنما أتى بها تعظيماً لآيات اللّه تعالى. فإنّ الذي رآه ﷺ وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة إلى آيات اللّه، وعجائب قدرته، وجليل حكمته «إنّهُ هُو السَّميعُ الْبَصِيرُ» أي العالم بأقوال النبيّ ﷺ وأفعاله، فأنعم عليه بالإسراء المشتمل على اجتماعه بالأنبياء، وعروجه إلى السّماء، ورؤية عجائب الملكوت، ومناجاته له تعالى، وقوله ﷺ في حديث مسلم «أُتيتُ بالبُراق» هو بضم الباء الموحدة. قال أهل اللغة: البراق اسم الدَّابة التي ركبها رسولُ اللّهِ ﷺ ليلة الإسراء. قال الزبيدي في مختصر العين، وصاحب التحرير: هي دابة كان الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم يركبونها، قال النووي[1]: وهذا الذي قالاهُ من اشتراك جميع الأنبياء فيها يحتاج إلى نقل صحيح. قال ابن دريد: اشتقاق البراق من البرق إن شاء اللّهُ تعالى، يعني لسرعته. وقيل: سمي بذلك لشدّة صفائه، وتلألئه وبريقه، وقيل: لكونه أبيض. وقال القاضي: يحتَملُ أنَّهُ سُمّي بذلك لكونه ذا لونيْن. يُقال شاةٌ برقاء. إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود. قال: وَوُصِف في الحديث بأنّه أبيض، وقد يكون من نوع الشاة البرقاء، وهي معدودة في البيض. انتهى ما نقله النووي. قوله: «**فرَكِبْتُهُ حتّى أتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُه بالْحَلْقَةِ الَّتي يَرْبِطُ بِهِ الأنْبِيَاءُ**» صلوات اللّه عليهم قال صاحب التحرير: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس[2] وفي الكرخي: قوله: «**فركبْتُهُ**» الحكمة في كونه أسرى به راكباً مع القدْرة على طيّ الأرض له الإشارة إلى أنّ ذلك وقع له على حسب العادة في مقام خرق العادة لأنّ العادة جرت بأن الملك إذا استدعى من يختصّ به بعث له ما يركبه. انتهى. وقوله: «**بالحلْقةِ**» بإسكان اللام، ويجوز فتحها، والربط للاحتياط في الأمُور، وبيان طلب تعاطي الأسباب لا يقدح في التّوكل. كذا في الخازن. أي إذا كان الاعتماد على اللّه تعالى ابتداء عقد النيّة. قوله: «**ثُمّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فيه رَكْعَتيْن**» أي

---

(١) فتح الباري جـ٧ ص ٢٠١ باب المعراج رقم الحديث (٣٨٨٧) وكذا رواه مسلم رقم الحديث (١٦٤) باب الإسراء برسول اللّه ﷺ.
في شرح مسلم جـ٢ ص ٢١٠ المجلد الأول.

(٢) ذكره النووي في الشرح جـ٢ ص ٢١١ المجلد الأول.

إماماً بالأنبياء والملائكة وأرواح المؤمنين. وفي التاريخ لابن كثير[1]: وكان عبد اللّه بن مسعود فيما بلغني يقول: «أُتي رسُولُ اللّهِ ﷺ بالبُراق، وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضعُ حافرها في موضع منتهى طرفها فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بيْن السَّماء والأرض حتّى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمُعوا له فصلّى بهمْ. . . » الحديث. قوله: «ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السّلامُ بإنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فقال جبريلُ ﷺ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ» والمراد أنه ﷺ قيل له: اخْتَرْ أيَّ الإناءين شئْتَ، فألهم ﷺ اختيارَ اللّبن، وهو الفطرة التي فُسّرت هنا بالإسلام والاستقامة. أي اخترت علامة الإسلام والاستقامة، وجعل اللّبن علامة لكونه سهلاً طيّباً طاهراً سائغاً للشاربين، سليم العاقبة، وأمّا الخمرُ فإنّها أمُّ الخبائث، وجالبة لأنواع من الشرّ في الحال والمآل. قوله: «ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاء» أي سماء الدنيا «فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ» أي أهل السماء الأولى «فقيلَ من أنْتَ» فيه دليل على أن للسَّموات أبواباً يُدخل منها، وبوّابين وحُرّاساً «قيلَ وَمَنْ مَعَكَ» يستفهم سكان السماء الدنيا من جبريل، من هذا القادمُ معك، فإنّا لا نعرفه «قَالَ» جبريل: هذا «مُحَمَّدٌ» ولكن استفهموا منه «قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ»؟ أي هل طلبه اللّهُ تعالى؟ «قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ» أي نعم قد طلبهُ اللّهُ تعالى «فَفُتِحَ لَنَا» أي فتح البوّابون باب السماء الأولى. قال عليه الصلاة والسلام: «فإِذَا أنَا بآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي» فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصّلاح بالبشر والترحيب، والكلام اللّين الحسن، وإن كان الزائرُ أفضلَ من المزور. وفيه: مدح الإنسان في وجهه، إذا أمن عليه من الإعجاب وغيره من أسباب الفتنة. وكان عروجه ﷺ من بيت المقدس إلى السماء الأولى بواسطة المعراج الذي نصبه له جبريل عليه السلام جيء به من الجنّة، وهو سلّم له عشر مراق، واحدة من فضّة، وأخرى من ذهب، وجانباه أحدهما من ياقوتة حمراء والآخر من ياقوتة بيضاء، وهو مكلل باللؤلؤ وغيره من معادن الجنّة. فنصبه جبريل فجعل أسفله على صخرة بيت المقدس، وأعلاه إلى العرش بين كُلّ مرقاة،

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ١٠٩.

والأخرى ما بين السّماء والأرض، والمرقاة السفلى منه كان محلّها عند السَّماء الدنيا، والثانيةُ عند الثّانيَةِ، وهكذا فللسّمٰوات سبع مراق، والثامنة للسدّرة المنتهى، والتّاسعة للكرسي، والعاشرة إلى العرش، فلمّا همَّ بالصّعود نزلت التي عند السَّماء الدنيا، فركبها، وصعدت به إلى السَّماء الدنيا، فلمّا وصلها نزلت التي عند السماء الثانية فركبها، وصعدت به إلى السّماء الثالثة، ثم نزلت التي عند الثالثة. وهكذا * انتهى من معراج القليوبي، وفي القامُوس: المرقاة بفتح الميم وكسرها: الدّرجة[1] وفيه: السَّماء الدنيا من موج مكفوف. أي ممنوع من التفرّق والتّقطع، والثانية من مرمرة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضّة، والسَّادسة من ذهب، والسَّابعة من ياقوتة حمراء، والكرسيُّ من ياقوتة بيضاء، والعرش من ياقوتة حمراء، وأبواب السّمٰوات كلها من ذهب، وأقفالها من نور، ومفاتيحها اسم اللَّه الأعظم. اهـ معراج القليوبي. وفي كل سماء من السبع يذكر ثلاثة أسئلة وثلاثة أجوبة. . وقوله: «**فَإِذَا أنَا بآدم**» أي ففاجأني لقيّ آدم. أي بروحه وجسده معاً كبقيّة الآتي ذكرهم في السَّمٰوات السبع، فاجتمع النبيُّ ﷺ بهم بأجسادهم وأرواحهم بعد أن اجتمع بهم كذلك في جملة الأنبياء في بيْت المقدس، فسبقه هؤلاء المذكورون إلى السَّمٰوات، ثم صعد فوجدهم فيها لحكم مذكورة في مبسوطات المعاريج. وقوله: «**ثمّ عَرَجَ بنا إلى السَّمٰاءِ الثّانِيَةِ. . . فَإِذَا أنَا بابْنَي الخالَةِ: عِيسَى ابن مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زكريّا. . .**» فيه مسامحة إذ عيسى ابن خالة يحيى لا ابن خالته، ويحيى ابن خالة أم عيسى لأنّ عيسى ابن مريم، وهي بنت حنّة، وحنّة أشاع فأشاع ولدت يحيى، وحنة ولدت مريم، ومريم ولدت عيسى، وعيسى مقيم في السَّماء الثانية مع الملائكة لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام لاتّصافه بصفات الملائكة. وقوله: «**ثم عَرَجَ بي إلَى السَّماءِ الثالثة. . . فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هُوَ قدْ أُعْطِيَ شطْرَ الْحُسْن. . .**» أي نصف حقيقة الحسن من حيث هي لا نصف الحسن الذي أُعطي لمحمد ﷺ إذ هو غير منقسم، ولم يعط منه شيء لغيره، فشطر الحسن الذي قام بمحمّد ﷺ لم يعط منْه شيء لغيره قطّ. وقوله: «**ثم عَرَجَ بِنَا إلى السَّمٰاءِ الرابعة. . . فإذا أَنَا بإدريسَ. . .**» وهو أوّل من خاط

(1) الفتوحات الإلهيّة جـ٢ ص ٦١٠.

الثيابَ، وقبله كانوا يلبسون الجلود. وقوله: «**ثمّ عَرَجَ بنا إلى السَّماء الخامسة... فإذا أنابهارون...**» أي أخي موسى عليهما الصّلاة والسلام. قوله: «**ثم عَرَجَ بِنا إلى السَّماءِ السادسة ـ فإذا بموسىٰ...**» عليه السلام. قوله: «**ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماء السّابعة... فإذا أنَا بإبراهيم ﷺ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إلى البيْت المعْمُور**» قال القاضي رحمه اللَّهُ: يستدلُّ به على جواز الاستناد إلى القبلة، وتحويل الظهر إليها[1] والبيتُ المعمور في السَّماء السابعة، قدام العرش بحيال الكعبة، يقال له الضراح، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض. وفي رواية مسلم هذه أنّه ﷺ رآه في السّماء السابعة فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، وفي رواية أخرى. قال: فانتهيْتُ إلى بناء، فقُلتُ للملك: ما هذا؟ قال: بناء بناه اللَّهُ للملائكة يدخل فيه كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون، يسبحون اللَّه ويقدّسُونه. وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبيّ ﷺ. أنه رأى البيْتَ المعمُورَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ ألف ملك» أي بالطواف والصلاة لا يعودون إليه أبداً. ذكره الجلال قوله: «**ثُمَّ ذَهَبَ بِي إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى**» في الأصول: السِّدْرَة بالألف واللام، وفي الروايات بعد: هذه سدرة المنتهى. قال ابن عباس والمفسرون وغيرهم: سُمّيتْ سِدْرَةَ المنتهى لأنّ علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلاّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ. وحكي عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه. أنّها سُمّيت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها، وما يصعدُ من تحتها من أمر اللَّه تعالى[2] وفي تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إلاّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] قال مقاتل: وَمَا مِنّا إلاّ لَهُ مَقَامٌ معلومٌ. هذه الثلاث آيات ـ أي ما بعدها ـ نزلت ورسولُ اللَّهِ ﷺ عند سدْرة المنتهى. فتأخّر جبريلُ، فقال النبيُّ ﷺ: أهنا تفارقني؟ فقال جبريل: ما أستطيعُ أن أتقدّم عن مكاني هذا * والتقدير ما منّا ملك إلاّ له مقام معلوم. أي مكان معلوم في العبادة. قاله ابن مسعود وابن جبير. وقال ابن عباس: ما في السَّمٰوات موضع شبر إلاّ وعليه ملك يُصلّي ويسبّح. وقالت

---

(١) انظر فيما تقدّم تفسير الخازن جـ٣ ص ١٤٩، وتفسير الفتوحات الإلهية جـ٢ ص ٦١١، وشرح مسلم للنووي جـ٢ ص ٢١٣ المجلد الأول.

(٢) شرح مسلم جـ٢ ص ٢١٤ المجلد الأول.

عائشة رضي الله عنها قال النبيُّ ﷺ: «**مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إلاَّ عَلَيْهِ مَلَكٌ ساجدٌ أوْ قائِمٌ**» اهـ وعبارة الغيطى في الفتوحات[1]: ثُمَّ رُفِعَ إلى سدرة المنتهى. والمذكور في كتب المعراج، أنَّ المعاريج كانت عشرة، وأنّ الثامن هو ما بين السماء السابعة، وسدرة المنتهى، والتاسع منها إلى الكرسي، والعاشر منه إلى العرش، وأنّ ارتفاع كُلّ معراج خمسمائة عام * وهذه السدرة شجرة نبق، وقوله: «**فإذا أوراقها كآذانِ الفيلَة**» أي في الشكل التقريبي، وإلا فكلُّ ورقة منها تُظلُّ جميع الخلق. قوله: «**وإذا ثمرُهَا كالقِلاَلِ**» قال الخطابي: هي بكسر القاف، جمع قُلّةٍ بالضمّ هي الجرار، يريدُ أنّ ثمرها في الكبر مثل القلال، وكانت معروفة عند المخاطبين، فلذلك وقع التّمثيل بها. اهـ كرخي. قوله: «**فَلمَّا غَشِيَهَا**» أي نزل بها، وقام بها ما غشيها من الحُسْنِ وكثرة الألوان العجيبة، فما أَحَدٌ من خلق اللَّهِ تعالى يستطيعُ يصفها من حسنها، وهو احتفاء برسول اللَّه ﷺ، وتكريمٌ بقدومه ﷺ. وقوله: «**فأوْحَى اللَّهُ مَا أوحَى...**» الحديث أي لما وقف جبريل عند سدرة المنتهى زُجّ برسول اللَّه ﷺ في الحجُب، ووصل مكاناً لم يصله مخلوق، ودنا من ربِّه عزّ وجلّ، ورآهُ بفؤاده مرتين قال ابن عباس، وأوحى إليه ما أوحى من الأسرار العجيبة التي لم تُوح لغيره من الأنبياء، وبعضها لم يؤذن له في إظهارها، وظلّتْ مكتومة لديه ﷺ حتّى وافاه المنون، ولقي وجه ربّه. لقد قرّبه منه تعالى لظهور عظيم منزلته لديه، وإشراق أنوار معرفته عليه، واطلاعه من غيبه، وأسرار ملكوته على ما لم يطّلع سواه عليه. والدنو من اللَّه سبحانه له إظهار ذلك له، وعظيم برّه، وفضله العظيم لديه. وقوله: «**فَفَرَضَ عليَّ خَمْسين صَلاَةً...**» في الكرخي. وقع في رواية أنس عن أبي ذرّ: «فَفَرَضَ اللَّهُ على أُمّتي» فإمّا أن يقال في كل من الرّوايتين اختصار، أو يُقال ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأُمّة. وقوله: «**فنزلتُ إلى موسَى...**» أي في السّماء السادسة. قال القرطبي: في تخصيصه ﷺ بمراجعة نبيّنا في أمر الصلاة لكون أُمته كلفت من الصلوات بما لم يكلف به غيرها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسىٰ على أُمّة محمّد ﷺ. ويشير لذلك قوله: إنّى

(١) جـ٢ ص ٦١١.

جربتُ النّاسَ قبلك. اهـ وفي نسخة: جرّبتهم. أي اختبرتهم بأن كلفتهم بإذن اللّه تعالى بركعتين في الغداة، وركعتين في وقت الزوال، وركعتين في العشيّ فلم يُطيقُوا ذلك، وعجزوا عنه. قوله: «**فارجعْ إلى ربّك**» أي إلى مكان مناجاة وخطاب ربك، وهي مسافة بعيدة جدّاً، وهل كان يرافقه جبريل عليه السلام بتلك المراجعة حتى مقامه المعلوم؟ لم أقف على ذلك. قوله: «**حطّ عَنّي خمساً**. . .» وجملة مرات الإسقاط تسع مرات، وكلها رأى ﷺ فيها ربّه عز وجل ـ ببصره أو بفؤاده ـ كما رآه في المرّة الأولى. فيها خلاف ليس هنا موضع بسطه. وقوله: «**حتّى قال يا مُحَمَّدُ إنَّهُنّ خمْسُ صلواتٍ كُلَّ يوم وليلة**. . . **إلى قوله: كُتبَتْ سيّئةً وَاحِدَةً**» هذا حديث موسىٰ من كلامه تعالى، فضاعف اللّه تعالى ثواب الصلاة الواحدة بعشر صلوات منّاً منه تعالى وفضلاً، وجوداً وكرماً. وفي الخازن[1] قال البغوي: رُوي أنّه لما رجع ﷺ ليلة أُسْري به، وكان بذي طوى. قال يا جبريل! إنّ قومي لا يُصدّقوني. قال: يُصدّقك أبو بكر، وهو الصدّيق. قال ابن عباس وعائشة: أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «**لمَّا كانت ليلة أسرى بي إلى السَّماءِ أصبحتُ بمكّة فَضُقْتُ بأمْري، وعرفْتُ أنَّ النّاسَ يكذّبُوني**» فروى أنّه ﷺ قعد معتزلاً حزيناً، فمرَّ به أبو جَهْلٍ فجلس إليه، فقال كالمستهزىء: هل استفدتَ من شيء؟ قال: نعم. أُسْري بي الليلةُ. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيْت المقدس. قال أبو جهل: ثُمَّ أصبحتَ بين أظهرنا؟ قال: نعم، فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، ولكن قال: أتحدّثُ قوْمك بما حدّثتني به؟ قال: نعم. قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤيّ، هَلُمُّوا، فانفضّت المجالسُ، وجاؤوا حتى جلسُوا إليْهما. قال: حدّث قوْمَكَ بما حدَّثْتَنِي به. قال: نعم أسرى بي الليلةُ. قالُوا: إلى أين؟ قال: إلى بيْت المقدس. قالوا: ثم أصبحتَ بين أظهرنا!؟ قال: نعم. قال: فبقي النَّاسُ بَيْن مُصفّقٍ، وبَيْن واضعٍ يده على رأسه متعجّباً، وارتدّ أُناسٌ ممن كانَ قَدْ آمن به، وصدّقه، وسعى رجُلٌ من المشركين إلى أبي بكر، فقال له: هل لك في صاحبك يزعم أنّه أُسري به اللّيلة إلى بيت المقدس. قال: أو قد قال ذلك؟ قال: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقدْ صدق، قالُوا: أو تُصدّقه أنّه ذهب إلى بيت المقدس،

(١) جـ٣ ص ١٥٠.

وجاء في ليلة قبل أن يُصبح؟ قال: نعم، إنّي أصدّقه بما هو أبعد من ذلك، أُصدّقه بخبر السَّماءِ في غدوة، أو روحة، فلذلك سُمّي أبو بكر الصدّيق. قال: وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى. قالُوا: هل تستطيعُ أن تَنْعَتَ لنا المسجد؟ قال: نعم. قال: فذهبْتُ أنعتُ حتّى التُبسَ عليَّ، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليْهِ حتّى وضع دون دار عقيل، فنعتُّ المسجد، وأنا أنظر إليه، فقال القومُ: أمَّا النعتُ فواللَّهِ لقد أصابَ فيه، ثُمَّ قالُوا يا محمَّدُ! أخبرنا عن عيرنا فهي أهمُّ إليْنَا هلْ لقيتَ منها شيئاً؟ قال: نعم، مررتُ بعير بني فلان، وهي بالروْحاء، وقد أضلُّوا بعيراً، وهم في طلبه، وفي رحالهم قَدَحٌ مِنْ مَاءٍ، فَعَطِشْتُ فأَخَذْتُهُ فشربتُه ثم وضعتُه كما كان، فَسلُوا هل وجدُوا الماء في القدح حين رجَعُوا. قالُوا: هذه آية، قال: ومررتُ بعير بني فلان وفلان راكبان قُعوداً لهما، بذي مرّ، فنفر بعيرها مني، فرمى بفلان فانكسرت يده فَسَلُوهما عن ذلك. قالُوا: وهذه آية أخرى، قالُوا: فأخبرنا عن عيرنا؟ قال: مررتُ بها بالتنعيم، قالُوا: فما عدّتُها؛ وأحمالها وهيْئتها؟ فقال: كنتُ في شغل عن ذلك، ثُمَّ مُثّلتْ لَهُ بعدّتِها وأحْمالها وهيئتها ومن فيها، وكانُوا بالحزورة. قال: نعم هيئتُها كذا وكذا، وفيها فلان وفلان يقدمها جملٌ أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عنْدَ طُلُوع الشَّمْسِ، قالُوا: وهذه آيةٌ، ثمّ خَرَجُوا يشتدُّون نحو الثْنيّة، وهم يقُولونَ: واللَّهِ لقد قصّ محمَّدٌ شيئاً وبيَّنَهُ حتّى أتوا كداء فجلَسُوا عليه، فجعلُوا ينظرون متى تطلع الشّمسُ فيكذّبونه إذْ قال قائل منهم: هذه الشّمسُ قد طلعتْ، وقال آخر: وهذه العيرُ قد طلعت يقدمها بعيرٌ أورق فيها فلان وفلان كما قال، فلم يؤمنُوا، وقالُوا: هذا سحرٌ مبين. انتهى **

قلت: إنّ اختراق السّمٰوات السّبع بجسده الشريف ﷺ من أعظم المعجزات التي أعطيها ﷺ إنّها معجزة تفوق معجزات الأنبياء جميعهم لما لها من روعة الهيبة والخشية، والجلال، جسدٌ بشري يتخطّى عوالم السّمٰوات كلها، ويطلع على سعتها، وكثرة أهلها، وتنوّع ساكنيها التي تشرفت برؤيته، وحظيت بنيل رحمته وبركته، يا للأمر العظيم! ويا للفرح العظيم، تصطف له الملائكةُ والأنبياءُ كُلٌّ في موقعه للترحيب به واستقباله، إنّه ترحيبُ السّمٰوات السبع كلها بخيرة مخلوقات اللّه: محمد بن عبد اللّه ﷺ في ليلة مشرقة مضيئة على الأكوان كلها تبشّرُ الإنسانيّة

بالتكاليف الإلٰهيّة. التي هي سبب فلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة. لقد كان عليه الصّلاة والسلام كلما جاء سماءً تلقتْهُ منها عابدوها، ومقرّبوها، ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء، وذكر ﷺ في هذه الرحلة السَّماوية من رآهم من الأنبياء والمرسلين، فرأى آدم عليه السلام في السّماء الدنيا، وعلّة وجوده فيها ليكون قريباً من ذريّته موزّعاً أرواح بنيه إلى الجنّة صُعداً، وإلى النّار هبوطاً، أخرج البيهقيّ في الدلائل وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيرهما، وغيرهم من طريق أبي محمد الحماني عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري عن النّبي ﷺ قال: «أُتيتُ **بالمعراج الذي تعرج عليه أرواحُ بني آدم، فلم تر الخلائقُ أحسنَ من المعراج، ما رأيْتُ الميِّتَ حينَ يشقُّ بَصَرَهُ طامحاً إلى السَّماءِ، فإنَّ ذلك عجبه بالمعراج، فصعدتُ أنا وجبريلُ فاسْتفتَح بابَ السَّماءِ فإذا بآدم تعرض عليه ذريّتُه المؤمنين، فيقُولُ روحٌ طيّبة، ونفسٌ طيّبة اجعلوا في عليين، ثمّ تُعرضُ عليه ذريّتُه الفجار، فيقول: روحٌ خبيثة ونفسٌ خبيثة اجعلُوها في سجّينٍ»**[1]

وإلى هنا تمَّ الكتاب بحمده وتوفيقه وعونه، سائله
تعالى أن يتقبّله مني خالصاً لوجهه الكريم،
وألا أحرم من ثواب تأليفه في دار
النعيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل

***

(١) الحاوي للفتاوى للسيوطي جـ٢ ص ٣٦٢.

من آثار المؤلف

* نشر وتوزيع دار الإيمان: سوريا. دمشق. شارع مسلم البارودي بناية دياب وطلس. س. ت: ٤٢٩٢٩ ص.ب: ١٠٠٦٥. هاتف.

١ ــ سبعون بُرهاناً علميّاً عَلَى وجود الذات الإلهيّة.

٢ ــ عقيدةُ السّلف والخلف في ذات اللَّه تعالى وصفاته وأفعاله.

٣ ــ مُعجزةُ القرن العشرين في كَشْفِ سُباعيّة وثُلاثيَّة أوَامر القرآن الكريم.

٤ ــ أوْثق الكلام في تعبير الأَحْلام.

* مكتبة الغزالي. دمشق ـ شارع خالد بن الوليد. ص.ب ٤٨٦ هاتف ١١٧٣٦٦

١ ــ البطولة الحقة في الإسلام.

* دار المعرفة بيرُوت

١ ــ صحيح السيرة وفقهها.

* دار الألباب. سوريا: دمشق. حلبوني هاتف ٢٣٩٨٢٠

١ ــ طريق السالكين إلى معرفة ربّ العالمين.

* دار المأمون للتُّراث للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ص.ب: ٤٩٧١ ـ هاتف ٢٢٩٨٢٠.

١ ــ جامع النقُول في أسباب النزول: مجلديْن

٢ ــ ذخائر النّاس في تفسير ابن عبّاس رضي اللَّهُ عنهما ثلاثة مجلدات.

* دار القبلة جدّة

١ ـ البيان في فضائل القرآن

* مكتبة الرّسالة الحديثة للطباعة والنشر والتّوزيع عمان: سوق الجامع الحسيني ص.ب ٦٦٠٠ تلفون ٣٩٩٥٧

١ ـ فتاوى المصطفى ﷺ تقع في أربع كراريس بخط المؤلف ابن خليفة عليوي.

دار الكتب العلمية بيروت

الفهرس

الموضوع | الصفحة